

«السترات الصفراء» يسدّون الشوارع

«مَن يَزرعِ البؤس يَجْنِ الغضب»

هل انطلق الربيع الغربي من فرنسا؟



أبو بكر الميادي

باريس

الإضرابات ليست غريبة على فرنسا، فكم مرة دعت النقابات منخرطيها إلى شن إضراب، إما للمطالبة بتحسين وضع، أو للتنديد بقرارات حكومية تخص هذا القطاع أو ذاك. وقد يكون الإضراب عامًا يشل الأنشطة، ويعطل كافة المصالح، كذلك الذي شنته الاتحادات النقابية عام 1995 وطوقت خلاله شاحنات النقل الكبرى سائر المدن الفرنسية تنديدًا بتعنت آلان جوبي، رئيس الحكومة اليمينية الأسبق، وإصراره فرض قرارات اقتصادية مُجحفة. ولكن لم يسبق أن عاشت فرنسا حركة تمرّد كالتي تقودها اليوم «السترات الصفراء» بعيدًا عن الأحزاب واتحادات العمال.

هذه الحركة التي بدأت متفرقة في بعض المناطق الفلاحية، وسدّت عددًا من الطرقات والمعابر تنديدًا بقرار الحكومة الترفيع في أسعار المحروقات، ثم اتسعت لتشمل قطاعات واسعة، وتقتحم المدن الكبرى، وتصل إلى شارع الشانزيليزيه، قلب باريس النابض، مع ما تلا ذلك من أعمال عنف وحرق وتدمير، وكأن عاصمة الأنوار في حالة حرب.



شاب يتحدى قوات الأمن في شارع الشانزيليزيه

بعض المحللين شبهوا هذه الحركة بالبوجادية التي ظهرت في الخمسينات، غير أن البوجادية كانت حركة سياسية لها حزب يرأسه بيير بوجاد (1920-2003) ومطالب محددة حول زيادة الضرائب، والمساهمة في الصناديق الاجتماعية، المفروضة على قطاع بعينه هو قطاع التجار والحرفيين. فيما شبههم آخرون بحركة النجوم الخمس في إيطاليا، وهي أيضًا حركة سياسية شعبوية أسسها الكوميدي جوزيبي غريلّو عام 2009، وقامت على خمس قضايا رئيسية هي: المياه العامة والنقل المستدام والنمو والاتصالات وحماية البيئة، ولكن زعيمها سرعان ما تحالف مع حزب الرابطة الشمالية اليميني المتطرف وساهم في إيصاله إلى السلطة.

كل ذلك يحدث في بلد حقوق الإنسان، الذي لا يتورع عن تقديم الدروس لبلدان العالم الثالث

وفي رأينا أن حركة "السترات الصفراء" أقرب إلى ثورات الربيع العربي، فخلافًا للتظاهرات السابقة التي كانت تنسقها منظمات نقابية، بدأت حركة "السترات الصفراء" واتسعت عبر المواقع الاجتماعية (فيسبوك وتويتر ويوتيوب)، ثم عبر مواقع مخصوصة، عندما نشرت، يوم 29 مايو 2018، سيدة من محافظة السين والمارن عريضة تطالب بالاعتراض على نية الحكومة الترفيع في سعر المحروقات بداية من غرة يناير 2019. وما كاد شهر أكتوبر ينقضي حتى بلغ عدد الموقعين على العريضة أكثر من مليون شخص، تنادوا عبر الشبكة إلى تنظيم وقفات احتجاج في مداخل المدن والطرقات المؤدية إليها. وما لبث أن انضم إليهم سائقو الشاحنات الكبرى، ودعوا إلى "غلق الطرقات في سائر المواقع الاستراتيجية " يوم 17 نوفمبر 2018. فكان ذلك اليوم منطلقًا لانتشار

الحركة في كامل أنحاء البلاد، بعد أن التحق بها كل متضرر من غلاء المعيشة، وكل ناقم على سياسة الدولة، وكل من يرى في إيمانويل ماكرون رئيسًا يرعى مصالح الطبقة الغنية وحدها، ولا يبالي بمآل الطبقة الوسطى، فضلًا عن الطبقة الفقيرة في ضواحي المدن الكبرى وفي المناطق الريفية المنسية. وبتضخم أعداد المتظاهرين وتنوع انتماءاتهم، صارت الحركة شعبية بامتياز، تحظى بمساندة أربعة أخماس الفرنسيين (80 %) حسب استطلاعات الرأي، لأنها صارت تعبر عن مشاعر السواد الأعظم من الفرنسيين عبر مطالبتها الحكومة بتغيير اختياراتها السياسية والاقتصادية، التي تضررت منها أغلب الشرائح المجتمعية. ولما صُمّت أذنا الرئيس ماكرون عن سماع تلك المطالب، وإيثار إدوار فيليب الحل البوليسي لمواجهة المتظاهرين، تصلبت الحركة، وهو ما شاهده العالم بأسره يومي: 24 نوفمبر والفاتح من ديسمبر، وباتت تطالب باستقالة الحكومة. وعلى غرار ما جرى في تونس ومصر واليمن وسوريا وليبيا، رفعت لافتات تعبر عن سخطها على ماكرون وتدعوه إلى الاستقالة.

ولعل خير ما يلخص الوضع الذي آلت إليه فرنسا جملةٌ كتبت على ظهر سترة صفراء: "مَن يَزرعِ البؤسَ يَجْنِ الغضبَ". فلئن كان الترفيع في سعر البنزين بثلاثة سنتيم والديزل بستة سنتيم ونصف مفجّرًا لهذا الغضب العارم، الذي شمل الأرياف والمدن، فإن أسباب الاستياء المتعاظم عميقة، تندرج ضمن الحركات الاجتماعية السابقة التي هزت عهدة فرنسوا هولاند، مثلما تهز الآن السنة



باريس تختنق بالغازات

الأولى من عهدة ماكرون الذي لا يتحرج من تشبيه نفسه بجوبيتر. وإن اختلفت عنها في عفويتها، وعدم خضوعها لحزب أو نقابة، إذ هي نابعة من السهول والوديان، ومن الطبقات الفقيرة والمتوسطة، فإنها مكوّن لما افتقدته النضالات العمالية حين حاولت عبثًا في نهاية الربيع الماضي كبح جماح سلطة ما انفكت تقدم شتى أنواع الامتيازات للأثرياء، وإرهاق كواهل الطبقات الشعبية والمتوسطة بالمزيد من الضرائب والمكوس. وشعار "ماكرون ارحل" الذي رفعه المتظاهرون يعطي مطالب "السترات الصفراء" بعدًا سياسيًا لم تجرؤ عليه الحركات الاجتماعية السابقة قبيل الصيف الماضي.

هذه الحركة التي لا تعرف هيكلة ولا زعامة، استطاعت في وقت وجيز استقطاب كافة الشرائح المجتمعية، من عمال الحظائر والمصانع وسكك الحديد والمتقاعدين والمدرسين والممرضين والحرفيين والمزارعين وتلاميذ المعاهد وطلبة الجامعات، ما يوحي بولادة حركة



باريس تشتعل



«السترات الصفراء» يقابلون العنف بالعنف

اجتماعية جديدة تناهض سياسة نظام يصم أذنيه عن شكاوى ملايين الفرنسيين، ويرد على هديرهم الغاضب بالتعالي والاستهانة، وبث أعوان أمن في صفوفهم متنكرين لمزيد خلق الفوضى وتبرير حظر الجولان لاحقًا أو قمع المتظاهرين كما شاهدنا في بداية التحرك، ما زاد في إثارة غضب الفرنسيين وتزايد أفواجهم بانضمام التلاميذ والطلبة.

ويعتبر ظهور "السترات الصفراء" من خارج الهياكل النقابية والسياسية التقليدية وأنماط تحركها ووسائل تعبيرها تحديًا لكل المؤسسات: تحديًا للنقابات التي قدمت ضمانات للخيارات المخلة بالمكتسبات الاجتماعية التي اتخذها إيمانويل فالس ووزيره ماكرون في عهد الرئيس الأسبق فرانسوا هولاند؛ وتحديًا للنقابات التقليدية التي عجزت عن توحيد كلمتها ضد تدمير قانون الشغل وخصخصة المؤسسات العامة وتراجع المقدرة الشرائية؛ وتحديًا للأحزاب السياسية التي تنكرت لوعودها الانتخابية وصوتت في بروكسل لكل النصوص التي فرضت على فرنسا إصلاح قانون الشغل لديها؛ وتحديًا لطبقة سياسية أمعنت في الانبطاح لرؤوس الأموال وأرباب الشركات الكبرى، طمعًا فيما يأتيها من ريع؛ وتحديًا لماكرون بعد أن صار رئيسًا، وبات يغدق على الأثرياء بغير حساب، عن طريق سن قوانين لفائدتهم دون اعتبار للأوضاع الكارثية التي بات يعانيها الشعب الفرنسي؛ وتحديًا للسلطة التي حاولت الطعن في صدقية "السترات الصفراء" زاعمة أنها حفنة من الأنارشيست (المتحاملين على كل نظام قائم).

في تحليله لهذه الظاهرة، بيّن فريدريك ساويكي، أستاذ العلوم السياسية بالسربون، أن المتظاهرين ليس لهم من ينوبهم، بشكل مباشر أو غير مباشر، لا سيما بعد انتخاب ماكرون رئيسًا. فالمجلس الوطني تبرجز هو نفسه ولم يعد يحوي في رحابه أي ممثل عن طبقات العمال والحرفيين والمزارعين، ما خلق فجوة بين البرلمانيين والشعب، يحاول كل من لم يعد له صوت أن يصرخ بكل ما أوتي من قوة لإبلاغ موقفه. أما هنري غينو، المستشار الخاص للرئيس الأسبق نيكولا ساركوزي، فقد رأى أن هذه الحركة ذات النسغ الشعبي تستمد جذورها من فشل السياسات المتبعة منذ عشرات السنين، وعجز الحكومات المتعاقبة على فهم حياة الناس وسماع مشاغلهم اليومية، والإقرار بأن العولمة السعيدة ليست سعيدة لكل الناس. ووصف الحركة بكونها تمردَ كلّ من طفح بهم الكيل، تمردَ مجتمع لم يعد يريد مواصلة اللعبة، وتعبيرًا عن "فوبيا" تجاه ماكرون لاحظها المراقبون منذ بضعة أشهر. وفي رأيه أننا نخطئ لو بحثنا عن بعدها السياسي، لأن بعدها السيكولوجي أهم بكثير. ويضيف قائلًا: "هذه الأزمة هي تمرد ضد كافة أشكال السلطات، وضد السلطة التي لا تسمع، وبطبيعة الحال ضد الرئيس الذي يمثل تلك السلطة. وبما أن "الفوبيا" لا تملك عقلانية سياسية، فمن الصعب ترويضها والسيطرة عليها."

وأمام كثرة اللافتات والشعارات التي تدعو صراحة إلى استقالة ماكرون، أكد كل من أتيحت له فرصة الظهور في وسائل الإعلام أن "السترات الصفراء" أبعد



مدرّعات الشرطة في شوارع باريس لأول مرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية

ما تكون عن التفكير في تشكيل حزب سياسي أو الاستيلاء على السلطة، وما هي إلا صيحات مسحوقين من كل الأعمار والأجناس، فزعين أمام بطش العولمة، منسيين في الضواحي والمناطق النائية، ضحايا منظومة جبائية غير عادلة، تمتص عرق البسطاء لتهديها إلى الأثرياء، الذين أوصلوا ماكرون إلى سدة الحكم.

كل ذلك يحدث في بلد حقوق الإنسان، الذي لا يتورع عن تقديم الدروس لبلدان العالم الثالث، والضغط عليها لترشيد اقتصادها واستغلال ثرواتها، وشجب قمعها للمتظاهرين في ساحاتها، ونصح حكامها بالسبيل الواجب اتباعه لحفظ كرامة الإنسان. وها هو يشهد ما شهدته أقطار الربيع العربي، من ثورة بدأت رقمية، قبل أن تتنادى الأصوات الغاضبة وتتجمع في الشوارع والساحات العامة، وقد ضاق صدرها بما تلقاه من حكامها من جور وفساد، وما تلحظه من تبديد لمقدرات تتوزع بين البطانة والحاشية، على قدر مراتبهم.

وإذا كان التونسيون قد نزلوا إلى الشوارع هاتفين: "حرية، كرامة وطنية!" و"خبز وماء وبن علي لا!"، ثم تلاهم المصريون منادين: "عيش وحرية وعدالة اجتماعية!"، فإن الفرنسيين هبوا أيضًا من كل صوب للمطالبة بالعدالة الاجتماعية، وبالكرامة التي يعدمها المرء إذا جاع، وقد شاهدنا عددًا من المتدخلين يشكون ضيق ذات اليد، وشعورهم بالحرمان من عيش يحفظ كرامتهم، بل إننا شاهدنا فتاة ذات سترة صفراء ترفع يديها أمام الناس صارخة، ثم تجثو على ركبتيها منتحبة: "أنا جائعة! لا أجد ما آكل!"



شوارع باريس تتحول إلى ساحة معركة



حرق السيارات وتحطيم المحال التجارية



كما يلتقي هذا التمرد، الذي قد يتحول إلى ثورة تقلب النظام القائم، في غياب القيادة والمانيفستو الثوري الذي يلخص دوافع الثوار وما يعدون بتحقيقه، مثلما يلتقي في توسل محركيه بوسائل الاتصال الحديثة، لحشد الملايين، تنديدًا بساسة متعالين، لا يعرفون الأجر الأدنى ولا ثمن الرغيف. ولكنه يختلف عما جرى في تونس ومصر، فرغم آلة القمع التي استعملها نظاما بن علي ومبارك لكسر شوكة الثورة، لم يلجأ الثوار العرب إلى العنف، بل صمدوا وصبروا وصابروا حتى أدركوا النصر.

وعلى غرار انتقال الثورة من تونس إلى مصر، ثم ليبيا، واليمن، وسوريا، وجد تمرد "السترات الصفراء" أصداء في بعض المدن البلجيكية والألمانية، حيث عمد المهمشون من ضحايا العولمة إلى اتباع الفرنسيين في التعبير عن سخطهم وضيقهم بأوضاعهم المزرية.

وما تلك إلا بداية قد تعقبها حركات مماثلة تؤكد حلول ربيع غربي.

حتى الآن، لم يبدر عن النظام ما يلبي طلبات المحتجين. فأمام الدعوات المتتالية إلى عزل ماكرون، صرح الرئيس الفرنسي قائلًا: "إذا كنتم تريدون رحيلي فلماذا انتخبتني الأغلبية منكم."

أما الوزير الأول فجاء ردّه أكثر تخييبًا لآمال الملايين، إذ طلع عليهم ليعلمهم أن حكومته تعتزم تجميد قرار الترفيع في المحروقات. وهو بخطابه ذاك، إنما يذكر بماري أنطوانيت حين عرضت عام 1789على الجوعى الذين ما عادوا يجدون الخبز، أن يأكلوا البسكويت.



مترجم إدوار الخراط وعالية ممدوح ومريد البرغوثي

المستعرب الإسباني إغناطيوس غوتيريث دي تيران بينيتا:

أمنيتي نقل ما تيسّر من ديوان المتنبّي إلى الإسبانية

يُثار في السنوات الأخيرة جدل حادّ يتعلّق بالثقافة العربيّة والإسلاميّة، إلاّ أنّ ما طغى عليه اتّسم في الكثير من الأحوال بالسطحيّة وغياب المنظور الموضوعي وضرب صيغة التعايش السلمي بين الثقافات في عصر العولمة المتأجّجة والصّدامات الفكريّة والسياسيّة في لحظة تاريخيّة تعرف تحوّلات مزلزلة وإعادة ترتيب في مستوى العلاقات بين المجتمعات المحتكّة بعضها ببعض، اخترنا في هذه الظروف الاستثنائيّة محاورة المستشرق الإسباني إغناطيوس غوتيريث دي تيران غوميث بينيتا الذي عُرف بإلمامه بقضايا الثقافة العربيّة اللّغويّة والفنّية الأدبيّة حديثها وقديمها.

وإغناطيوس أستاذ متخصّص في الدّراسات العربيّة والإسلاميّة والدّراسات المشرقيّة في جامعة أوتونوما بمدريد، إسبانيا.

ألف عددًا من الكتب والمقالات والأعمال الجماعية في مواضيع شتى ترتبط بالثقافة العربية وتاريخ العالم الإسلامي المعاصر، ونذكر في هذا الشأن أمثلة من قبيل «اليمن: المفتاح المنسي في العالم العربي»، و«العراق: الاجتياح والاحتلال والفوضى»، و«رحلة علي باي إلى المغرب»، كما ترجم إلى الإسبانيّة مجموعة من الروايات والدواوين والمقالات العربية، لعلّ من أشهرها روايات: «رأيت رام الله» لمريد البرغوثي، و«حجارة بوبيللو» لإدوار الخرّاط، و«حبّات النفتالين» لعالية ممدوح. ونقل كذلك بعض الأعمال الروائية الإسبانية إلى العربية. أقام لفترات متفاوتة في عدة بلدان عربية من ضمنها: مصر وسورية والمغرب، وتميّز صوته بموضوعيته وإنصافه للثقافة العربيّة في غمار التحدّيات التي تواجهها اليوم.



حوار أجراه

أصيل الشابي



سألناه:

لا يخفى على المتتبّع للأخبار في أوروبا هذا الجدل الذي نشأ مؤخّرًا حول اللّغة العربيّة في فرنسا، وهذا مجرّد مثال، لمّا عزم وزير التربيّة الفرنسيّة جان ميشيل بلانكيه في 10 سبتمبر من العام الفائت على إدراج اللّغة العربيّة في المدرسة الفرنسيّة لتدريسها في المستوى الابتدائي كلغة اختياريّة. فلماذا كلّما طرحت هذه المسألة خضعت للتسييس والمنظور الإيديولوجي بحيث يظهر الأمر برمّته وكأنّه مواجهة يقودها السياسيون المعارضون، ويمثّلهم هنا اليمين، ضدّ المهاجرين العرب، وذلك خارج نطاق المواطنة المشتركة المنظّمة بالقوانين والتعاقد الاجتماعي على مدى عقود طويلة؟

وجاء ردّه:

حقا، لطالما سعى البعض إلى تسييس اللغة العربية وأدلجتها، على الرغم من أن اللغة وكل ما يحيط بها من علوم تتفرع عنها بريئة كل البراءة من هذه المناورات الخشنة.وتعقيبًا على مساعي البعض لإقحام السياسة في فضاء اللغة، وجب تذكيرهم بأنّ الأخيرة أكبر بكثير من الأولى لأنها في الأساس كانت سابقة عليها، بل هي التي أسّستها، ولذلك فإن اللغة، أي لغة، ليست سياسية ولا يمكن أن تكون لأنها أبيّة على التسيس، وأي فقيه في اللغة يحترم نفسه ينتفض كلما نبا إلى علمه أصداء النظرية القائلة بـ «اللغة كإيديولوجية». كما نستهجن الخطاب الطبقي المفروض على اللغات وتصنيفها على أساس «جودتها» وقدرتها المفترضة على التكيف مع القيم البشرية الراقية كـ«الحداثة» أو «الانسجام مع

متطلبات العلوم الحديثة» أو «قوة البلاغة» وما شاكل هذا، و بالاعتماد على منظور ضيق للغاية يؤمن بأن ثمة لغات خير من غيرها أو أكثر تطورًا ونموًا وقابلية للتعمق في معاني السياسة أو الفلسفة أو الحب وغيرها من تصنيفات تهدف إلى تقديم واحدة على أخرى من منطلق معايير زائفة. ومن أكثر هذه المعايير زورًا المصنفات الإيديولوجية. وللأسف الشديد فإن العربية هي مِنْ أكثر اللغات تعرضًا لرذيلة التسييس والاستعمال المذهبي، خصوصًا بعد الحملات الاستعمارية الأوروبية المتصاعدة في القرن التاسع عشر، وهو غزو منتظم جاء في أعقابه تلاعب خبيث مع المسألة اللغوية لأهداف انتهازية تخدم مصالحها التوسعية ومشاريع الهيمنة على المنطقة العربية، كما فعلت فرنسا في المغرب العربي ولبنان وسورية على سبيل المثال.

وما زال جمهور غفير من المستشرقين و«الخبراء» في العالم العربي الإسلامي مهوسين بقضية اللغة العربية وازدواجيتها في سبيل حل «معضلة» الانفصام اللساني بين الفصحى واللهجات، والإتيان بنظريات «ثورية» تحمل الحداثة والتطور في طياتها كتعليم المواد العلمية والأدبية باللهجات قبل الفصحى، أو الإبقاء على التعليم الجامعي باللغات الأجنبية خصوصًا الفرنسية والانجليزية -وفعلًا لن تجد غيرهما في اختصاصات التكنولوجية والعلوم العليا والحقوق في أكثر من دولة عربية. وعكف المستشرقون الأوروبيون في القرنين الماضيين على إثارة «معضلات» لغوية أخرى لم تكن موجودة أصلًا في الثقافة العربية قبل هجومهم عليها، كمسألة الأمازيغية في كل من الجزائر والمغرب أو، على مستوى معرفي آخر، الاستفاضة في الحديث عن «حداثة» اللغة العربية وقدرتها على مواكبة العصر



اللغة العربية بريئة من التسييس والأدلجة، وأرفض تعامل اليمين الفرنسي معها بهذه الخشونة

الحديث ومستجداته وآليات استحداث المصطلحات المطلوبة لتمثيل الواقع التكنولوجي المترتب على الثورة الصناعية، وهلم جرا من القضايا اللغوية «المصيرية» التي لا تخص سوى العربية على ما يبدو، وكأنها قضايا لا علاقة لها بتاتا بسائر اللغات العالمية التي لا تعاني، على ما يبدو، من مشاكل التكيف مع الحداثة وانهيار مستوى اللياقة والدقة في حسن استخدام القواعد وغزو اللغة الانجليزية التي هي أهم مصدر لتوليد المفردات الفنية ذات الاختصاص.. أي، ما أريد التلميح إليه أنّ هناك أوساطًا متعددة في الغرب يتبعها في غيها بعض العرب تُقدم باستمرار على «أشكلة» العالم العربي ولاسيما في مستوى اللغة العربية واعتبارها إحدى المعضلات الرئيسة في منطقة مفعمة أصلًا بالمشاكل العويصة تعيش في حالة مستدامة من الأزمة والتدهور على جميع المستويات. لقد استغربت، دائمًا، هذه الرؤية المتأزمة حيال اللغة العربية ومن ثمة المماحكات والجدالات والسجالات المترتبة عليها. وما زالت الدوائر الاستشراقية تحفل في يومنا هذا بالدراسات العلمية الرصينة التي ما برحت تقدم التنوع والغنى والتشعب الذي امتازت به العربية، من تعدد اللهجات مع بقاء لغة ثقافية واحدة، وكذلك هندامها النحوي والإعرابي الفذ وثروتها المعنوية والدلالية والمجازية وغيرها من المزايا التي تصورتها أنا دليلًا على عظمتها وشموخها وصيغتها الاستثنائية، في حين ما برحت تقدمها جهات أخرى على أنها أشبه ما تكون باللعنة والعقبة الشمخاء في طريق التطور والتعقل والحداثة.

يؤسفني أن أشاهد هذه السفسطة العارمة تشتد وتيرتها في العالم العربي، على غرار الجدل حول جدوى تعليم الفصحى في المدارس أو تحويل المناهج التعليمية إلى اللهجة أو كتابة الفصحى بالأحرف اللاتينية وغيرها من النقاشات المستوردة التي لا تلبي متطلبات النقاش الثقافي العربي الراهن. وهذا لا ينفي ضرورة مواجهة قضية العامية والفصحى والبحث عن سبل تطوير المدارس والجامعات على حد سواء، كما لا يمكن أن تؤدي بنا المسألة إلى جدالات سخيفة حول «ما هو أفضل»، العامية أم الفحصى؟ وكأنّ هناك قطيعة أو عداوة بين الاثنين. والأسوأ فيما يخص الصراع المزعوم بين الفصحى والعامية، كما هو الحال في الوقت الحالي في بعض الدول كالجزائر والمغرب على سبيل المثال، أنها مسألة لا تهم عامة الناس المنشغلة في مقاومة البطالة والغلاء وتردي أحوال المعيشة وضعف البنى التحتية، فذلك المواطن لا يتوقّف للنظر

في هذه الخزعبلات الصادرة عن النخب الثقافية المجهلة المرتبطة بجهات خارجية ما زالت تنظر إلى البلدان العربية على أنها مخلفات واقع استعماري لم يزل عن الوجود. وما زلت أتساءل لم لا يشدّد هؤلاء بقدر مماثل من الإلحاح على عدم استخدام اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزيّة في التعليم الجامعي، خصوصًا في كليات العلوم والتكنولوجيا.

هناك أوساط متعددة في الغرب يتبعها في غيها بعض العرب تُقدم باستمرار على «أشكلة» العالم العربي ولاسيما في مستوى اللغة العربية.

أما مشروع تدريس العربية في المدارس الفرنسية فهو برهان آخر على ما تفضلت به في سؤالك عن المنظور الإيديولوجي للمسألة وهرولة الساسة إلى تلوينها بألوان دماغوجية بحتة، بعيدًا عن المصلحة العامة والمواقف المتّزنة.

ومما يدعو إلى التأسف أن الحكومة الفرنسية برّرت خطتها بشأن إدراج العربية كمادة اختيارية في المستوى الابتدائي بذرائع دينية مسيسة تشير إلى ضرورة تقديم صورة حقيقية معتدلة عن الإسلام وليس تقريب أبناء المهاجرين الوافدين من العالم العربي إلى لغتهم الثقافية. والحديث ذو شجون لأن اللغة الأم لنسبة ذات شأن من هؤلاء المهاجرين هي الأمازيغية وليس العربية، ولذلك فإذا كانت حكومة باريس تريد السماح لهم بالنهل من ثقافتهم الأصلية فمن الأولى بها أن تسمح لهؤلاء المهاجرين بتعلم الأمازيغيّة والعربية في الوقت ذاته، ولكنها اعتمدت حصرًا على العربية، والرسالة واضحة بعد تشفيرها: التطرف الإسلامي ذو علاقة مباشرة أو غير مباشرة باللغة العربية. بمثل هذه الطريقة نلفي أنفسنا أمام معضلة حضارية يشق علينا تناولها بسبل عقلانية، فالمطلوب هو



نجيب محفوظ

معالجة التطرف الإسلامي وليس تكوين هوية ثقافية فرنسية متعددة الأطراف.

ومما يزيد الطين بلة اقتحام اليمين المتطرف للساحة مع نداءاته المتشدد الكارهة للهجرة ولاسيما المسلمة، ممثّلة بذلك لخطابات غير عصرية ما فتئت تتحدث عن أصالة الهويّة الفرنسيّة وصفائها، وكأن هنالك هوية خالصة غير هجينة في عالمنا المعاصر، وإنه مفهوم ضيق لمكونات المواطنية الفرنسية دون الأخذ في الحسبان لغات وثقافات أخرى قد تثري تلك الهوية المتنوعة.

ونسأل:

■ **الجامعات وأقسام اللّغات بصفة خاصّة أهميّة كبيرة في تطوير التواصل اللّغوي بين المجتمعات، فكيف ترى الأمر فيما يتعلّق بتدريس اللّغة العربيّة والاطّلاع على الثقافة العربيّة قديمها وحديثها بين الطلبة في إسبانيا وفي جامعة أوتونوما بمدريد التي تدرّس فيها؟**

- يُعدّ دور هذه الأقسام الجامعية في نشر الثقافة العربية ومد الجسور بين العالم العربي الإسلامي والمجتمعات الأوروبية على درجة قصوى من الأهمية، هذا أمر بديهي لا يحتاج إلى محاججة، بيد أن دور تلك الأقسام يمكن أن يكتسب مزيدًا من الفعالية لو فهم القيمون عليها أن المسالة لا تتطلب فقط تدريس اللغة وتلقين الدروس في تاريخ العرب والمسلمين وما إلى ذلك، وإنما الاتصال الوثيق بالمجتمع المحيط بهذه الأقسام والحاضنة لها. وأحيانًا نجد بعض الأقسام والجامعات والأساتذة والباحثين المنتمين إليها يكتفون بقدرهم من التدريس دون المشاركة في الحوارات والنقاشات والمستجدّات التي تهم الناس ولها صلة بالعالم العربي. وأقصد بالتحديد المشاركة في وسائل الإعلام والسعي إلى إيصال الرسالة إلى أكبر عدد ممكن من المواطنين الأوروبيين والتفاعل عن طريق جميع الوسائل المتاحة مع كافة الشرائح الاجتماعية، ولاسيما في مثل هذه الأيام التي يكثر فيها الحديث عن العرب والمسلمين، وهو حديث ينصبّ بالكامل تقريبًا على «أزمات» العالم العربي و«سلبياته الهيكلية».

ومما يثير الحسرة والأسى أن تكون ثلة من أصحاب السفسطة والتفلسف قد احتكروا مجريات الحديث عن قضايا العرب، وعمد هؤلاء المتحدّثون الوصوليون بلسان حال العالم العربي إلى تكريس مفردات ومواضيع نمطية مثل الإرهاب الجهادي والثورات العربية «الفاشلة» والطابع الاستبدادي للسياسة العربية وأخطار الهجرة من العالم الإسلامي وما إلى ذلك.

إنهم يتلهّفون كذلك إلى طرح المساءلات الملغومة على غرار «هل الإسلام قابل للدمقراطية؟» أو «هل العنف جزء لا يتجزأ من المنظومة الإسلامية؟» أو «هل يشهد العالم العربي نشوء مفهوم سليم للمجتمع المدني؟»... ونادرًا ما نرى مستعربين يعكفون على الإدلاء بدلوهم بين الدّلاء عندما يتمّ التطرّق إلى قضايا الهجرة والإرهاب والثورات العربية، ومرد ذلك إلى أنهم يجدون المسالة تافهة لا

تتعلق بمهامه العلمية الراقية المتمثلة في كتابة مقالات طويلة رصينة محكمة لا يقرؤها إلا زملاؤهم إن قرؤوها، أو لأنهم يشعرون بالخجل والاستحياء، أو لا يعرفون كيف يدبرون أمرهم مع وسائل الإعلام، أو لأنهم لا يرون مصلحة علمية في النشر في الجرائد و المجلات أو في دور النشر الأكثر شعبية، أو بكل بساطة، لأنهم لا يعرفون جيدًا الثقافة العربية والإسلامية أو يجيدون فقط ما يتصل حصرًا بموضوع اختصاصهم. علاوة على ذلك، لمست نوعًا من الارتياب لدى الشباب الإسباني، على سبيل المثال، إزاء القضايا العربية لاعتباره بأنها إشكالية بالأساس، فلا طائل -في نظرهم- من وراء دراسة اللغة والتاريخ والاقتصاد وسائر العلوم الإنسانية العربية.

ومن الشاقّ بمكان أن نعيد إلى هؤلاء الصورة المشرّقة البرّاقة للحضارة العربية بعيدًا عن هموم الساسة وخدائعها (السياسة مرة أخرى كما ترى) الصّانعة لتلك الصورة النمطية المشوّهة التي بنتها وسائل الإعلام عن العالم العربي بمساهمة سلبية من المختصين في القضايا الأوروبية في أوروبا الذين لم يعرفوا أو لم يريدوا أو لم يستطيعوا تعديل هذه الصورة أو تقديم بديلًا لها. ولا تظنني ممسكًا بصورة وردية طوباويّة عن الوضع العربي الراهن، بل أعتقد أنه قاتم للغاية وحافل بالسيئات يُوجب التقريع والانتقاد الشديد، ولكن هذا الانتقاد بما فيه التطرق لمسائل حساسة جدًا كاستغلال الدين وضيق الأفق الفكري وانحطاط النخب السياسية ينبغي أن يكون انتقادًا يراد منه الإصلاح وليس التجريم لمجرد التجريم، كما جرت العادة عليه هنا.

ممّا يثير الحسرة والأسى أن تكون ثلة من أصحاب السفسطة والتفلسف قد احتكروا مجريات الحديث عن قضايا العرب.



تؤسفني السفسطة المشتدة في العالم العربي حول جدوى تعليم الفصحى في المدارس!

■ هناك خلاف واسع وحادّ الآن حول طريقة تدريس اللّغة العربيّة، ويعمل بعضهم على إعطاء الأولويّة لمهارة المحادثة لدى الطلبة من غير العرب باعتماد اللّهجات عوضًا عن الفصحى على أساس أنّها أهمّ مخرجات التعلّم، وكأنّ هذه المهارة لا ترتبط بمهارات السماع والقراءة والكتابة التي ترتبط على أوسع نطاق بالفصحى.

إنّ هذا المنهج ينتج نسخة من مستعمل اللّغة الذي انقطع عن التعليم مبكّرًا في البلاد العربيّة فاعتمد على الإبلاغ الذي يفهمه المستمع بكفايته المنطقيّة رغم لحنه وخروجه على القواعد وهو عاجز عن التواصل مع ماضيه وتاريخه، كيف تدقّقون هذه المسألة خاصة في ظلّ محاصرة الفصحى اليوم باللّهجات العاميّة في المهاجر وداخل أوطانها، ولعلّ هذا واضح عمليًّا في الإعلانات التجاريّة وملصقات التوعية الصحية والبيئيّة وغيرها بذريعة ضمان حسن التواصل مع الجمهور؟

- عسى سؤالك يلمّح إلى طريقة «المنهج المتكامل» الهادف إلى ترسيخ مهارات المحادثة بواسطة اللهجات بالتزامن مع تطوير المهارات الكتابية من خلال الفصحى، وذلك انطلاقًا من «بداهة» عدم تداول الفصحى في المجتمعات العربية وانحصارها في نشرات الأخبار ولقاءات الجامعيين والخطابات الرسمية.

إنّ هذا المنهج طُور في الولايات المتحدة، ثم امتد إلى سائر الجامعات الغربية حيث أصبح هو المنهج المتغلب في عدد منها. له سلبيات وإيجابيات مثلما هو الشأن مع كل المناهج اللغوية، وأنا -من حيث المبدإ- لست معارضًا له. وتنضوي أبعاده في غمار السّجالات غير المتناهية التي أشرت إليها قبل قليل، إلا أنّ مؤلفيه يشدّدون على الناحية البراجماتية العملية، أي رغبتهم في تقريب اللغة المحكية إلى الطالب الأجنبي. ولا تكمن المعضلة في حيثيات مثل هذه المقاربة ما دامت غير مؤدلجة، وأظن أنّ قسمًا كبيرًا من الدّعاة إلى تدريس العامية شفويًا والفصحى كتابة هم في منأى عن الخزعبلات السياسية العقائدية، وإنما المشكلة الكبرى في مواقف العرب أنفسهم من الفصحى، خصوصًا الطبقات الاقتصادية والسياسية والثقافية النافذة منها.

ويحسن بنا أن نلتفت إلى ما يمكن أن نسميه «تعميم» الكلام الخاص وانحسار الفصحى عن مناطقها المعتادة، من خلال إدخال التعابير العامية إلى الخطاب الرسمي والإعلانات وحتى إفادات المثقفين أمام الملإ، فبات من المألوف مشاهدة عدد متزايد من المسؤولين والممثلين

وحتى المثقفين يتحدثون بالعامية في طلعاتهم التلفزيونية وكذلك في المؤتمرات والندوات، وعلى هذا الصعيد تعجبت دائما من ممارسة مجموعة من الكتاب المصريين لمثل هذا التقليد، مخاطبة الحضور بعاميتهم حتى خارج مصر، وهم المحسنون إحساسًا رائعًا للفصحى كما تبرهن رواياتهم وقصصهم ومقالاتهم..

ودون شك أسهمت شبكات التواصل في انتشار ظاهرة العامية كوسيلة للتفاهم كتابة، وكذلك دأبت بعض الفضائيات العربية على تشجيع المتدخلين في برامجها ومناظراتها على تعاطي العامية في معرض حديثهم عن مواضيع تحمل صفة الاختصاص. ومن ضمن الزملاء المستعربين والخبراء اللغويين العرب مَنْ تنبأ بتراجع الفصحى التدريجي وإمكانيّة انقراضها، مفسحًا المجال أمام اللهجات، ولكنني لا أظن ذلك. لا أدري إلى أي مدى تصح النظرية القائلة بأن هناك مؤامرة تهدف إلى القضاء على الفصحى وتكريس ظاهرة شبيهة بما حدث للاتينية في أوروبا بعد انهيار الامبراطورية الرّومانيّة.

وترتكز هذه النظرية على أنّ الازدواجية اللغوية العربية بين الفصحى والعامية سيئة بالضرورة لا تمت إلى «الحداثة» (وما أدراك ما الحداثة؟!)، ولذا فإنّه من المستحسن أن تزول الفصحى زوالًا. لكن أنا أنظر إلى المسالة نظرة مختلفة تمامًا، فإنّ هذه الازدواجية ليست لعنة بل نعمة ونحن نحتاج، فقط، إلى تعديل منظورنا وطريقة مقاربتنا لها كي لا نكرّر شعارات سخيفة تعود بنا إلى المماحكة والاقتتال الاجتماعي العقيم من قبيل قولهم على سبيل المثال «اللهجة لغة رديئة ممسوخة منحلّة عن الفصحى» أو «الفصحى لغة مصطنعة لا تقدّم ولا تؤخّر إلا في مجال العلوم الدينية، إذ أنها تعرقل مراحل تعلم الطالب و....».



إدوار الخراط

إنّي لست ضد الفصحى كما أنني لست ضد اللهجات، وإنما لا أرى غضاضة في الحديث في الشارع بالعامية والكتابة بفصحى بسيطة تنأى بنفسها عن الإطناب والبلاغة الجوفاء. من جهة أخرى تتداول ألسن بعض النّاس خرافات كثيرة عن النتائج السلبية لاستخدام الطالب الأجنبي للفصحى في الشارع، فالمتكلم العربي الذي يلاقيه لن يفهمه أو ربما يضحك من لغته الرّثّة. وهذا اعتقاد قد يصحّ في بعض المدن وفي حالات محددّة جدًّا ولكنّ أغلبية العرب يفهمون الفصحى ويسعهم التفاعل مع طالب أعجمي بلغة متوسطة أو على الأقل بلهجة مُيسّرة.

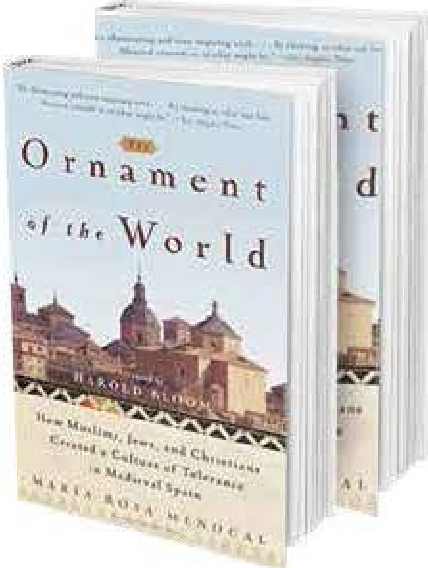
أنا شخصيًا لم أواجه صعوبة بهذا الخصوص، علمًا بأنّي حرصت دائمًا على التجوال في أكبر عدد ممكن من الدول العربية معتمدًا على الفصحى ولم أصادف مشاكل تذكر. وأعرف أن بعض العرب يجدون الحديث بالفصحى أمرًا شاذًا أو مضحكًا ولكنّي رأيت، كثيرًا، أشخاصًا عربًا من عدة دول يتكلمون فيما بينهم بعربية فصيحة بسيطة دون أي غضاضة. وفي النهاية، الغرابة والاستغراب في اللغة أمر جائز دائمًا، فأنا أتذكّر مرة سافرت فيها إلى المكسيك مع أسرتي فالتقيت بواحدة من الأرجنتين لم يسبق لها قط على ما يبدو إجراء حوار مع قشتالي (من منطقة قشتالة الوسطى) مثلي، فتعجّبت من نبرتي لدرجة أنها قالت إني أتحدث» كالممثلين في الأفلام القديمة»!.. وفعلا يرى الكثير من أبناء أمريكا اللاتينية أننا أبناء المناطق الوسطى في إسبانيا نتعاطى لغة قديمة تعود إلى قرون مضت... ويبدو الأمر مضحكًا لهم كما تبدو لنا بعض اللهجات الأمريكية غريبة جدًا في الوقت ذاته. وأقول ذلك لأنّي ذات مرة وجدت شابًا في بلد عربي قال لي إني أتحدث كـ«مذيعي الجزيرة» ولكنّه استمرّ في حديثه معي بلهجته إلى أن باغت نفسه ينطق بما يشبه الفصحى. وهذا يوضح أن لا نكون متعودين على ممارسة عادة ما لا يعني أننا غير قادرين عليها. فإذا تعاملنا مع كل هذه الأوضاع تعاملًا ليّنًا جعلناها تنحدر إلى مشكلات سخيفة نحن في غنى عنها كالصراع المزعوم بين اللهجات والفصحى.

■ هل يمكن القول إنّ معوّقات تعلّم اللّغة العربيّة وممارستها بشكل ممتاز يعود في جانب هام منه إلى ضعف الذاكرة اللّغويّة عند الطالب اليوم ممّا أفرز ظواهر لافتة مثل اللّفظيّة، أقصد، هنا، الذّاكرة اللغويّة التي ترتكز على قاعدة الحفظ باعتباره نوعًا من الاستخدام اللّغوي والسماع يمكّن من مراكمة النصوص بصيغها وحقولها المعجميّة على أن يخضع فيما بعد للاختيار والتوليد والتفريع في البنى والدلالات طبقًا لحاجات الاستخدام وظروفه؟

- لا يخفى على أحد أن مستوى التعليم والتعلّم قد شهد تراجعا ملموسا منذ فترة من الزمن في جميع أنحاء العالم. يكفي أن نسأل التلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية عن مسائل بسيطة لكي ندرك خطورة الأمر، ولاسيّما على صعيد ما يمكن أن نسميه «الثقافة العامة»، أي

تلك المعلومات والمعارف التي نعدّها الحد الأدنى من المعرفة كأسماء البلدان والعواصم الرئيسية، إتقان حسابات رياضية أساسية، الإلمام بقواعد النحو، حفظ أهم الأحداث التاريخية الوطنية وهلم جرا. لسنا مدعوين هاهنا للبحث في أسباب هذا، ولكن التكنولوجيات الجديدة بصفة عامة وتأثير فضاء الأنترنت بصورة خاصة لها نصيب كبير من المتابعة. لم نعد مضطرين لشحذ ذاكرتنا وصيانتها، فهناك «باحث» بالأنترنت ينقّب لنا عن المعلومة المطلوبة بواسطة معدات إلكترونية هي متوفرة لدينا في كل آن ومكان. ناهيك عن موجة التبسيط المفرط والابتذال والإحجام عن القراءة أو الاقتصار على قراءة النصوص السهلة والاستماع إلى خطابات مجردة لا تكلّف عناية شديدة ، وللإفادة أكثر فإنّه من المستحيل أن نشاهد اليوم محاضرة مفتوحة تستغرق أكثر من ساعة لأننا نعتبر الجمهور «العادي» غير المتخصّص عاجزًا عن التركيز على موضوع متوسط التعقيد، وبالتالي فوجب التخاطب معه بمفردات مبسّطة. أقصد أننا انتقلنا من الخطاب النخبوي المعقّد الذي كان سائدًا في الماضي إلى الكلام المباشر المُسهّل جدًا المبني على الصور والأصوات والعروض على الحاسوب وما شابه.

أما طرائق دراسة اللغة الأجنبية فلا تشكل استثناء. ما زلت أستغرب لجوء الطلبة في قاعات التدريس إلى الهاتف المنقول ليقفوا على ترجمة تقريبية لمصطلحات أجنبية، وذلك دون أن يأخذوا بعين الاعتبار ركاكة الجمل التي تصدر عن مثل هذه العملية. كما أستغرب نكوصهم عن الكتب (يترددون إلى المكتبات للدراسة فيها ولكنهم لم يعودوا يستعيرون الكتب كما في سابق عهدهم)، ولا بد أن أقرر بأن الأمر محير



للأسف.. المكتبة الإسبانيّة تفتقر إلى المصادر والمراجع العربيّة

جدًا فكنا نظن، نحن معشر الطلاب الذين تعلمنا اللغات الأجنبية بدون الوسائل المعلوماتية والتفاعلية الحديثة، أن مثل هذه الوسائل كانت ستعجل عملية استيعاب اللغة ولكن الأمر لم يكن كذلك. ودعني أضيف أن المجتمع الإسباني يقاسي من معضلة قد نعتبرها حقيقية على صعيد تعلم اللغات، إذ تنقصنا المنهجية وكذلك التطبيق والرؤية الأفقية، والنتيجة أن المواطن الإسباني من أقل شعوب العالم قابلية لتعلّم لغات أجنبية.

وفيما يتعلق باللغة العربية وسبل تعليمها فإن المسألة تزداد خطورة، لأن الطالب لا يتلقى في كثير من الأحيان تكوينًا أساسيًا في المدرسة يخوّل له تطوير مهاراته وكفاءاته بمفرده، علاوة على ثنائية الفصحى-العامية التي هي ليست قضية إشكالية في الأساس كما قلت، وإنما قد تتحول إلى أكثر من ذلك إن لم يكن هناك موقف صريح وجلي من المسالة، فإذا رغب في قراءة النصوص سواء أكانت قديمة أم جديدة، أو الكتابة أو العمل في المجالات الجامعية وجب عليه إحسان الفصحى وقواعدها، وهو أمر يعزّ عليه لأن طلابنا اليوم غير متعودين على القراءة واستخدام الكتب.

إننا غدونا نعيش في بيئات اجتماعية تحبّذ اليُسْر والسرعة وبذل أقل قدر ممكن من الجهد من أجل الحصول على المرام، وليس سرًا على أحد أن اي لغة تتطلب مجهودًا مستديمًا فما بالكم بالعربية وقواعدها الإعرابية المعقدة للغاية.

فيما يتعلق باللغة العربية وسبل تعليمها فإن المسألة تزداد خطورة، لأن الطالب لا يتلقى في كثير من الأحيان تكوينا أساسيا في المدرسة يخوّل له تطوير مهاراته وكفاءاته بمفرده.

■ لك تجربة فريدة من نوعها مع الحضارة العربيّة الإسلاميّة من خلال اطّلاعك على أجناس أدبيّة متنوّعة كالرحلة ونوادر الجاحظ والسيرة النبويّة والأخبار، هذا عدا عن الأدب العربي الحديث والرواية منه خصوصًا، فكيف ترى صدى الأدب العربي في أوروبا وفي الغرب؟ وما هي الملاحظات التي يمكن تكوينها إزاء روائيين عرب تُرجمت أعمالهم إلى اللّغات الأكثر انتشارًا وعلى رأسهم نجيب محفوظ المتوّج بجائزة نوبل للأدب لسنة 1988؟

- للأدب العربي وخصوصًا الرواية مكانة مرموقة في أوروبا، إلا أنّ كمّ الروايات المنقولة دون القوة الحقيقية للآداب العربية.

كما أنّ نقدم، حركة الترجمة الحالية من العربية إلى اللغات الاوروبية الرئيسية ليست كافية، فنحن في حاجة إلى مراكز

ثقافية ومؤسسات وحكومات تدعم عملية منظمة لترجمة أهمّ الروايات العربية، ولاسيّما الأعمال الأدبية الجديدة رواية وشعرًا ومقالة. وفعلًا مثلت جائزة نوبل الممنوحة لنجيب محفوظ نقطة انطلاق للرواية العربية الحديثة في الغرب، غير أن هذا الاندفاع لم يدم طويلًا، إذ أن الروائيين العرب المعروفين في الغرب قليلون جدًا ولا نخالف الحقيقة إن خلصنا إلى أن محفوظ هو الوحيد الذي حظي بشعبية ذات شأن في عدد كبير من الدول الأوروبية، على الأقل في إسبانيا، حيث شاعت أعماله شيوعًا ملحوظًا. وشهدنا في السنوات القليلة الماضية مبيعات ذات اعتبار لبعض الكتاب العرب ولكنها كانت ثمار رواية واحدة أو اثنتين على أقصى تقدير. وكما قلت سابقًا: لا سبيل إلى تثبيت الأدب العربي اليوم بدون إسهام فعال للحكومات والمؤسسات الرسمية العربية والغربية، لأن الأزمة المالية وتراجع عدد القراء وعنفوان التكنولوجيات الحديثة على حساب مفهوم الكتاب التقليدي كلّ ذلك يتطلّب وعيًا ومسؤولية لمواجهة هذه الحالة الصعبة، إلا أنّ الجهات الرسمية لم تنتبه إليها على ما يبدو، مما يعزز إحساس المثقفين والمفكرين والأدباء باليتم والحرمان.

وفي تجربتي كمترجم يمكنني القول إنّ دور النشر الناطقة بالإسبانية تبحث عن عناوين تؤمن لها ربحًا ماديًا وليس مستوى أدبيًا راقيًا ولذلك قلّت الكتب المترجمة من العربية في دور النشر الأكثر توزيعًا. وهذه خسارة للرواية العربية المعاصرة، الحيوية والمبدعة حقًّا، لأن نسبة كبيرة من مؤلفيها الأكثر قيمة يظلون مجهولين للجمهور العربي وكذلك الأوروبي وهذا إهدار غير مبرر لملكة فنية ربما لا تتكرر في المستقبل.



محمود المسعدي

أما حالة الشعر العربي (والعالمي) فحدّث ولا حرج.

■ المتتبّع للرواية العربيّة المعاصرة يقع على هذه الحيرة حيال تحجّر الواقع ممّا رسّخ فكرة العبثيّة في شكل صراع جارح ومميت بين الشخصيات ومحيطها والدوران الموجع في الفراغات، نلاحظ هذا على سبيل المثال لا الحصر عند نجيب محفوظ والطيّب صالح وسهير المصادفة وحسن نصر ومحمود المسعدي ونبيل سليمان وإدوار الخرّاط وغيرهم كثير، ما هي نظرتك لهذا في ظلّ ارتطام المثقّف بمجتمعه؟

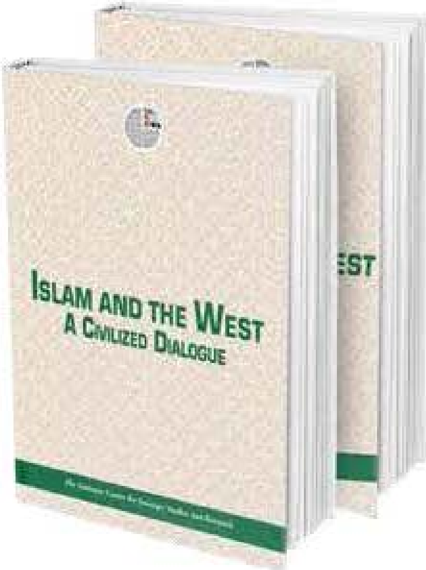
- بعض الكتاب المذكورين في هذا السؤال له ميول وجودية بيّنة كالمسعدي، ولا غرابة في الأمر، أتصور هؤلاء ومعهم العديد من الروائيين العرب مستائين من واقعهم العربي المرّ وعاكفين في كتاباتهم على تصويرها بطرق مختلفة، آملين في الوقت ذاته في إيجاد حلول ناجعة له إن وجدت.. والمفارقة أن أجواء التشاؤم والإحباط التي لمسناها في روايات التسعينات، مثلًا، ما زالت ظاهرة اليوم بل بقدر أكبر من القتامة والسوداوية ربما. وحتى إن لجأ الروائيون الآن إلى أساليب تمزج بين المجاز والاستعارة والتهكم الرفيع وأحيانًا السوريالية فإن الاستنتاج يظل صريحًا في قتامته. فالفراغ سمة الزمن المعاصر ولكن البحث عن مقترحات جديدة مستمر أيضًا، سواء أكان عن طريق الانخراط في الانتفاضات الشعبية في العام 2011 والتي لم تنته بعد على الرغم من تسرع الكثير في العالم العربي والغربي في الإعلان عن نهايتها وفشلها الذريع.

■ كيف ينظر الإسبان اليوم إلى التراث الأندلسي في إسبانيا؟ وكيف يقيّمون تجربة الموريسكيين وخروجهم إلى بلدان كثيرة منها البلدان المغاربيّة والمشرقيّة بعد هذه المسافة الزمنيّة الفاصلة؟

- نظرة المواطن الإسباني إلى الأندلس ممزوجة بقدر من التباهي والافتخار، من جهة، والريبة والهواجس، من جهة أخرى؛ فالمسألة تم تسييسها منذ اليوم التالي لدخول الملكين الكاثوليكيين إلى مدينة غرناطة، آخر معاقل العرب المسلمين في الأندلس، سنة 1492. وبيت القصيد كامن في سبل تأويلنا لما تشكله الأندلس في سيرورة تاريخ إسبانيا من أهميّة، فإن كنا نعتبرها مرحلة من مراحل تاريخنا وجزءًا لا يتجزأ من هويتنا كإسبانيين فنحن متمسكون بمفهوم شامل متكامل للشخصية الإسبانية ولا يعزّ علينا القول بأن الأندلس لم تكن «احتلالًا» إسلاميًا، وإنما حقبة إسبانية لها إيجابياتها وسلبياتها، كما لكل الحقب التاريخية في مسيرة بلد معين. وإن كنا نعدّ تلك الفترة حدثًا عدائيًا حال دون اكتمال الهوية الإسبانية عبر تاريخها، فلا بد أن نجري انقطاعًا لمنظورنا لتسلسل الأحداث فنضطر للقفز على قرون طويلة وربط الفترة السابقة للأندلس، حكم القوط والشعوب الجرمانية وهم بدورهم ورثاء الامبراطوريّة الرومانية، بالفترة التالية لها، وهي ولاية ملوك قشتالة

الكاثوليك. ولا تخلو المسألة من إشكالية ومناظرات تعبر عن ميول إيديولوجية متناقضة، ويتم حسم القضية في بعض الأحيان بوقف النقاش أو الابتعاد عنه. في الكتب المدرسية، على سبيل المثال، تحتل القضية فقرتين أو ثلاثًا وكأننا نود لو مررنا بها مرور الكرام على الرغم من أن الأندلس تمثل تجربة عمرانية استغرقت ثمانية قرون لا يسهل تجاهلها. وتعكس تعاطي الدولة مع الموريسكيين وذاكرتهم هاته المواقف المترددة إزاء ملف العرب والمسلمين في الأندلس، إذ أن الدولة لا تزال تأبى أن تعتبر بمآساتهم وتعتذر رسميًا عن عملية طردهم، أو قل عمليات الطرد، لأنه تم ترحيلهم على مراحل، بينما أقرت الدولة نفسها بالضرر الملحق بهم من جراء إخراجهم عنوة من كامل الأراضي الإسبانية في نهاية القرن الخامس عشر، ثم جاء منح الجنسية الإسبانية آليًا دون ضرورة المكوث في البلد مدة سنتين كما في القانون المدني المعدّل للعام 1982 سنة 2012 لما يناهز 250 ألف شخص من أصول يهودية يحملون جنسيات أخرى، أغلبهم من رعايا دولة إسرائيل، وقد رأينا حديث العسل ومراسم الخبز والملح بين حكومات مدريد وممثلي الجالية اليهودية الأندلسية «السيفارديم» وفي المقابل غابت مظاهر الود والحدّ الأدنى من التفاهم والتضامن مع العائلات الموريسكية التي أخرجت من إسبانيا بطريقة مشينة وغير إنسانية.

وقد نظّم إخوة عرب وإسبان حملة للمطالبة بحق الموريسكيين في الجنسية الإسبانية وحقهم في تلقي اعتذار رسمي يعيد إليهم الاعتبار ويطوي صفحة الاتهام بالانتماء إلى «طابور خامس» زُعم أنّه كان يكنّ العداء للدولة الإسبانيّة ويعمل على تدميرها من الداخل، مما برر القضاء عليهم، إلا أن مثل هذه الحملات لم تجد



نفعًا حتى الآن.

نظرة المواطن الإسباني إلى الأندلس ممزوجة بقدر من التباهي والافتخار، من جهة، والريبة والهواجس، من جهة أخرى.

■ هل يمكن الحديث عن رابطة وجدانيّة من نوع ما نتيجة وجود بلدات كثيرة في عدّة بلدان لها رابطة قويّة بإسبانيا يعكسها المعمار والغناء كما تعكسها العادات المتوارثة واللّكنة ونتيجة الذخيرة اللغويّة العربيّة في اللّغة الإسبانيّة؟

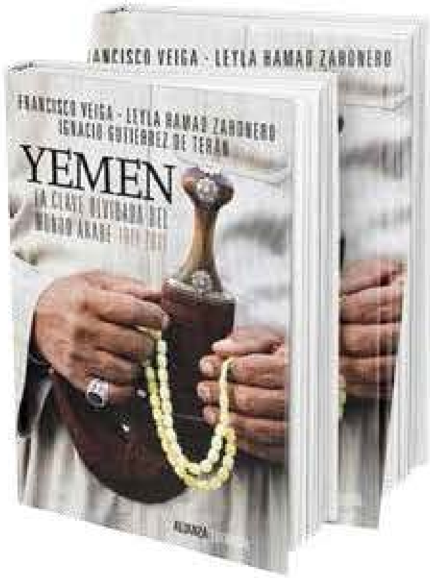
- كانت اسبانيا قوة عالمية عظمى استعمرت بلدانًا كثيرة وأبقت على علاقات متميزة مع مستعمراتها بعد استقلالها، وهذا أمر أسهم إسهامًا ذا شأن في احتفاظ اللغة والثقافة الإسبانية بأهمية عالمية كبيرة. ومهما كان تسلّط اللغة الإنجليزية قويًا عالميًا ومراكز القرار الاقتصادية والسياسية كامنة في الدول الناطقة بها، وفي طليعتها الولايات المتحدة، فإن الثقافة الإسبانية تنعم بعنفوان مدهش بفضل حيوية أمريكا اللاتينية واندفاعها نحو الخارج، وليس من المستبعد أن تتمكن اللغة الإسبانية من مواجهة الانجليزية وجهًا لوجه في غضون برهة زمنية ليست بالمديدة.

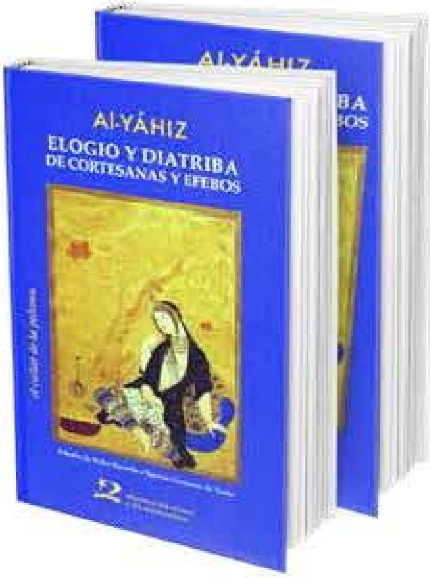
وعلى صعيد الترابط العربي الإسباني فيكفي الزائر أن يجول بعدد من القرى والمدن الإسبانية من جنوب مدريد إلى طريفة، المطلة على برزخها بين المتوسط والأطلسي، لكي يدرك بسهولة عمق الأواصر التاريخية الرابطة بين إسبانيا والوطن العربي.

ومهما حاولنا التنكر لها انطلاقًا من مواقف قومية لا تمت بصلة إلى التاريخ أو للتقليل من أهميتها أو البكاء على ضياع الفردوس الأندلسي وانسلاخه نهائيًا عن العرب، على غرار تحسرات نزار قباني (لم يبقَ في إسبانية منّا، ومن عصورنا الثمانيه، غيرُ الذي يبقى من الخمرِ بجوف الآنيه)، فإنّ ثمة ديمومة حية من شأننا أن نلمسها أينمّا ذهبنا. فانظر إلى السائح الإسباني وسبل تواصله مع المغاربة وكيف لا يلبث أن يشعر بقاسم مشترك يجمعه بهؤلاء، بصرف النظر عن المواقف السياسية والنعرات العرقية ومظاهر العنصرية التي شهدت نموًا في إسبانيا في الآونة الأخيرة، غير أن مظاهر الكراهية هذه لم تبلغ مبلغًا مماثلًا لما درجت عليها العادة في بلدان أوروبية أخرى بما فيها إيطاليا، البلد المتوسطي القريب من السواحل العربية التي نشأت فيها في وقت مضى إمارات عربية إسلامية مشهورة كما في: صقلية التي تقاسي اليوم من أجواء عدائية للأجانب وخصوصًا المسلمين منهم.

■ ما هو أفق العلاقات بين الثقافتين العربيّة والإسبانيّة في ظلّ الظروف الرّاهنة المتقلّبة وتنامي الأزمات الاقتصاديّة عالميًا؟ وكيف يمكن إجراء خطوات فعليّة في اتجاه تفعيل التواصل الإنساني العميق؟

- الاتصال مفروض علينا بحكم التاريخ والجغرافيا، ونتطلع إلى اليوم الذي يتبلور فيه مشروع إنساني حضاري متين على





المستوى العربي والأوروبي تؤدّي في ظله إسبانيا دور الوساطة بين عالم عربي حرّ كامل السيادة وأوروبا حرة كاملة السيادة أيضًا، علاقة سوية تكتمل على قدم المساواة، بعيدًا عن مخلفات الاستعمار، وأهواء نخب عربية ضيقة الأفق لا تعبأ إلا بمصالحها الآنية المعادية للمصلحة العامة.

ويتطلب الأمر تعهدا أوروبيا بالتخلي عن سياساته الاقتصادية. وربما تحولت المقولة الآتية إلى شعار رنان باهت اللون ولكن نعم، للثقافة دور ما في إصلاح العلاقة الملوثة المفروضة من السياسة والآنية الاقتصادية على العلاقات ما بين الدول، وقد يبدو هذا الدور صغيرًا محدودًا للغاية، ولكنه سيبقى الأكثر فعالية على الإطلاق في آخر المطاف، فمن خلال هذا الحوار المستمر بين مثقفي الجانبين يسعنا النفاذ إلى أكبر قدر ممكن من المواطنين والتيقن بأن ما يجمعنا أكبر بكثير مما يبعد بعضنا عن بعض. وأحيانًا أتخيل الضفة المقابلة للمتوسط، عند أطراف إفريقيا، وأقول لنفسي: إن هذه المسافة البسيطة الكائنة بين الضفتين وهي بضعة كيلومترات، قد حولناها إلى سدود مادية ونفسية وعقلية لزام علينا أن نحطمها.

الصعوبة متمثلة في إيجاد السبل الكفيلة بإتمام عملية التحطيم هذه، مما يضطرنا لإجراء تحاور وتواصل في صراحة وشفافية.

الاتصال مفروض علينا بحكم التاريخ والجغرافيا، ونتطلع إلى اليوم الذي يتبلور فيه مشروع إنساني حضاري متين على المستوى العربي والأوروبي تؤدّي في ظله إسبانيا دور الوساطة.

■ ماهو الكتاب الذي تطمح اليوم إلى ترجمته إلى الإسبانيّة؟

- المكتبة الإسبانية فقيرة بخصوص المصادر والمراجع العربية الرئيسية المترجمة، إذ أن ثمة ثغرات لافتة يجب ملؤها. فعلى سبيل المثال، لا نملك نقلًا مكثفًا وشاملًا لأعمال الجاحظ ما عدا نزرًا قليلًا من رسائله مثل «الجواري والغلمان» وقد نقلتها أنا بمعية زميلي بطرس بويندبا، أو «التربيع والتدوير» أو «البخلاء»، والأمر ينسحب -وإن بقدر أقل- على مواطننا ابن عربي الأندلسي الذي لم ينقل منه غير القليل على الرغم من انتمائه إلى الوطن.

وأذكر الآن «العقد الفريد» الذي لم يترجم، و«كتاب الأغاني»، وأعمال موسوعية أخرى. صحيح أنها تتطلب بذل جهد رهيب، كما تتطلب دعمًا كبيرًا من دور النشر المعرضة للأزمات المالية ونقصان القراء وتقلص المساعدات المالية الرسمية، ولكنّ هذه الأعمال كانت تفيدنا إفادة كبيرة لو أنها تُرجمت.

ومشروعي الخاص متمثل اليوم في نقل مجموعة معتبرة من كتب الباه أو النكاح العربية وتعد بالعشرات، ولم أصدر حتى الآن سوى ثلاثة من قائمة تضم ما ينوف على الاثني عشر كتابًا.

ثمة عمل عزيز عليّ أتمنى لو كتب لي إنجازه في يوم من الأيام، وهو نقل ما تيسر من ديوان المتنبي، من خلال ترجمة عصرية تحاول تحقيق التوازن بين جماليات النص العربي الكلاسيكي وسمات اللغة الإسبانية الشعرية المعاصرة، إنه تحدٍ مرهب ومغرٍ في آن واحد لأننا بصدد الحديث عن أحد الشعراء الأكثر عظمة في تاريخ الأدب العالمي.

الوطن العربي في حاجة ماسة إلى ثورة عقول وقلوب.

ما هي الرّسالة التي توجّهها إلى المثقفين العرب اليوم؟

رسالة قصيرة للغاية لا أعدّ نفسي في مرتبة من يرسلها إلى أحد، فقط أتمنى لو تكونت فرقة محترمة من المثقفين العرب لهم مشروع نهضوي مشترك يهدفون من خلاله إلى تطوير مجتمعاتهم؛ فالوطن العربي في حاجة ماسة إلى ثورة عقول وقلوب مصيرية، وجميل لو ترأسها المثقفون الذين ألفيهم ضائعين يبحثون، إن بحثوا عن شيء في الأصل، عن هدف يتعدى حدود كتاباتهم وأبحاثهم واهتماماتهم الذاتية.

صبري حافظ
لندن



المسرح..
وجدلية «العرض/ النقد» الإبداعية

يعد المسرح، وهو الفن الذي شُغفت به دراسة ومشاهدة ونقدا لخمسة عقود، مجمع الفنون. وهو لذلك منجم التجربة الإنسانية بمآسيها وملاهيها منذ فجر التاريخ، أي منذ المسرح الفرعوني في مصر القديمة، مرورا بالمسرح الإغريقي وحتى اليوم. وأود بداءة أن أوضح ما أعنيه بهذا المصطلح «المسرح»، إنه التجربة الفرجوية الكاملة التي تنطوي على كل مكونات العرض المسرحي الذي يعرض على الخشبة أمام جمهور يتفاعل معه، وليس مجرد النص الدرامي، المكتوب على الورق قبل أن يتحول إلى عمل مسرحي معروض على الجمهور. صحيح أن للنص المسرحي أهميته البالغة، ولكنه عنصر أساسي مفتوح عادة على أكثر من تأويل إخراجي، لا يعد أي عرض له غير واحد من تلك التأويلات المتعددة للنصوص المسرحية الجيدة. لأننا لانزال حتى اليوم نكتشف تأويلات جديدة للنصوص المسرحية الجيدة التي وصلتنا منذ المسرح الإغريقي وحتى المسرح الحديث.

في فلسفة المسرح:

ذلك لأن المسرح يرتبط من حيث التصور الفكري والفلسفي له بالوضع الإنساني الذي سعى الكثير من المنظرين والفلاسفة إلى تناوله. حيث يعتبر الانثروبولوجي الألماني هيلموت بليسنر Helmut Plessner أن ما يدعوه بالوضع الإنساني conditio humana مشروط بالمسافة بين الذات ونفسها، وبقدرة الفرد على أن يرى نفسه كآخر، أي كما يتجلى في عيون الآخرين. وهو الأمر الذي يردنا بالطبع إلى ما يدعوه عالم النفس الفرنسي الكبير جاك لاكان بمرحلة المرآة التي يرى فيها الطفل نفسه لأول مرة كآخر، والتي يعتبرها بداية الوعي الفردي. لكن بليسنر يعطي المسافة بين الذات ونفسها كآخر أهمية كبيرة في صياغة هذا الوضع الإنساني الذي يتيح للفرد أن يراقب نفسه وأفعاله وسلوكه من تلك المسافة.

ويصف بليسنر هذا الوضع الانثروبولوجي باعتباره وضعا مسرحيا ففي المحل الأول هناك الذات التي تمارس وضعها وكأنها ممثل، بينما هناك أيضا الذات التي تشاهد ما تقوم به الذات الممثلة، وكأنها الجمهور. بالصورة التي يصبح فيها الممثل هو المرآة السحرية للمشاهد والتي تعكس صورته وكأنه آخر، أي صورة الآخر الذي هو نفسه. وهذا يعني أن تلك المسافة التي تبعد الإنسان عن نفسه بتلك الطريقة المسرحية هي نفسها التي تساهم في استيعابه لهويته، بالصورة التي يتحول فيها الممثل إلى التجسيد الرمزي للوضع الإنساني. لأن الموقف المسرحي ينطوي على الصعيد الرمزي على كل العناصر المكونة للوضع الإنساني: من الرغبة في خلق الذات كآخر، وحتى الدافع للعب دور هذا الآخر وتجسيده بالفعل، والقدرة على تمثيله.

لذلك فإن الموقف المسرحي في جوهره هو التمثيل الرمزي للوضع الإنساني، بصرف النظر عن صيغه الثقافية أو التاريخية المحددة؛ لأنه يتشكل حينما يقف شخص كممثل أمام مشاهد للقيام بفعل ما. أو بالأحرى لأنه يجعل من خلق المسافة بين الإنسان ونفسه شرط دراميته، أي كينونته. ولأنه أحد أدوات صياغة الذات أمام الآخرين لهويتها، وهو الأمر الذي يتبلور عبره الوضع الإنساني.

وهنا لابد من التفريق بين النص الدرامي والمسرح. «لأنه ليس النص الدرامي هو الذي يجعل المسرح فنا، ولكنه



شكسبير

العرض. لأن قابلية النص الأدبي للعرض المسرحي Performativity of Theatre هي التي تميزه بشكل جذري عن غيره من أجناس الأدب أو الفنون الجميلة». وهي التي تنقله من مجال النص الإبداعي الـذي يكتبه فـرد في عزلته عن الآخرين، إلى العمل الفني الجمعي الذي تشارك في صياغته الكثير من العناصر الخلاقة التي تحيله إلى مؤسسة اجتماعية تتخلق أثناء تجهيز العرض ثم إتاحته للجمهور، وأحيانا أخـرى، كـما هـو الحال في المـسرح التجاري الغنائي منه والاستعراضي، إلى صناعة ثقافية بالمعنى الذي قصده أدورنو لهذا المصطلح.

فثمة بلاشك علاقة جدلية بين المسرح بهذا المعنى والواقع الاجتماعي والجمهور الذي يتردد عليه، وهي جدلية بمعنى أنها تؤثر على كل الاطراف المشاركة فيها ويتأثر كل طرف منها بالآخر. وجدلية تلك العلاقة هي الدافع الكامن وراء عدم اكتفاء المسرح بوصف الواقع الاجتماعي، لأنه في الواقع جزء فعال في صياغة حركية هذا الواقع وحيوته؛ ولكنه في الوقت نفسه يحتل مساحة برزخية/ عتبة استشرافية Liminal Space فيه، تمكنه من تغييره أو نقده أو طرح بدائل لما يعاني منه. وهذه المساحة البرزخية أو العتبة الاستشرافية، بالمعنى الذي صاغه عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي آرنولد فان جينيب في تناوله لطقوس العبور، هي تلك التي يمر بها الفرد أثناء تحوله من حالة إلى أخرى، أو من مرحلة في حياته إلى أخرى، وهو تحول له طبيعة طقسية كما هو الحال في الختان أو الزواج أو الانضمام لجماعة سرية مثلا.

المسرح كعتبة استشرافية ومؤسسة اجتماعية:

وتحتل المساحة البرزخية في أي من طقوس العبور المختلفة المكانة المحورية في تلك العملية والتي تتم فيها طقوس التعميد التي تنقله من حالة لأخرى. حيث يخرج الفرد بتلك المعمدانية، من الحالة التي كان عليها قبيل دخوله إليها، ويعيش إثناءها لحظة برزخية فاصلة واستشرافية معا، يكون فيها معزولا عن حالته السابقة، ومتجردا من ذاته أو هويته التي تمتع بها قبلها، ليدخل بعدها في حالة جديدة (حالة المختون/ المتزوج/ أو عضو الجماعة السرية)، ويكتسب بالتالي هوية جديدة، يتغير بها وضعه وتتبدل مكانته. هذه المساحة البرزخية بهذا المفهوم هي التي يحتلها المسرح، وهي التي تكسبه أهميته كمؤسسة اجتماعية معنية بعملية التحول تلك، وليس بمجرد توصيف الواقع الذي تصدر عنه.

إذ يتميز المسرح عن كثير من الفنون الابداعية الأخرى بأنه، ليس مجرد فن فردي وإن بدأ النص كذلك، ولكنه فن جمعي يتحول من خلال تجسيده على الخشبة وعرضه على الجمهور، إلى «مؤسسة اجتماعية عامة Public Institution تكرس نفسها لعملية العرض العام لأسرار الأفراد وأكاذيبهم وما يدور في الحيوات الجمعية، وبالتالي يتم عبرها تجسيد كل ما لا يريد المجتمع أن يعرفه عن نفسه». على العكس من بقية المؤسسات الاجتماعية

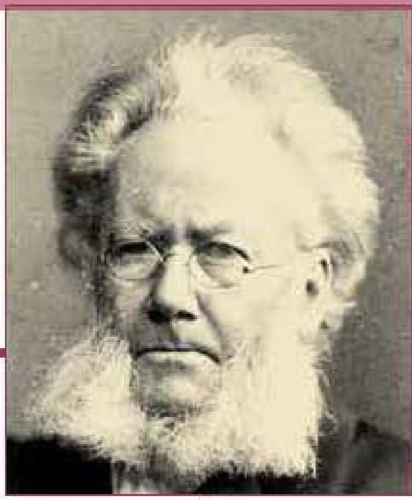
الأخرى مثل المؤسسة الدينية أو الإعلامية أو السياسية التي تكرس خطاباتها لتدجين المجتمع أفرادا وجماعات لصالح الايديولوجية المهيمنة والاحتفاء بها.

صحيح أن المسرح التجاري غالبا ما يقوم بنفس الدور الذي تقوم به تلك المؤسسات التدجينية، ويساهم بدوره في تكريس الأيديولوجية السائدة، لكن هذا النوع من المسرح ببهارجه الترفيهية أو تقنياته المسلية، قد خرج بلاشك عن المهمة الحقيقية للمسرح كفن كاشف عن عورات الواقع؛ يتقصى مسالب الفرد أو الجماعة ومواطن الخلل أو الضعف فيهما على السواء، ويضعها أمام المشاهد من أجل إعادة الرؤية والتفكير. فالدراما «هي الفن الذي يجعل الصيرورة الاجتماعية موضوعه، ويستمد منها بنيته، ويمارس عبرها فعاليته»

فضاء لممارسة الحرية:

وهو لذلك أحد الفضاءات المهمة التي يمارس فيها أي مجتمع الحرية بمعناها الحقيقي. حيث تؤكد هانا أرندت على «أن أحد الأسس الضرورية الصانعة للحرية السياسية هو وجود فضاء يتيح للناس أن يلتقوا معا». والمسرح يتيح ذلك الفضاء الضروري لممارسة الحرية في أكثر أشكالها بساطة وإمتاعا وحيوية، وقد وفرت تقاليد العمل المسرحي ومواضعاته إطارا مبدئيا للتفاعل الحر بين العارضين والمشاهدين، بعيدا عن فضاءات ممارستها المؤسسية الأخرى التي تتدخل فيها السياسة بشكل مباشر.

وهذا يفسر الكم الكبير من القوانين الحكومية المتعلقة بتنظيم المسرح ورقابته في بريطانيا مثلا، برغم المجتمع المفتوح نسبيا فيها، بصورة لا نجدها بالنسبة لأي مجال فني أو أدبي آخر. فقد ظل المسرح فيها خاضعا للرقابة حتى ستينيات القرن الماضي. لأنه بطبيعته الحضرية – أي



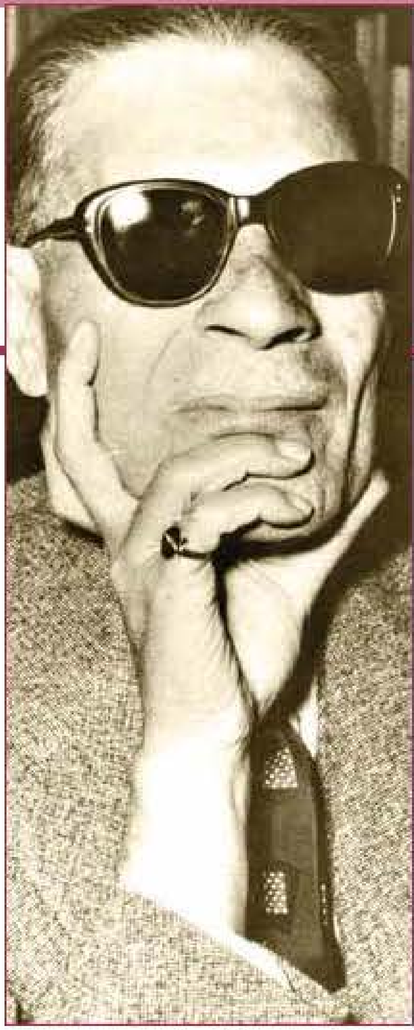
ابسن

وجوده أساسا في المدن الكبرى – وباشتباك ممارسته بعوامل اقتصادية واجتماعية مختلفة، يتحول إلى وسيط فعّال لعرض المشاكل، واستقصاء القضايا، واقتراح الحلول للمسائل الفردية أو الاجتماعية، والتجريب بعلاقات القوى المتغيرة ضمن سياق بنية حوارية تشاركية بين الخشبة والجمهور. وهذا ما يجعل كل مسرح بطبيعة حركيته الجمعية فعلا اجتماعيا، مهما كان موضوعه، ولذلك فإنه فعل سياسي بمعنى من المعاني.

المسرح/ الدراما فكر وتفكير:

فالمسرح فكر .. وتفكير أيضا. فجوهر كل من النص والعرض هو الدراما، وهي مناط الفكر فيهما. ونحن نعرف منذ صياغة أرسطو الشهيرة لمفهوم الدراما وقوتها التطهيرية، أن الدراما صيغة من صيغ التعبير الفني الأساسية، تختلف منذ بداياتها الباكرة عن الملحمة والشعر الغنائي. وهذا التمييز الأرسطي نفسه هو أول أعمال الفكر والتفكير في النقد، أو التنظير الفكري والفلسفي للدراما. فدراما الفعل الإنساني وعواقبه هي مناط فاعلية المسرح ومصدر التوتر الذي يمكنه من اقتناص المشاهد في شبكته. وهي دراما لأنها مبنية على مجموعة من الحتميات وعلاقات القوى التي يتخبط الإنسان في متاهاتها من أجل البرهنة على جدارته بإنسانيته، وبكل ما تمثله من قيم ومبادئ جمعية واجتماعية معا. وهي قيم رسمتها الآلهة المصرية في فجر المسرح الفرعوني، ثم الآلهة اليونانية في فجر المسرح الإغريقي، ثم بلورتها مختلف النصوص الدينية المقدسة، والفكر الفلسفي الذي قامت عليه مسيرة التحديث من بعدها.

والدراما أيضا، عكس الملحمة أو الشعر الغنائي، هي ما تجعل العمل المسرحي قابلا للتمثيل على المسرح/ الركح كما يقول إخواننا التوانسة أمام جمهور من المشاهدين. وهنا ننتقل من جانب الفكر الذي صاغ الدراما وأحكم



طه حسين

بنيتها إلى عملية التفكير الأوسع بطبيعتها الجدلية والحوارية. وهي العملية التي تتجاوز الجانب الفردي للإبداع، والذي يقتصر عادة على النص المكتوب، إلى الجانب الجمعي والتفاعلي للإنتاج والعرض من ناحية، والتلقي من قبل الجمهور من ناحية أخرى. وتتأثر بنية النص الدرامية، عكس معظم الأجناس الأدبية الأخرى، بهذا الجانب الجمعي في العرض والتلقي معا.

ولذلك فإن النقد المسرحي الجديد بهذا الاسم، بعيدا عن التغطيات الصحفية السريعة والمبتسرة، فكر .. وتفكير أيضا. بل هو في حقيقة الأمر فكر مركب عندما يتناوله النقد، لأنه لا يقتصر على فكر النص وحده، وإنما يضم معه الفكر الذي تنطوي عليه عملية عرضه، أو التأويل الإخراجي له على الخشبة/ الركح. وعلى النقد المسرحي، أن يكشف عن هذين النوعين من الفكر، ومدى تساوقهما مع بعضهما البعض فحسب، وإنما عليه أن يدير أيضا مع كل منهما جدله النقدي الخلاق الذي يموضعهما في سياقات التطور من ناحية، ويكشف عن مدى قدرة التأويل الإخراجي على سبر أغوار فكر النص الأصلي، خاصة في الأعمال المسرحية الإنسانية الكبيرة، من ناحية أخرى.

تفاعلية التفكير وجوانبه الثلاثة:

أما جانب التفكير، والذي يتخذ من صيغة التفعيل اللغوية منطلقا له، فإنه عملية تفاعلية بلا شك. تتطلب بطبيعة صيغتها اللغوية تفاعل النقد المسرحي مع أكثر من جانب من جوانب تشكّل العمل المسرحي وتلقيه:

أولها في اعتقادي هو النص المسرحي: ففي مختلف بلدان العالم ثمة نص مستقل نسبيا عن عروضه: وهو عمل أدبي مفتوح لكثير من التأويلات في العرض، ولهذا لايزال عندنا نصوص لشكسبير، ثابتة وراسخة، ولكنها تتعرض للكثير من التأويلات في عروضها المختلفة بين فترة وأخرى في ثقافته نفسها، وبين ثقافة وأخرى في مختلف اللغات التي ترجمته وعرضته على جمهورها. ونجد الحال نفسه مع راسين، أو هنريك إبسن أو أنطون تشيخوف أو برتولت بريخت وغيرهم من كبار كتاب المسرح. وكل نقد مسرحي جاد لديه القدرة الإبداعية الخلاقة على محاورة هذه النصوص والكشف عما تنطوي عليه من دلالات. أقول القدرة الإبداعية الخلاقة لأن النقد الجيد عمل إبداعي هو الآخر.

وثانيها هو العرض المسرحي وما ينطوي عليه من تأويل إخراجي، تلعب فيه ما أسميها بلغة المخرج المسرحي أدوارها التي ليس منها بالقطع إعادة كتابة النص المسرحي، وإنما الانطلاق من الاحترام الكامل له. فما يجلبه المخرج إلى عملية تجسيد النص على الخشبة من عناصر وأدوات، في مقدمتها الممثل، والحركة والإضاءة والموسيقى والألوان والإيقاع الذي يضم كل هذه العناصر معه، لابد من توظيفها لخدمة التأويل الإخراجي للنص المسرحي، لأنها تعد المفردات التي تشكل لغة المخرج الخاصة، والتي يجسد عبرها رؤيته للنص وفهمه لما


بريخت


تشيخوف

ينطوي عليه من معانٍ ودلالات.

وثالث هذه العوامل هو الجمهور وطبيعة استجابته للعرض المسرحي، وما يمكن تسميته بالذائقة المسرحية السائدة، أو المهيمنة والتي قد تعوق في كثير من الأحيان مسيرة التطور المسرحي. لذلك أحب أن ألفت النظر إلى أنه في الثقافة الواحدة، وفي المرحلة الزمنية الواحدة، هناك أكثر من جمهور مسرحي واحد. فجمهور مسرحيات الإبهار الحركي والبصري في المسرح الموسيقي التجاري في لندن مثلا، غير جمهور المسرح الجاد الذي يساجل الواقع ويطرح عليه أسئلة المسرح والجمهور معا، والذي يضيف إلى ضمير المسرح الانجليزي ومسيرته الإبداعية في الكتابة والإخراج. وإذا كان النوع الأول من المسرح لا يحتاج إلى دعم؛ فإن المسرح الجاد كثيرا ما يحتاج لذلك بالرغم من الإقبال الكبير عليه. وهو الدعم الذي يمكنه من أن يرود ويقود في مجالي الكتابة والإخراج/ العرض المسرحي معا. وهذا هو السبب في أنه مدعوم بقوة من الدولة في بريطانيا، بالرغم من أنه يحظى بجمهور كبير من المشاهدين، وتمتلئ مقاعد عروضه بانتظام.

النقد الخلاق واستشراف المستقبل:

لذلك فإن النقد المسرحي الجديد بهذا الاسم، لابد أن يأخذ هذه الجوانب الثلاثة بعين الاعتبار، وأن يكون هو الآخر فكرا .. وتفكيرا في آن. وأن يعي أن لعمية التفكير، بالإضافة إلى حوارها الجدلي الخلاق مع كل ما ذكرت من عناصر النص والعرض المسرحي وذائقة الجمهور، دور أشمل ينطوي في جانب منه على التقييم المعياري، وبلورة التيارات والاتجاهات والرؤى؛ وفي جانب آخر على الاستشراف المستقبلي.

فلا يمكن مثلا إغفال دور النقد المسرحي في تغيير الذائقة المسرحية، وتشجيع التيارات والتجارب الجديدة، وتمكينها من التبلور والنضوج؛ كما كان الحال مثلا مع ناقد من وزن كينيث تينان Kenneth Tynan (1927 - 1980) في المسرح الانجليزي الحديث. فبدون دوره المهم لما نجحت موجة كتاب الغضب التي خرجت من معطف (انظر وراءك في غضب Look Back in Anger) لجون أوزبورن John Osborne (1929 - 1994) في تغيير طبيعة المسرح الانجليزي في خمسينيات القرن الماضي. لكن الأهم أنه لولا دوره النقدي لفشلت تجربة كاتب كبير أصبح الآن من أعلام المسرح في القرن العشرين، ألا وهو صامويل بيكيت Samuel Becket (1906 - 1989) الذي فشلت مسرحيته العلامة (في انتظار جودو) عند عرضها الأول على خشبة المسرح الانجليزي. بعدما أخفق النقد الصحفي والجمهور معا في التعامل معها، أو استكناه ما تنطوي عليه من دراما مغايرة. واعتبروها مسرحية لا يحدث فيها شيء. وانهال عليها النقد الصحفي بمعاول الهدم القاسية.

ولولا قدرة كينيث تينان في الكشف عما تنطوي عليه هذه المسرحية من فكر وتفكير لماتت في مهدها في عالم المسرح الانجليزي الذي تسيطر عليه النزعة التجارية القاسية بشكل

كبير. حيث أقر بأنها فعلا مسرحية لا يحدث فيها شيء، ولكنها مسرحية لا يحدث فيها شيء مرتين! وكانت هذه الصياغة النقدية المفتاحية للتهمة التي وُجهت للمسرحية، هي المدخل الضروري للتعامل معها بمنهج نقدي مغاير، وبتلقٍ جماهيري جديد.

هكذا فتح النقد المسرحي الباب أمام الفكر الذي تنطوي عليه هذه المسرحية العلامة. وكيف أن اللاشيء نفسه/ العدم/ العبث/ اللامعقول وعبء التعامل معه، هو مدار الدراما والفكر فيها. مما أرهف الوعي بما تنطوي عليه المسرحية من فكر وتفكير فات كل نقادها الصحفيين؛ بل وفتح الطريق أما تيار جديد في الكتابة المسرحية، سرعان ما ازدهر وأثرى المسرح بالكثير من العطاءات.


أرسطو


كينيث تاينان

في بحثها عن الأصول الفكرية للمسرح كفن، أثناء تأريخها الموسوعي للمسرح الأوروبي، عادت الباحثة المسرحية الألمانية إريكا فيشر ليختا إلى أعمال الأنثروبولوجي الألماني وفكرته عن الوضع الإنساني باعتبارها الرديف المطابق للوضع المسرحي. راجع المقدمة المعنونة Theatre and identity: theatre as a liminal space والتي تربط فيها بين المسرح والهوية، وصولا إلى أن التأريخ للمسرح الأوروبي هو بصورة من الصور تأريخا لتحولات الهوية الأوروبية ذاتها (ص 1-7) Erika Fischer-Lichte, History of European Drama and Theatre, trans: Jo Riley (London, Routledge, 2002), p. 1-7. والذي لخصت فيه فكر بلسنر من كتابه Helmut Plessner, Die Frage nach der Conditio humana, Frankfurt: Suhrkamp, 1976

راجع Erika Fischer-Lichte, History of European Drama and Theatre, trans: Jo Riley (London, Routledge, 2002), p. 4

المرجع السابق ص 5

في كتابه الشهير: Theodor W. Adorno, The Cultural Industry: Selected Essays on Mass Culture, edited with an Introduction by J. M. Bernstein (London, Routledge, 1991)

راجع كتابه Arnold Van Gennep, Les Rites de Passage: Etude Systematique des Rites (Paris, Picard, 1909/1981).

Walter A. Davis, Art and Politics, Psychoanalysis, Ideology, Theatre (London, Pluto Press, 2007, p. x.

Richard Schechner, Between Theatre and Anthropology. (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1985), p. 121.

Hannah Arendt, On Revolution. (New York: Viking, 1963), p. 25.

راجع كتاب Amelia Howe Kritzer, Political Theatre in Post-Thatcher's Britain: (1995 – 2005), London, Palgrave Macmillan, 2008), p. 1



محمد آيت ميهوب

ألبير كامو بين الفيلسوف والفنان

تحيي فرنسا هذه الأيّام -ومعها كل أحبّاء الرواية في العالم- الذكرى التاسعة والخمسين لوفاة الروائي الفرنسي ألبير كامو صاحب روايات «الطاعون» و«الغريب» و«السقوط»، وكتب عديدة أخرى في المسرح والتأمّل الفلسفي من أشهرها: «كاليجولا» و«العادلون»، و«أسطورة سيزيف» و«الإنسان المتمرّد». ولئن فصل بيننا وبين كامو ما يزيد على نصف قرن من الزمان، فإنّ أدبه من رواية وقصة قصيرة ومسرح ما يزال يبثّ في قرائه القلق والحيرة، ويحضّهم على أن يتساءلوا عن واقعهم اليومي وعن وجودهم وعمّا يكون به الإنسان إنسانًا.

وهذا المقال في حدّ ذاته اعتراف من صاحبه بدين قديم يحمله لهذا الكاتب الفرنسي الجزائري، فلطالما أمضيت في صدر شبابي ساعات وساعات وأنا أقرأ لألبير كامو وأفتح لي من صفحات كتبه مسارب إلى الفن والفلسفة ويقظة الوجود.

ولا شكّ أن الطفل ألبير الذي نشأ في إحدى الضواحي الجزائرية الفقيرة ما كان يتصور أنه سيحقق من المجد ما حقق، وهو الذي ولد في عائلة مدقعة الفقر. فقد كانت بيئة «كامو» الأولى بيئة مثقلة بمظاهر البؤس والفقر وشقاء الروح.

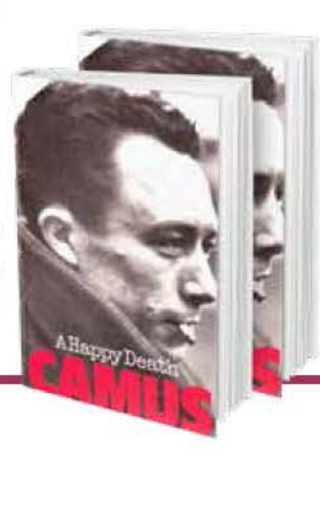
يقول المؤلّف مستحضرًا طفولته: «أذكر طفلًا كان يقيم في حيّ فقير... كان هناك طابقان فقط والدرج عديم النور. ورغم مرور السنين فإنّه حتّى اليوم يستطيع تلمّس طريقه إلى البيت في الظلام... حتّى جسده مشبع بذلك المنزل. ساقاه تتذكّران بالضبط ارتفاع الدرجات، ويده تتذكّر فزعها الغريزيّ الذي عجزت عن السيطرة عليه بسبب الصراصير...»

ولم ينس كامو في كل ما كتب «عالم الفقر» الذي عاشه في طفولته، ذلك العالم المغلق الصامت، ولكن الأبيّ المعتز بنفسه أيضًا، لذلك كان استذكار الفقر عنده مقترنًا دومًا باستحضار مظاهر جمال البيئة الأولى ودفئها السحريّين.

يقول: «ولـدت فقيرًا في حيّ من أحياء العمّال في المدينة، ولكنّني لم أعرف ما العوزُ إلى أن رأيت ضواحينا الباردة في باريس... والدفء الذي شاع في طفولتي حجب عنّي الغضب.

عشت في وسط الإملاق ولكن في ضرب من اللذّة وشعرت بقوى لا حدّ لها في دخيلتي. وكانت مشكلتي الوحيدة هي أن أكتشف المجال لاستخدام تلك القوى».

في هذه العبارات التي كتبها كامو في الخمسينيات إشارات مريرة إلى العزلة الكريهة التي عاشها بدءًا من منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، وهو في قلب باريس. فبعد أن أصدر كتابة «الإنسان المتمرد» الذي وجّه فيه نقدًا لاذعًا لليسار الماركسي الفرنسي، وسخر من مفهومي «الالتزام» و«التاريخانية» الماركسيين اللذين ينظر وفقهما إلى التاريخ بوصفه حركة خطية تقدمية، انصب عليه غضب جان بول سارتر ونعته بـ«فيلسوف الأقسام النهائية في التعليم الثانوي» كناية عن بساطة أفكاره وضعف معجمه الفلسفي. وما لبث أن انضم إلى سارتر غاضبون آخرون، وبسرعة غدا ألبير كامو محتقرًا من اليسار الفرنسي، مكروهًا من النخبة المثقفة، منبوذًا بطبعه من اليمين، فانزوى بعيدًا عن صخب الساحة الثقافية الباريسية. لكنه استغل هذه العزلة في الانكباب -بلا كلل- على الكتابة والعمل في المسرح. وقد توّج هذا النشاط الإبداعي بحصوله على جائزة نوبل للآداب سنة 1957، وهو في سنّ الرابعة والأربعين، فكان أصغر من نالها سنّا. وقد سئل -حينها- هل تعتبر هذا النجاح تتويجًا؟ فقال: «كلاّ. إنّ عملي لم يبدأ بعد».







ولكن لم تمض سنتان على هذا النجاح حتّى مات ألبير كامو موتًا فاجعًا في الرابع من يناير سنة 1960، فقد اصطدمت السيّارة الفخمة التي كان يمتطيها صحبة صديقه الناشر الشهير ميشال جاليمار، بشجرة ضخمة وهما في طريقهما إلى باريس. وقد سبّب هذا الحادث صدمة لأحبّاء كامو في فرنسا وخارجها. وممّا زاد من حزن الناس عليه التباس موته بـ«العبث». فقد وجد في جيب كامو مخطوط كتابه «الإنسان الأول» وتذكرة قطار، فاستنتج من ذلك أنّه كان ينوي أن يسافر في القطار ثم لسبب من الأسباب غيّر رأيه، فامتطى سيّارة ناشره وصديقه، وسارع إلى مقتله. لقد كانت فلسفة العبث محور كتابات كامو ومدار رؤيته للعالم، وقد كانت كذلك الموكب الذي شيّعه من عالم الفراغ والتفاهة إلى عالم الخلود.

امتطى سيّارة ناشره الشهير «جاليمار» ليلقى حتفه!

هذه العزلة، وذلك الإقصاء اللذان عاشهما كامو في باريس انقلبا تمامًا اليوم، فلا يختلف فرنسيان اثنان على الإقرار بعظمة كامو الأدبية وتمثيله أحد كبار الكتاب الفرنسيين في القرن العشرين. وما الاحتفاء الرسمي والشعبي الكبير الذي عرفته مئوية ميلاده سنة 2013، وما إعادة نشر كتبه في طبعات واسعة ضخمة، وما كثرة المؤتمرات العلمية والثقافية التي انتظمت في فرنسا وخارجها وكان مدارها على أدبه وفكره قصة ومسرحًا ومقالة، إلا أكبر دليل على خلود كامو وتحوّله إلى رمز من رموز الدولة الفرنسية.

ومن المسائل المهمة التي أثيرت خلال الاحتفال بمئوية كامو ودار حولها وما يزال جدل كبير مسألة علاقة الروائي الفرنسي بالفلسفة. فقد استعيدت قولة سارتر المتهكمة بكامو في سياق جاد واشتق منها السؤال الآتي: هل يمكن أن نعتبر ألبير كامو فيلسوفا؟

وقبل أن نحلل مختلف الردود عن هذا السؤال نذكر بأنّ ألبير كامو درس الفلسفة بجامعة الجزائر من 1932 إلى 1936. وأخذ يتهيّأ سنة 1936 لتقديم بحثه الفلسفيّ عن العلاقة بين «الهيلينيّة والمسيحيّة في آثار «أفلوطين» و«سانت أغوسطين». ولكنّ مرضه بالسلّ اشتدّ ومنعه من خوض امتحان شهادة التبريز، إذ كان يحرم على المصابين بهذا المرض مزاولة الدراسة والاختلاط بالطلبة والمدرّسين؛ فأطرد عن ذهنه فكرة التدريس، والتفت إلى المسرح. لكنّ المسرح لا يوفّر الطعام، فانصرف كامو إلى امتهان عدد كثير من الوظائف، فعمل كاتبًا في شركة استيراد وتصدير، وهي مهنة بطله في رواية «الغريب»، واشتغل بائعًا لأدوات السيّارات، ثمّ معلّمًا خصوصيًّا وموظفًا في الأرصاد الجويّة.

وفي سنة 1938 اهتدى إلى العمل في الصحافة، وفي أثناء ذلك كان يلتهم الأدب الفرنسيّ التهامًا ونجده في يوميّاته معجبًا بمارسيل بروست وأندريه جيد وأستاذه جان جرينييه الذي أعداه بحبّ الأدب الإغريقيّ.

انقسم النقاد والفلاسفة الفرنسيون وهم يجيبون عن السؤال المتعلق بصلة كامو بالفلسفة إلى فريقين متقابلين.



يذهب القسم الأول منهم إلى الردّ بطريقة مباشرة على جان بول سارتر فيصرّون على أنّ غريمه كامو فيلسوف بأتم معنى الكلمة. ودليلهم على ذلك اتصال مواضيع

هل يحق لنا اعتباره فيلسوفًا؟



رواياته وكتاباته التأملية بقضايا عدّت من أهم مدارات الفلسفة المعاصرة كقضية عبثية المنزلة البشرية («أسطورة سيزيف» 1942)، ونقد الفكر الوضعي، ورفض مفهوم التاريخ المتقدم إلى الأمام («الإنسان المتمرد» 1957)، والتأرجح في كل كتبه بين اليقين بأن العالم لا يتيح أيّ أمل في الظفر بالمعنى، وقرار الفعل مع العالم وضده.

يقابل هذا الموقف، موقفٌ آخرُ مناقض يرفض رفضًا قاطعًا اعتبار كامو فيلسوفًا، لعدم توفقه في إنشاء مفاهيم فلسفية صارمة ولافتقار كتاباته إلى النسق الشامل بالمفهوم الفلسفي الدقيق. وقد مال أصحاب هذا الرأي إلى عدّ كامو رجلًا أديبًا تأمليًا لا يفتأ يتنقل من القصة إلى الرواية، ومن المسرح إلى الصحافة، ومن أدب الرحلة إلى أدب المحاولة. ويدعم هؤلاء حجتهم بما كتبه الأديب الفرنسي يومًا رافضًا اعتباره فيلسوفًا: «لست فيلسوفًا، ولم أزعم أنني كذلك البتة»، وقوله «لماذا أنا فنان ولست فيلسوفًا؟ ذلك أنني أفكر وفق ما تمليه عليّ الكلمات لا الأفكار».

وقد اعتبر هؤلاء النقاد أنّ شخصيات كامو فلاسفة أما هو فلا.

هل حسم الموضوع إذن؟

لا

فقد طرحت القضية من جديد خلال السنوات الأخيرة، وأخذ يظهر موقف ثالث صار يدافع عنه بعض النقاد المختصين في أدب كامو، وعده من الفلاسفة المنصفين له.

ينطلق هذا الموقف الجديد من قولة شهيرة جدًا لكامو تناقض قولته السابقة، يعتبر فيها أن لا تناقض بين الكتابة الروائية والفلسفة، بل إنّ الفلسفة في رأيه لا تكتمل إلا في الرواية:

«نحن لا نفكر إلا عبر الصور. إذا أردت أن تكون فيلسوفًا فاكتب روايات».

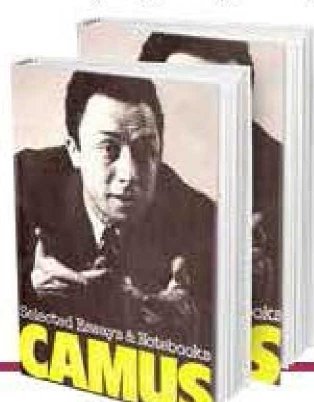
وفي مناسبة أخرى يؤكد أنّ «المشاعر والصور تضاعف المحتوى الفلسفي عشر مرات». إنّ أهمية هذه القولة تكمن في أنها تؤكد علاقة كامو بالفلسفة، واستحضاره لها وهو يكتب الرواية.

وقد دفع ذلك أصحاب الموقف الثالث إلى استثمار هذا الموضوع ليصير مناسبة للتفكير في صلات الفلسفة بالرواية عامة.

بناء عليه رأوا أنه من الإجحاف اعتبار كامو فيلسوفًا بسيطًا أو تبسيطيًا؛ فألا يكون المرء منظرًا وأن يفتقر إلى النسق الفلسفي والمصطلحات المختصة، وأن يتنقل بين فنون الكتابة الأدبية ومنها إلى الصحافة، فتلك جميعها مزايا تتضافر لتأسيس طريقة جديدة فريدة في التفلسف.

فلم يكن مرام كامو متعلقًا بإنشاء نسق فلسفي صارم كما هو الأمر عند كبار الفلاسفة، لكنّ مساره الفلسفي يرتبط بوضوح ببعث كوكبة من المفاهيم التأسيسية التي أثرت في الفلسفة الوجودية وفي تيارات أدبية كثيرة ازدهرت في النصف الثاني من القرن العشرين، ومن هذه المفاهيم: العبث، والعزلة، وانعدام التواصل بين الإنسان والعالم.

إنّ روايات كامو: «الغريب»، و«الطاعون»، و«السقوط»، وأقاصيصه: «المنفى والمملكة»، ومسرحياته: «العادلون» و«كاليجولا» و«سوء الفهم» هي أنماط من التفكير الفلسفي مثلها في ذلك مثل كتاباته ذات النزعة التأملية الفلسفية الواضحة.



وفي ذلك دليل على أنّ الأديب الفرنسي قد اختار منذ البداية أن يؤلف آثاره القصصية انطلاقًا من أفكاره الفلسفية.

وقد انتبه الناقد الفرنسي رولان بارت منذ سنة 1944 إلى التقارب الكبير بين



أسلوب القصة وأسلوب المقالة عند كامو، وخلص من ذلك إلى وصف كتابة كامو بـ«الكتابة المحايدة»، وهذا الحكم النقدي الذي أصدره بارت مهم جدًّا، إذ يبيّن الخيط الرفيع الفاصل بين توظيف الفلسفة في الرواية، وتوظيف الرواية للفلسفة، بين أن يكون المؤلف روائيًا وأديبًا في المقام الأول تكشف أعماله عن فيلسوف نائم داخله، تبرزه الرواية أحسن مما تبرزه المقالة الفلسفية، وبين أن يكون الكاتب فيلسوفًا فاشلًا هرب إلى الرواية فخسرهما الاثنين، ولم يصب الفن ولا الفكر.

وهذا يقودنا إلى سؤال أعم هو:

كيف تدخل الفلسفة إلى الرواية دون أن تفقد الرواية خصوصيّتها وجمالياتها وتصير رواية أطروحة في أحسن الأحوال؟

تجيبنا روايات كامو عن ذلك بجملة من الحلول الفنية الأسلوبية التي اعتمدها وبنى عليها سرده.

من ذلك عدم الفصل بين الأبعاد الفلسفية وعناصر القصة؛ فلا يغدو المحتوى الفلسفي خطابًا مستقلًا مسقطًا على النص، بل يندغم اندغامًا في نسيج النص أطرًا وأحداثًا وشخصياتٍ وقضايا.

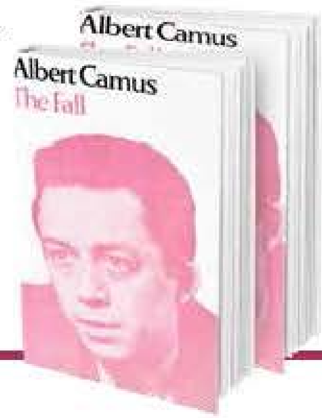
الحل الثاني الذي اعتمده كامو وميّز أسلوبه فعلًا، هو الحيادية المطلقة للراوي إزاء العالم الروائي، وبروده تجاه الشخصيات، وامتناعه عن اتخاذ أيّ موقف من أيّ ضرب كان، وهذا ما جعل الباحث الفرنسي جيرار جونات لا يخفي دهشته -وهو المختص البارز في دراسة التبئير السردي- من ظاهرة غريبة لاحظها عند كامو وتتعلق باستخدامه السرد بضمير المتكلم واعتماده التبئير الخارجي في الوقت نفسه.

والحال أنّ المعتاد أن يقترن هذا النوع من السرد بالتبئير الداخلي، إذ يخبر فيه الراوي عن مشاعره، ويكشف عن بواطن ذاته.

التقنية الثالثة التي اعتمدها كامو هي استعمال الجمل القصيرة جدًّا، وتجنب الجمل التحليلية الطويلة القائمة على علاقات منطقية.

على هذا النحو فإنّ أهميّة عودة النقاد الفرنسيّين إلى الجدال في شأن علاقة ألبير كامو بالفلسفة، تكمن -في رأينا- في تأكيد قدرة الرواية، هذا الجنس الآكل الأكول لغيره من الأجناس والخطابات حسب ميخائيل باختين، على توظيف الفلسفة توظيفًا فنيًا ناجحًا يثري الكتابة الروائية، ويمنحها خلفية فكرية عميقة. ولعل هذه الحقيقة لا تصدق على ألبير كامو فحسب، بل صدقت قبله على هيرمان ملفيل وروايته «موبي ديك»، ومع فولتير وروايته «كانديد»، وصدقت من بعده على نجيب محفوظ وأغلب رواياته التي كلما انغرست في الواقع انكشف عمقها الفلسفي، وكلما انكشفت خلفيّتها الفلسفية ازداد قراؤها معرفة بالواقع.

لم يكن ألبير كامو فيلسوفًا بالمعنى الدقيق التقليدي لمفهوم الفيلسوف، أي الفيلسوف العاكف على قضاياه الفلسفية الأكاديمية، الحريص على انسجام عناصر نسقه الفلسفي الصارم. بيد أنه كان مع ذلك فنانًا تأمليًا انشغل طيلة عمره بالتفلسف، وقد بدأ فعلًا مسيرة فلسفية أكاديمية سرعان ما صدته عن مواصلتها ظروفه الصحية، ولكننا نعتقد أنه كان سينقطع عنها من تلقاء نفسه، مثلما فعل نجيب محفوظ، حين اهتدى إلى أنّ الرواية تستطيع أن تخصب الفكر بما لا يستطيعه البحث الفلسفي، وأن تصل إلى الآخر الإنسان في المطلق بما تعجز عن بلوغه أعتى النظريات الفلسفية. لذلك انتصر للروائي الفنان فيه وهو يعلم أنه ضامن لولادة الفيلسوف، فقال: «أنا قبل كل شيء فنان، وهذا الفنان الذي فيّ هو الفيلسوف».





«سعاد» و«نسرين» صينيتان جذبهم

لا يزال الوطن العربي منجمًا تاريخيًا ثقافيًا علميًا أدبيًا واقتصاديًا، ولا يزال الاهتمام به لا ينقطع من دول الغرب والشرق، وإذا كانت الصين قد غزت العالم كله بمنتجاتها رخيصة الثمن، فإنها لم تحقق تلك الطفرة الاقتصادية صدفة، كان وراءها العديد من الدراسات التي عرفت توجهات المستهلكين في كل مجتمع وتاريخهم وثقافتهم المرتبطة بنمط معيشتهم وإنفاقهم واختياراتهم عمومًا بما فيها الاختيارات الاقتصادية، لذلك لا يتوقف الاهتمام الصيني بالوطن العربي عن النمو يومًا بعد يوم، ويتزايد عدد المهتمين بتعلم اللغة العربية بشكل مطرد.

ويشير كتاب «الإسلام والمسلمون في الصين» لمجموعة من الباحثين الصينيين والعرب الصادر



منير عتيبة

عام 2015 عن مركز المسبار للدراسات والبحوث إلى أن الاستعراب في الصين شهد نشاطًا ملحوظًا، تعود بدايته إلى أواخر عهد أسرة مينغ الملكية (1368-1644)، وأوائل عهد أسرة تشينغ الملكية (1644-1911).

واكب المستعرب الصيني تشونغ جيكون في ورقته حركة الاستعراب الصيني التي تنامت في السنوات الأخيرة من خلال نقل النصوص العربية إلى الصينية، وتدريس اللغة العربية في الجامعات والمعاهد العليا. وإلى جانب حركة ترجمة روائع الأدب العربي القديم، نقلت إلى الصينية الدواوين الشعرية والروايات من بينها ديواني الشاعر أدونيس: «عزلتي حديقة» و«تجاعيد الوقت» وأعمال ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، والطيب صالح، وتوفيق الحكيم، وطه حسين،







لبلادنا سحر ألف ليلة وليلة

ويوسف إدريس، وإحسان عبد القدوس، وإبراهيم الكوني.

و يقدم رئيس قسم اللغة العربية في جامعة بكين لين فنغمين دراسة تحت عنوان «جحا والأفندي: شخصية من طريق شينجيان إلى أنحاء الصين» يبين فيها التبادل الثقافي/ التاريخي الذي انعكس في الأدب الشعبي عند قومية الويغور.

وقد ترك الإسلام أثره في الحضارة الصينية في مجالات علم الرياضيات والفلك والطب والصيدلة والهندسة المعمارية والهندسة الآلية.

عُنيت دراسة أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة قناة السويس كرم حلمي فرحات بتفحص أثر العلوم الإسلامية في الحضارة الصينية.

ويشير إلى مسلمي الصين الموزعين على عشر قوميات: الويغور، الطاجيك، الكازاخ، القرغيز، الأوزبك، التتار، الهوي، سالار، دونغشيانغ، وباوآن، من أصل 56 قومية.

وقد التقت «الجسرة الثقافية» طالبتين صينيتين تدرسان اللغة العربية بمركز تعليم اللغة العربية للأجانب بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، حصلت كل منهما على درجة الماجستير فى الأدب العربي وتعدان رسالتيهما للدكتوراه، حيث تلقى تجربتهما الضوء على مدى الاهتمام البالغ باللغة والأدب والثقافة العربية من جانب الصينيين دولة وشعبًا فى الوقت الراهن، وهما: سعاد ونسرين، حيث يتم منح الطالب/الطالبة الذى يدرس خارج الصين اسمًا مناسبًا للدولة التى سيدرس بها ليسهل عليه التعامل مع مواطنيها.



سعاد: اللغة العربية صعبة لكنني أحببتها!



سعاد: اسمي الأصلي دو تيان جياو Doutianjiao أنا من منطقة شاندونج، بلد المعلم كونفوشيوس، درست في جامعة نغيشيا وقد درست في المراحل الأولى النطق والقراءة والسمع والكتابة وأحوال الدول العربية وثقافاتها. في البداية لم أكن أرغب في دراسة اللغة العربية، فقد كنت سأدرس اللغة الإسبانية لكن مجموعي كان كبيرًا ولذلك دخلت قسم اللغة العربية بجامعة نغيشيا لكني بعد ذلك أحببت العربية كثيرًا. فالجامعة تقسم الطلاب إلى مجموعات الذين يحصلون على مجموع كبير يدرسون اللغات الصعبة، ومن يحصلون على مجموع قليل يدرسون اللغات السهلة، وعندما حصلت على مجموع كبير حولتني الجامعة إلى اللغة العربية لأنها أصعب. ومعيار السهولة قرب اللغة من لغتي الأصلية بالإضافة إلى قواعد اللغة، لأن قواعد اللغة العربية كثيرة. وقبل التخصص في العربية كنت أعرف «ألف ليلة وليلة» لأنها قصص مشهورة في الصين للأطفال.

وتواصل سعاد:

وعندما سألتها: وهل وجدت الواقع العربي مطابقًا للصورة التي بذهنك أم مختلفًا وما أوجه الاختلاف؟

ضحكت سعاد قائلة: وجدته أجمل كثيرًا مما تخيلت، ولا تستطيع أي كتب أو أية صور أن تعبر عن جمال العالم العربي إلا أن تأتي بنفسك وترى بنفسك.

وعن المصاعب والمشكلات التي واجهتها في دراسة اللغة العربية وكيف تغلبت عليها؟ تقول: في البداية صعوبة النطق لأن حروفًا كثيرة في العربية غير موجودة في الصينية مثل: العين والخاء والضاد والطاء، فكل هذا صعب علينا، وعندما جئت أدرس لم أفهم «المعلقات» وبعض قصائد العصر العباسي ولكنني كنت أحاول التحدث مع الزملاء ويشرحون لي ما لا أفهم وهم متعاونون جدًا، والشعب العربي طيب ومتعاون. وقد كان ممتعًا لي أن أعرف الحضارة العربية وهي حضارة مختلفة عن الصينية وأتعرف على الدين الإسلامي والحضارات القديمة في منطقتكم والأدب والفكر والتراث. كل هذا كان ممتعًا جدًا.

أريد أن أعود إلى بلادي لأعلم الطلاب اللغة العربية وأترجم الأدب العربي الحديث إلى الصينية

حصلت سعاد على درجة الماجستير في الأدب العربي، وعنها تقول: كانت عن السيرة الذاتية بين طه حسين وعباس محمود العقاد وكانت تحت إشراف دكتور مراد حسن عباس الذي فتح باب دراسة الأدب العربي الحديث لي، وعرفني بالسيرة الذاتية والمذاهب المختلفة.

أما رسالة الدكتوراه فهي في استلهام الموروث المسرحي بين توفيق الحكيم، وسعد الله ونوس، فقد أردت أن أقارن بين مذهبين مختلفين في المسرح وكيف يستلهمان الموروث الأدبي.

وتشير سعاد إلى مدى الاهتمام الحالي بدراسة اللغة العربية في الصين مقارنة بعدة سنوات مضت ولماذا ازداد هذا الاهتمام وهل هو اهتمام علي مستوي الدولة فقط أم على مستوى الأفراد أيضا؟

فتقول: في سنة ٢٠٠٩ كانت هناك ثلاث عشرة جامعة تضم أقسامًا للغة العربية وفي عام ٢٠١٥ أصبحوا أكثر من أربعين جامعة فيها أقسام للغة العربية. وهذه زيادة كبيرة بسبب السياسة التي طرحها رئيس الصين «الحزم والطريق» لتعزيز العلاقة بين الصين والدول العربية، وتعزيز التعاون والتبادل بيننا. وقد وضعت الحكومة امتحان المستوى المهني الرابع للطلاب الذين يدرسون اللغة العربية بهدف رفع مستواهم في اللغة.

نسرين:سأكون جسرًا للتواصل بين الصين والبلاد العربية

تقول نسرين: عندما كنت في طفولتي، فإن أول شيء عرفته عن الدول العربية كان كتاب «ألف ليلة وليلة»، فهو كتاب مشهور جدًا، مثلا قصة «علي بابا والأربعون حرامي»، كلمة السر «افتح يا سمسم» لم تفتح الباب في القصة فقط، بل هي فتحت الشباك لدخول العالم العربي الساحر إلى حياتي. ولأني في مرحلة دراسة اللغة الأجنبية، فالبيئة اللغوية مهمة جدًا لي. لابد أن أغادر بلدي وأهلي وأعيش في الدول العربية لرفع مستوى اللغة الشفوية. عندما تخرجت في جامعتي بالصين، أظن أني لم أثق بنفسي في اللغة العربية، وأريد أن أدرس أكثر وأتكلم العربية بطلاقة مثل العرب.

وتكمل نسرين: قبل أن أغادر الصين، كنت أشعر بالخوف والقلق الشديدين، وأبواي كانا قلقين أكثر مني، لأنها أول مرة أغادرهم وأعيش وحدي في دولة بعيدة. ربما في رأي الناس، الدول في إفريقيا فقيرة وخطرة، ودولة في الشرق الأوسط ليست آمنة. وعندما وصلت إلى هنا وجدت الدنيا أمان. بلاد مختلفة عن الصين طبعًا، ولكن لا يوجد إحساس بالغربة.

ولعل أهم المصاعب والمشكلات التي واجهتني هي العامية، فقبل السفر، درست أربع سنوات في الصين اللغة العربية الفصحى فقط، لذا فإنني لم أستطع أن أفهم العامية حتى ولو كانت مجرد جملة بسيطة في الشارع. فقد كانت قدرتي اللغوية ضعيفة في ذلك الوقت. وبعد ذلك وجدت أني لا أستطيع أن أفهم المصطلح في المحاضرات، لا أفهم القصيدة والمعلقة، لا أعرف تاريخ الأدب العربي، وصعب عليّ أن أكمل الواجبات......لذلك كنت أتحدث مع زملائي وأصدقائي العرب بقدر استطاعتي، وأسأل الدكتور دائمًا، وأحفظ القصيدة قبل



اللهجة العامية كانت عقبة صعبة جدًا لكنني تغلبت عليها

المحاضرة حتى ولو لم أفهمها، ثم أستمع للشرح من الدكتور أو من الزملاء. ومن المعروف أن البيئة اللغوية مهمة جدًا بالنسبة إلى من يتعلم اللغة الجديدة.

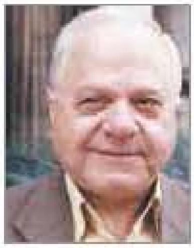
مع الأيام، سأستطيع أن أتكلم أحسن فأحسن. وتضيف نسرين: في مرحلة كتابة الرسالة، كان لدي وقت فراغ، عملت مترجمة في شركة صينية، وكل يوم أتحدث مع الناس في الشارع ثم أترجم إلى الزملاء في الشركة. وهذا مفيد أيضًا لأني دخلت المجال الجديد للغة العربية ودرست كلمات أكثر.

وتوافق نسرين زميلتها سعاد في أن الصين الآن تهتم بالعلاقات بينها والدول العربية. لدينا سياسة «الحزم والطريق» أو طريق الحرير الجديد الذي يؤكد ويوثق العلاقات العربية الصينية.

وتفكر نسرين بصوت عالٍ فيما تنوي أن تفعله بعد عودتها إلى بلادها قائلة: لم أحدد الآن لأني ما زلت في مرحلة دراسة. ربما سأكون أستاذة في الجامعة لتعليم اللغة العربية، وربما أعمل في مجال التجارة بين الصين والدول العربية. لا أريد أن تفوتني الفرصة. فأيًا كان المجال الذي سأعمل فيه سأكون جسرًا بين الصين والدول العربية.

وعن رسالتها للماجستير تذكر أنها تناولت البنى السردية بين ألف ليلة وليلة وحكايات لياو تشاي العجيبة.. دراسة مقارنة. وتعلق: لم أجد باحثًا قام بعمل دراسات مقارنة بين «ألف ليلة وليلة» و«حكايات لياو تشاي العجيبة» سواء في الصين أو في الدول العربية. وذلك لأن العالم العربي لا يعرف كثيرًا عن «حكايات لياو تشاي العجيبة». ولحسن الحظ، يسرني أن «حكايات لياو تشاي العجيبة» قد ترجمت إلى اللغة العربية. تحت عنوان «مختارات من حكايات لياو تشاي العجيبة» وهذا الكتاب الصادر باللغتين الصينية والعربية اختار 31 حكاية من أشهر حكايات لياو تشاي التي تعرف بأنها حكايات عجيبة، وقد قام بترجمتها إلى العربية كل من الأستاذ علي زيتون والأستاذ عباس جواد كديمي. وقد وجدت هناك أوجه تشابه بين العملين الأدبيين المتميزين، أولًا: الموضوع الرئيسي للكتابين هو الحكاية الخارقة، فقد وصف الكتابان العالم الواقعي والعالم الخيالي معًا، الحكايات في الكتابين تضم الكثير من العناصر الخيالية والسرود الخارقة، وثانيًا: إن هذين الكتابين ليسا قصة منفصلة، ولكن مجموعة من القصص. والحكايات في الكتابين مختلفة ومتنوعة، وثالثًا: هذان الكتابان يعكسان واقع المجتمع القديم إلى حد ما، وبهما الكثير من وصف للنساء والعلاقات بين الجنسين. فللنساء دور مهم جدًا في «ألف ليلة وليلة» وفي «حكايات لياو تشاي العجيبة» كذلك».

المترجِم.. شخصية روائية



نبيل سليمان
اللاذقية

من النظر إلى الترجمة كإبداع تأتي هذه المحاولة في تبيّن ما بين الترجمة إلى العربية والرواية العربية، عبر ظهور المترجِم (ة) كشخصية روائية. وربما كانت الريادة هنا هي للكاتب العراقي «غائب طعمة فرمان» (1927-1990) في روايته «المرتجى والمؤجل – 1986». وكان الكاتب قد عاش في موسكو ثلاثين سنة، وعمل مترجمًا في «دار التقدم»، وكان لِمَا ترجم، كارهًا حينًا، وراغبًا حينًا، أثره في حياته، وهو الذي أغنى المكتبة العربية بإبداعات «تورجنييف» و«بوشكين» و«ايتماتوف» وسواهم. وفي رواية «المرتجى والمؤجل» تتلامح السيرية عبر شخصية بطلها المترجم سليم الذي أرهقته الغربة حد الضياع. ويرى بعضهم أن هذه الرواية هي أضعف روايات الكاتب، وهي وحدها لم يكن العراق فضاءها.

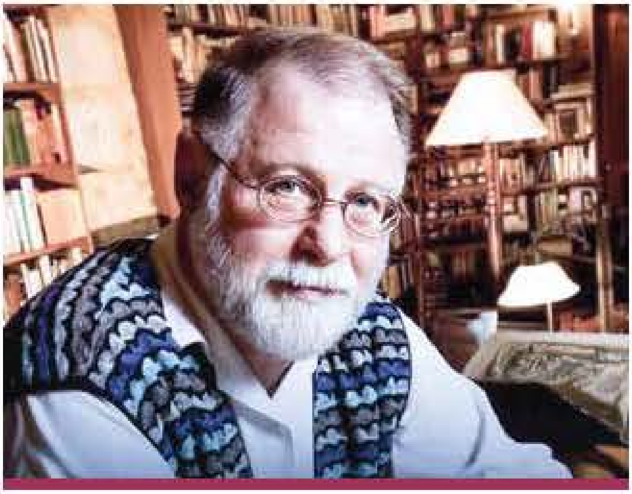
الحفيدة الأمريكية (2003):

تتمحور هذه الرواية لـ"إنعام كجه جي" حول شخصية زينة، الشابة الأميركية عراقية الأصل والمسيحية. وكان والدها المذيع قد فرّ من القمع، وأقام في ديترويت حيث عاشت زينة قبل أن تعود إلى العراق، ولكن كمترجمة في الجيش الأميركي سنة 2003. وعبر اللعبة البديعة التي تنتزع فيها زينة الرواية من الكاتبة، تتولى السرد بنفسها، فيشتبك الزمن الأمريكي بالزمن العراقي، عبر مختلف الشخصيات والأحداث والحكايات، ابتداءً وانتهاء بزينة القلقة التي كانت تفكر أنها ماضية كجندية في مهمة وطنية، لكنها تتشكك في أن الراتب المغري هو دافعها. وسوف يجعلها لقاؤها بجدتها، وعشقها لأخيها بالرضاعة "حيدر"، وما عاشته خلال خمس سنوات قبل أن ترفض تجديد عقدها، تتساءل عما إن كانت خائنة ببزتها العسكرية. وخيانة المترجمة (المترجم) هنا ليست للنص، بل للوطن، مما سيورث زينة بعد موت جدتها وعودتها إلى ديترويت، الندم والخذلان: "عدت من بغداد خرقة معصورة من خرق مسح البلاط" مرددةً ما حفظت عن أبيها "شُلّت يميني إذا نسيتك يا بغداد".

المنطقة الخضراء (2009):

يتعلق أمر المترجم في هذه الرواية لشاكر نوري بالعراق أيضًا إثر الاحتلال الأمريكي 2003، عندما تكاثر المترجمون بين قادم من الخارج مثل زينة، أو مقيم مثل الشخصية المحورية في (المنطقة الخضراء)، والمنطقة الخضراء كانت داخل مدينة بغداد، واشتهرت بالقصور الرئاسية وبأنها بؤرة النظام، وقد شغلت روايات عديدة منها "حارس التبغ" للعراقي علي بدر، و"جنود الله" للسوري فواز حداد. وفي رواية شاكر نوري يتكاثر المترجمون وفي رأسهم إبراهيم المملتئ بتاريخ العراق، الذي يقارن الاحتلال الأمريكي باحتلال "تيمورلنك" ثم حفيده لبغداد. وقد اضطر إبراهيم للعمل مترجمًا في الجيش الأمريكي تحصيلًا للقمة العيش، بعدما أغلقت مكتبته المتخصصة ببيع الكتب الإنجليزية. وحاز إبراهيم على ثقة الكولونيل "داوود" ومساعدته "بيتي" العراقية الأصل والمتفانية في عملها كمسؤولة عن أمن المترجمين، فكلف بترجمة الوثائق السرية إلى الإنجليزية. ودارت الشكوك حول إبراهيم جراء مقاومة أهل قريته للاحتلال، كما خطف المسلحون زوجته، لينتهي به الأمر إلى أن يفجر نفسه. ومع إبراهيم كان لنظرائه دور في الرواية، مثل المترجم مراد المولع بالسينما، والمترجم رشيد الموسوعي، والمترجم البراغماتي كامل، وفيفيان المترجمة التي عشقها إبراهيم، واسمها الحقيقي علياء. وقد تزوجا، وظلت متحجبة أثناء عملها كمترجمة. عندما وقع إبراهيم عقد العمل كمترجم، أمضّه الألم. ولما استقبله الكولونيل بعد التوقيع، حدثه عن إعادة الفرقة العراقية التي قاومت الاحتلال







الأمريكي للمنطقة الخضراء. وتحدث الكولونيل عن دفن الفرقة في مقبرة جماعية في المرآب، حيث كان والمترجم إبراهيم الذي همس: "يا إلهيّ هل إنني أمشي فوق قبورهم؟"

التشهي (2007):

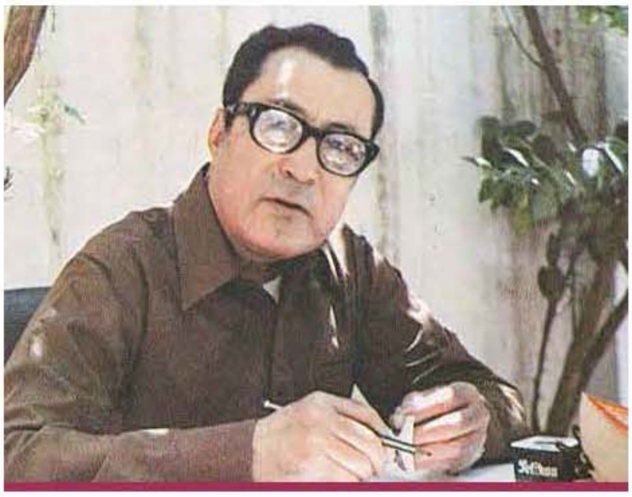
تتصل هذه الرواية لـ"عالية ممدوح" بالعراق أيضًا بعد الاحتلال الأمريكي، ولكن في نهايتها حين يعود المترجم الشيوعي "سرمد بدرالدين" من باريس، حيث أبعده أخوه "مهند" المسؤول المخابراتي ليتزوج حبيبته "ألف". وكان "سرمد" قد اكتشف في المنفى أن السمنة أتت على فحولته، فلجأ إلى صديقه منذ العهد بالجامعة الدكتور يوسف الذي أشرف على علاجه في المركز الخاص للتأملات الروحية. وفي مقام للجرأة ضد التابو الجنسي بخاصة، تجعل الرواية من عجز سرمد جنسيًا تعبيرًا عن عجز عميم في السياسة والثقافة، ولا يوفر العطب أحدًا من شخصيات الرواية. وبعودة "سرمد" إلى بغداد التقى "ألف" من جديد، وكان أخوه مهند قد اختفى.

في الجامعة تعلم "سرمـد" الإنجليزية، وفيها التقى الاسكتلندية "فيونا كنتون" التي تدرس في المعهد البريطاني في بغداد. وقد سعى "سرمد" خلف الشقراء الأربعينية كقروي بائس، وإن يكن بغداديًا. وإذ مضى خلفها أقلقه الخوف من أن يشاهده والده الجهم، أو شقيقه "مهند". وكان شبح اللغات الأجنبية يعكر مزاجه، وإن يكن يحب الإنجليزية، ولكن لا يحب الإنجليز. فالعلاقة الحارة الوثيقة التي انتسجت بين سرمد الذي يحلم بإتقان اللغة الإنجليزية، وبإكمال دراسته في بريطانيا، و"فيونا"، هي علاقة جسدية: هي محكوم عليها بالجنس، وهو، مقابل فيونا التي تشع "أزداد عتمة، فتركتها تترجمني على مهل".

لقد امتهن سرمد حرفة الترجمة، لكنها لم تكن سؤال حياته بقدر ما كان الجنس، شأن شخصيات الرواية. ومن اللافت أن الرواية قد تركت عبارات شتى بالإنجليزية دون ترجمة في الهامش كما يفعل آخرون من تونس والجزائر والمغرب بخاصة، وهو ما يدع سؤالًا آخر من أسئلة الترجمة، يظل معلقًا، وإن بدا أحيانًا هامشيًا.

المترجم الخائن (2008):

يفتح "فواز حداد" في هذه الرواية باب الخيانة في الترجمة على مصراعيه. فـ"حامد سليم" الذي منح الرواية عنوانها، مترجم دمشقي حوّر النهاية في ترجمته لرواية انجليزية،

فحلت عليه لعنة رواية حداد التي تضيق بدروس في الترجمة والنقد والفن الروائي، كما تعري الوسط الثقافي السوري في بؤرته الشامية، على وقع اجتياح العراق (2003) والانسحاب السوري من لبنان (2005) و... حيث يبدو المثقف الدمشقي ضحية، مقابل كومة الفساد في المثقفين القادمين إلى دمشق من الأرياف.

ول"حامد سليم" رؤية مختلفة لما تعنيه الترجمة ومعها القيم الفكرية والحضارية، وما تعنيه الثقافة والإبداع. وهو يبرر جريرته بأن النهاية الأصلية للرواية لا تناسب المجتمع. لكن الجريرة عادت عليه بالفصل من العمل. وترافق ذلك مع إخفاق زواجه، فبات وحيدًا.

يرى المترجم الخائن أن له الحق في إضافة أفكاره، بل وكلماته، إلى ما يترجم، لكأنه شريك في الكتابة، وليس مترجمًا - ناقلًا وحسب. وبالتالي، له أن يبدل في خاتمة الرواية، حيث أعاد الإفريقي من لندن إلى وطنه دون أن يتزوج الإنجليزية. غير أن الصحفي "شريف حسني" يفجّر فضيحة الترجمة الخائنة. وكان قد أخفق في اصطياد صديقه "حامد سليم" النجمة الإعلامية والمترجمة التي تصدت لجهل شريف حسني، حين ادعى أن فوكنر هو مؤلف روايتي (وداعًا أيها السلاح) و(لمن تقرع الأجراس)، وأن فوكنر شارك في الحرب الأهلية الإسبانية سنة 1936، فرمت المترجمة هذا الجاهل بجهله في التمييز بين فوكنر وهمنغواي مؤلف الروايتين، فحقد عليها وفجّر قنبلة الترجمة الخائنة بصديقها "حامد سليم"، حتى حوصر (المترجم الخائن)، واضطر إلى أن يكتب بأسماء مستعارة طلبًا للقمة العيش. وقد أورثه ذلك الانفصام، حتى أوشك أن يرتكب جريمة في نهاية الرواية.

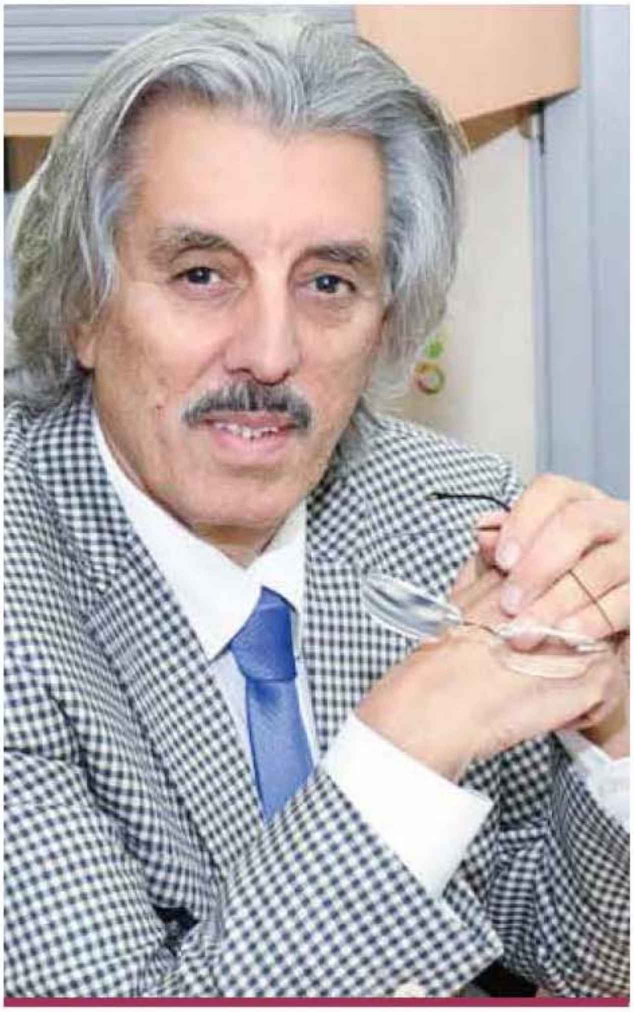
عشيق المترجم - نواقيس روما:

هاتان روايتان للكاتب الكردي السوري "جان دوست"، صدرت الأولى سنة 2014، والثانية سنة 2016، والروايتان بمثابة جزءين من رواية هي حفرية في التاريخ العثماني، إذ تعودان إلى القرن الثامن عشر، وتعرضان لحركة الترجمة زمن العثمانين، وتقدمان صورًا لحياة المترجمين بيسرها وعسرها. وتشتبك في الروايتين سيرة المترجم "محمد بن عشيق الدين الشركسي" من أنطاكية بسيرة المجتمع، بينما ترمق العين الروائية يومنا عبر ترهين الصراع الديني والتسامح.

وتكون البداية بتدوين الفتى "يونس بن إيبش الألباني" القادم من بغداد لسيرة الترجمان العجوز الذي حاول أن يكتب سيرته، فأخفق، لأن أصابعه تهرأت من اشتغاله في الترجمة - ومما ترجم كتاب الاعترافات للقديس أوجستين - ومرض النقرس أصابه.

في سنة 1706 ذهب "عشيق" مع ثلاثة فتيان مسيحيين من أنطاكية إلى روما، لتعلم الإيطالية واللاتينية، عملًا بنصيحة الراهب "بولس عبدالنور" الذي رافق الفتيان. وكان "عشيق" مولعًا باليهودية "إستر"، لذلك حاول التهرب. وكان أن قضى في روما ثمان وخمسين سنة، بدّل في مطلعها دينه ليتمكن من الزواج من المسيحية التي أحبها. ومن اللافت أن هذا التبديل قد تم على هون في دخيلة المترجم الذي قال عندما صار مسيحيًا: "قضيت عمري أمشي على دروب الحيرة، قضيته في التيه، قضيته في الانتظار المر للحقيقة المستحيلة، وفي ذلك التيه صار قلبي





يتسع للهلال والصليب معًا. لم يعد قلبي يعرف الكراهية". ومن قبل، منذ البداية، كان الراهب بولس المتعمق في الديانات، قد خاطب التاجر رشدي والد المترجم بقوله: "هل تعتقد يا رشدي أن الله بحاجة إلى جيوش جرارة وحروب وسفك دماء وأطفال يتامى ونساء أرامل وثكالى ورجال مفجوعين وشباب مذبوحين حتى تعلو كلمته؟".

يعاني المترجم العجوز وهو يملي سيرته من ارتباك ذاكرته وضعف نظره. لكن السيرة تأتي أخيرًا في روايتين، بل في رواية من جزأين، متميزة في تعدد اللغات بين الصوفية والإنجيلية والفلسفية، وبما أثثت به فضاءها وزمانها من أسماء النباتات والأدوية وأنواع الألبسة والأطعمة و.. وصولًا إلى "أطروحتها" التي تؤكد على دور الترجمة عبر التاريخ في التواصل بين الشعوب، وعلى أن تكون، بأية صيغة مباشرة أو غير مباشرة، حلقة الوصل بين الغرب والشرق، بين المسلمين أنفسهم، والعرب والقوميات الأخرى، وهل من غاية أكبر وأسمى للترجمة والمترجم؟

خاتمة:

لقد ذكّرتني روايتا العراقيين "إنعام كجه جي وشاكر نوري" برواية الإسباني "خابيير ماريّاس" (قلب أبيض جداً - ترجمة علي الأشقر 2011)، حيث الراوي هو مترجم فوري أو شفوي، يتصرف بما يترجم للمسؤول الإسباني في مباحثاته مع المسؤولة البريطانية، بينما تراقبه المترجمة لويسا التي يذهلها أنه يحذف ويضيف ويقود حديث المسؤولين كما يشاء: هل هذه هي (الترجمة الخائنة) بحسب التعبير الإيطالي الشهير؟

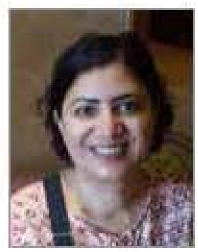
يعترف "ألبرتو مانويل" في كتابه "في غابة المرآة" بأنه عمد أحيانًا إلى حذف نعت، أو اقتطاع تشبيه، أثناء ترجمته لنص من الفرنسية إلى الإنجليزية. ويذهب مانويل إلى أنه ما من ترجمة بريئة في أي وقت، كما لا تستطيع الترجمة أن تكون محايدة، وقد يمارس المترجم الرقابة على كل سطر.

مقابل هذا الوجه للمترجم الخائن، يبرق الوجه الذي ألمح إليه "الجاحظ" منذ ذهب إلى أن الترجمان "لا يؤدي أبدًا ما قال الحكيم على خصائص معينة (...) ولا يقدر أن يوفيها حقوقها"، ففتح الجاحظ الباب لمن يدعو المترجم كما يدعو الكاتب إلى أن يكون خائنًا، ولكن ليس بالمعنى المبتذل، ليس بالرضوخ للرقيب الدولتي أو المجتمعي، مثلًا بل بالمعنى الإبداعي الذي يجعل المترجم الخائن كاتبًا: هل يكفي هنا أن أذكر "سامي الدروبي"؟



أربعة عمانيون في «تايلاند»

من «تشيانج ماي» إلى «بانكوك» وزيارة لقبيلة ذوي الأعناق الطويلة!



ريم داوود
سلطنة عمان

كان لزامًا عليّ الانتهاء من ترجمة كتاب وتقديمه لناشره، قبل أن أسافر في إجازتي الصيفية السنوية، ونظرًا لضغوط العمل الشديدة وضيق الوقت لم تسنح لي الفرصة لمجرّد التفكير في وجهتي أو التخطيط للرحلة.

حين انتهيت، كان علينا، شقيقتي الكبرى وزوجها وابنتها التي تصغرني بأعوام قليلة، وأنا، أن نقرر وننتهي من جميع الإجراءات خلال أسبوع على الأكثر. بعد تفكير سريع، وجدنا أن تايلاند هي الأسهل، وبخاصّة أنها لا تحتاج لتأشيرة دخول، إذ يتم الحصول عليها عند الوصول، كما أنها الأكثر مواءمة لأذواقنا جميعًا.

إن لم تكن محبًّا للصخب، فستغادرها سريعًا

هنا يقرأون الطالع بطريقة الـ«تارو»



في زياراتنا السابقة، كنا نحرص - إلى جانب المـرور بالعاصمة "بانكوك" - على زيارة أي جزيرة أو مدينة ساحلية، للاستمتاع بالبحر والشواطئ، مثل "كو ساموي" و"بوكيت". هذه المرة، قررنا الذهاب إلى "تشيانج مـاي"، المدينة الجبلية المعروفة بـ"وردة الشمال"، لثلاثة أيام، تتبعها ثلاثة أخرى في "بانكوك"، ونختمها بأربعة أيام في مدينة "دبي".

انتابتنا الحيرة في بداية الأمر عند اختيار الفندق الـذي سنقيم به في "تشيانج ماي"، فالخيارات كثيرة ومتنوعة. قرأنا قليلًا عن المدينة، فوجدنا أن أشهر ما يميّزها هو السوق الليلي (أو ما يُعرَف بـ"النايت بازار") وبناءً على تلك المعلومة اخترنا فندقًا يبعد عنه بدقائق قليلة، سيرًا على الأقدام. المسألة في "بانكوك" كانت مختلفة تمام الاختلاف، فالفنادق الجيدة والقريبة من الأسواق والمزارات السياحية مشغولةٌ بالكامل. نجحنا، بصعوبة، في حجز غرفتين في فندق تابع لمركز "سنترال وورلد"، الذي يحتل الموقع الحادي عشر في قائمة أضخم مراكز التسوق في العالم.

كنا نغالب النوم، حين غادرنا "مسقط" فجرًا، لنصل "بانكوك" بعد نحو سبع ساعات. عقب وصولنا المطار، يختفي زوج أختي فجأة. نبحث عنه، ويبحث عنا لنحو ساعة كاملة، أو يزيد. نسأل إحدى الموظفات عن إمكانية توجيه نداء له، فتعتذر لأن النداءات مخصصة للإعلان عن قيام الطائرات ووصـول الرحلات فقط. نواصل البحث إلى أن نجده. نتوجه إلى فندق أنيق تابع للمطار، نبيت فيه ليلتنا، على أن نغادر صباح اليوم التالي إلى "تشيانج ماي".

تهبط طائرتنا في مطار "تشيانج ماي" بعد ساعة تقريبًا، وكما في كل مكان في تايلاند، تحيط بك الوجوه المبتسمة من جميع الجهات. نصل الفندق الذي تزين حديقته الأمامية أفيال بيضاء بديعة، موزعة على جانبيّ الدَرَج المؤدّي للمدخل. النافذة الرئيسية لحجرتي أنا وابنة أختي تطل على بنايات ملونة مبهجة، وبيوت بيضاء لطيفة بأسقف من القرميد الأحمر، تحتضنها جميعًا جبال خضراء يظللها ضباب خفيف. جزءٌ من الشارع أمامنا يحتله مطعم يحمل اسم "الريم"! ضحكنا للمفارقة، وقمنا بتصويره للذكرى.

نستريح قليلًا، ونـذهـب مـساءً إلى السوق الليلي. الشارع الذي كان خاويًا وهادئًا عند وصولنا قبل ساعات، امتلأ فجأة بالباعة، بطول الرصيفين المتقابلين. ملابس، ومفروشات، وتحف، ولوحات، ومشغولات فضية، واكسسوارات، وفاكهة



مقشرة ومقطعة في أكواب من البلاستيك الشفّاف. شوارع جانبية ضيقة تؤدّي إلى ساحات متسعة بها مطاعم للوجبات الخفيفة و"بارات"، بعضها مخصص للغناء بطريقة الـ"كاريوكي".

الأضواء هنا تومض وتنطفيء بألوان وردية وزرقاء وخضراء. إن لم تكن محبًّا للصخب، فسوف تغادرها - مثلنا - سريعًا.

عائدين للأرصفة والباعة وبضائعهم الجذّابة نلمح منضدة جلس وراءها رجلٌ مُسِنّ يتناول عشاءه متمهلًا، ويرمق المارّة بابتسامة. أمامه أوراق "كوتشينة"، ولوحة يعلن فيها بالإنجليزية أنه يقرأ الطالع بطريقة الـ"تارو". تنكزني ابنة أختي، وهي تومىء إليه، وتضحك باستمتاع، ساخرةً من هوسي المعروف بـ"التارو"! أشاركها الضحك، وأخبرها بأنني أفضّل استخدام هذه الطريقة "أون لاين"، كما اعتدت.

السائحون الأسبان والصينيون لهم الغلبة هنا. منتشرون في كل المطاعم والمقاهي والأسواق، من جميع الأعمار.



ندخل محلًا يبيع الأحجار الكريمة وشبه الكريمة. يتهلل وجه صاحبه لرؤية أختي وابنتها المحجبتين، ويبادرنا بالتحيّة:

- السلام عليكم.

الرجل أفغاني، كما يخبرنا لاحقًا. يجرّ كرسيًا ويقدّمه لزوج أختي. يتبادلان حوارًا طويلًا، فيما نختار قطعًا من معروضاته. ألاحظ أنه يتجنب النظر إليّ. حين أذهب إليه لأدفع ثمن مشترواتي، يسألني باستياء بالغ:

- كيف تكونين مسلمة ولا ترتدين الحجاب يا أختي؟!

أفهمه بأن عدم ارتدائي الحجاب لا ينفي كوني مسلمة. ينظر إليّ بغيظ، ولا يجيب. نمرّ به في اليوم التالي، ينظر إليّ بامتعاض، ثم يشيح بوجهه عني.

نتفق على جولة صباحية لليوم التالي. نحذف منها زيارة "مركز الأفيال"، الذي سبق لنا رؤية أماكن شبيهة به في تايلاند نفسها وفي الهند وسريلانكا. يمرّ بنا السائق في الموعد المتفق عليه، ويخبرنا بأنه سيأخذنا أولًا إلى قرية "قبيلة الأعناق الطويلة".

قبيل العاشرة، نصل إلى مكان هادىء تظلله الأشجار. نقطع أربع تذاكر، وندخل سيرًا على الأقدام. نمشي في طريق ترابي تصطف على جانبيه أكواخ خشبية







مبنية على قوائم مرتفعة، صُنِعت أسقفها من القش. أغلبها خاوٍ. يبدو أننا ذهبنا في ساعةٍ أبكر من المعتاد بالنسبة لهم. أغلب مَن في المكان إناث، من مختلف الأعمار. الشابات والعجائز يلبسن الأزياء التقليدية، أما الطفلات الصغيرات فيرتدين فساتين وبيجامات تزينها أميرات "ديزني". الوجوه نظيفة ولامعة، وحدهن البنات الصغيرات يصبغن وجوههن بمساحيق تجميل فاقعة. جميعهن يضعن حول رقابهن أطواقًا معدنية متعددة، لإطالتها، وهي سمة جمالية بالنسبة لهذه القبائل. بعض العجائز يكتفين بطوق واحد حول الرقبة، وعدد كبير من الحلقات النحاسية أسفل الركبتين وحول الكاحلين. يبدأن بالتوافد على الأكواخ، فنرى الشابات والصغيرات منهمكات في غزل الخيوط ونسج الأقمشة الملونة، بينما العجائز يقمن بالتطريز. الأكواخ عبارة عن دكاكين لبيع منتجاتهن، بالإضافة إلى الحقائب القماشية والتماثيل





الخشبية، والمحافظ المطرزة. الحقيقة أن الجوّ العامّ في المكان مُقبِض، والوجوه بائسة، ومنظر الصغيرات بتلك الأطواق المحيطة بأعناقهن يؤلم النفس، وفكرة أن تدفع مالًا للفُرجة على بشرٍ آخرين مُهينةٌ للطرفين في رأيي. تقاسمنا جميعًا المشاعر ذاتها، فغادرنا المكان بعد جولةٍ سريعة.

يأخذنا السائق بعدها إلى "حديقة الأوركيد". بجوار شبّاك التذاكر، تستقبلنا فتيات لطيفات يشبُكن زهرة أوركيد على صدر كل زائر. الحديقة الصغيرة بالغة النظافة والترتيب. بها أزهـارٌ متنوعة إلى جانب الأوركيد، وتمتلىء بالفراشات المبهجة.

نمرّ في طريقنا بمتجرٍ ضخم يبيع منتجات من الفضة. المكان مزدحم بالسيّاح، وبخاصّة الصينيين. المعروضات متنوعة تناسب جميع الأذواق دون شك. يقع بجواره متجرآخر لمنتجات الحرير. يأخذوننا في جولة أولًا تشرح لنا فيها إحدى الموظفات مراحل إنتاج الحرير





من بداية تغذية دود القزّ بأوراق التوت، حتى صباغة الخيوط ونسجها كأقمشة رقيقة. تصطحبنا موظفة أخرى بعدها في أرجاء المحل، الذي يبيع منتجات مختلفة من ملابس وحقائب واكسسوارات ودمى للأطفال، مصنوعة جميعًا من النسيج بالغ النعومة.

عند العصر تنهمر الأمطار بغزارة. نتناول غداءً خفيفًا داخل الفندق، ونتابع المطر في حديقته. مساءً، يعود الجوّ صحوًا، فنتجول من جديد في السوق القريب. نلمح عدّة محلات متجاورة، مخصصة لتدليك الأقدام. ندخل أحدها ونستلقي على مقاعد وثيرة، فيما تقوم العاملات بتدليك أقدامنا المتعبة بزيوت ومراهم ذات روائح نفاذة.

صباحًا، نسأل موظفي الفندق عن أفضل مركز تجاري، يمكننا شراء الهدايا والتذكارات والكتب منه. فيخبرنا بأن للفندق سيارة مخصصة للنزلاء، تحملهم إلى المراكز التجارية، تمرّ تمام كل ساعة. جلسنا ننتظرها، وفوجئنا أنها ليست سيارة بالمعنى المعروف، وإنما أقرب

محلات لتدليك الأقدام بزيوت عجيبة

لـ"بوكس" الشُّرطة، الذي نراه في الأفلام العربية، حين يتم إلقاء القبض على المجرمين! التجربة ظريفة ومختلفة، دون شَكّ. ركب معنا عدد من الصينيين المُسِنّين، من نزلاء الفندق. أصرّوا على تبادل الحديث معنا، رغم إلمامهم المحدود باللغة الإنجليزية. كان الحوار غريبًا، تخللته الكثير من الضحكات، بيننا جميعًا.

ظهيرة اليوم التالي نغادر "تشيانج ماي"، متجهين إلى "بانكوك". نتجول في المطار، حتى موعد الطائرة. نلمح مكتبة السوق الحُرّة. تنادينا الكتب، كالعادة، فندخل ونبتاع عددًا من الإصدارات الإنجليزية. الكتب هنا، بشكلٍ عامّ، أرخص بكثير من

الهنود هنا أباطرة الأقمشة والخياطة

مثيلاتها في العديد من الدول الأخرى.

نصل فندقنا في "بانكوك". أول ما يلفت نظرنا هو اللافتات المعدنية الموزعة في أرجائه، وبخاصّة بالقُرب من المصاعد، والتي توضّح أن فاكهة الـ"دوريان" ـ ذات الرائحة المزعجة ـ ممنوعةٌ تمامًا في المكان. بالإضافة إلى تعليمات تخصّ الملابس التي يجب عدم ارتدائها في مطاعم الفندق، وهي السروال القصير (الشورت) والـ"فانيلات" الداخلية، والشباشب المصنوعة من المطّاط. صباح اليوم التالي، وبينما نتناول إفطارنا، نلاحظ أن أغلب النزلاء، من الموجودين في المطعم الفسيح، يلبسون هذه الثياب تحديدًا! بل إن بعضهم قرر أن الزيّ الأنسب للإفطار هو البيجامة، فأتى بها، دون اكتراث.

نتفق جميعًا على أن نخصّص زيارتنا القصيرة لـ"بانكوك" للتسوّق، هذه المرّة، إذ كنا قد زرنا العديد من المعابد والمعالم السياحية في زيارات سابقة. نضع قائمة بكل ما يحتاجه كل منا، ونقرر بناءً عليها الأسواق التي سنذهب إليها.

في كل مكان، تقابلنا الوجوه الخليجية.



لافتات بعض المحلّات مكتوبة باللغة العربية، وتعلوها عبارة "أهلًا وسهلًا". يحمل عدد منها أسماء خليجية. فور دخولنا أحد المراكز التجارية، تطالعنا لافتة "محل القبقب"! هكذا كتب أصحابه عليه (والقبقب باللهجة الخليجية هو الكابوريا أو السلطعون).. وزيادةً في تأكيد المعنى، يزيّن اللوحة رسم لـ"قبقب" ضاحك. نمرّ أمام متجر للمصنوعات الجلدية. تقف البائعة أمام مدخله، تعلّق على ذراعيها عددًا من الحقائب الملونة. ترسم ابتسامة عريضة على شفتيها، وتنادي زبوناتها بلهجة خليجية سليمة:

ـ شنط وايد حلوة مدام! تعالي شوفي!

الهنود هنا ـ كما في الكثير من الأماكن ـ هم أباطرة الأقمشة والخياطة. يبيعون أجود الأقمشة الحريرية والقطنية والصوفية. ما عليك سوى اختيار النوع واللون والتصميم، وسيتولون هم تفصيله لك كبدلة رجالية أو نسائية، يسلمونها لك خلال 24 ساعة فقط. إن عرفوا أن وقتك لا يسمح بالمرور بهم ثانيةً لاستلام ملابسك، فإنهم يقومون بتوصيلها للفندق الذي تقيم فيه. المشكلة الوحيدة في هذه الدكاكين هي اضطرارك للمساومة والجدل والفصال، لوقتٍ طويل، قد تتخلله أكواب من الشاي الساخن والابتسامات، ومحاولات الإقناع بأن السعر مثالي، وأنك لن تجد مثله أبدًا. إن كنتَ ترغب في امتلاك بدلة أنيقة، فما عليك سوى التسلّح بالصبر، قبل المرور بهم.

مشروبات بالجبن.. ومطاعم يابانية تجتاح «بانكوك»!

في كل يوم، نفترق على أن نلتقي ظهرًا في مطعم محدّد نتفق عليه، لتناول الغداء. بعده، نفترق من جديد، ونتقابل ثانيةً في تمام الخامسة لشُرب الشاي والقهوة معًا.

مواصلة اتباع نظام غذائي (ريجيم) هنا ضربٌ من الخيال، فحتى الحلوى التي لا أميل لها عادةً، جذّابة جدًّا. لا أملك إلا الاستئذان من موظفي المخابز والمقاهي لتصوير تلك القطع الجميلة من الكيك والجاتوه، المُشكّلة على هيئة حيوانات ظريفة، مثل الدببة والأرانب، فيرحّبون بابتساماتٍ ودودة.

في بعض المراكز التجارية تنتشر مقاهٍ ومطاعم لتقديم منتجات الأجبان فقط. في هذه الأماكن، يقدّمون المشروبات بالجبن، ويضعون صُوَرًا إعلانية كبيرة لها. يبدو أن الفكرة جديدة، ولم تجتذب الكثيرين بعد. لا أتحمس أنا نفسي لتجربة "شاي الجبن"، لكنني أحرص على تصوير الإعلان الضخم. أغلب الزبائن يكتفون بتناول شطائر ساخنة من الجبن الذائب.

الظاهرة اللافتة للانتباه في "بانكوك"، هذه المرة، هي انتشار المطاعم اليابانية بكثرة. قد تقابل العشرات منها في اليوم الواحد. إن لم تكن تستسيغ هذا المطبخ، فإن الخيارات الأخرى باتت محدودة، وتنحصر في المطاعم الإيطالية والسلاسل العالمية للوجبات السريعة.

في كل يوم، وعند عودتنا للفندق مساءً، نجد رسالة من مسؤول النظافة. يكتبها بالإنجليزية، بخطّ منمّق. يتمنى لنا فيها ليلة جميلة وأحلامًا سعيدة. يترك لنا معها هدايا بسيطة مثل الفواصل الورقية المخصصة للكتب (بُوك مارك). يوقّع رسائله باسم "مستر جو".

صباح مغادرتنا، يأتي لتوديعنا والتعريف بنفسه، مبتسمًا:

ـ أنا "مستر جو"

شابٌ صغير، على قدر من الوسامة. نشكره على هداياه وأمنياته الطيبة.

ونحن في طريقنا للمطار أدرك أن السياحة ليست مجرد أماكن جميلة فقط، بل هي فوق ذلك مزيج من الخدمات المريحة للزائر، والتعامل اللطيف، وكلها أمور تجتمع في "تايلاند" على الدوام.



في مسقط رأس الحضارة الغربية ومهد الأولمبياد

اليونان..
جوهرة في قلادة تتدلى جنوب أوروبا



ليلى عبدالمنعم

وقفت على حقيقة ما قرأت أو سمعت عن بلاد اليونان ذات الإرث الحضاري العريق، في نسيجه الأسطوري أحيانًا، منذ أن أوفدت في السبعينيات، في مهمة علمية، إلى هذه البقعة من القارة الأوروبية. فمن هناك فقط أدركت أنني في سبيلي إلى تجاوز مرحلة القراءة والخيال لألامس الواقع المرئي والمحسوس.

نعم إنها اليونان، مسقط رأس الحضارة الغربية، قبلة يؤمها السائحون إعجابًا بآلهتها الأسطورية، أو لكشف أسرارها القديمة، وما أكثرها.



تمتد جذور حضارتها إلى عمق التاريخ. فمن هناك، من جنوب القارة الأوروبية، استوعبت ما وقع تحت بصري مما قرأته وأورده المؤرخون والجغرافيون والشعراء القدامى من أخبار تلك البلاد وأوصاف شعوبها، فضلًا عن ثقافتهم الماضية والحاضرة.

نعم إنها اليونان، الواقعة جنوب شرق القارة الأوروبية، على رأس شبه جزيرة البلقان. تتربع على عرش الحضارة الغربية، ومهد حضارتها. تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، والواقع بالأسطورة.

من داخل أثينا، العاصمة، انطلقت رحلتي نحو رموز الحضارة اليونانية بماضيها وحاضرها. فإن شئت أن أتحدث عما وقع عليه بصري هناك، فلن تكفيني ساعات من الزمان، وإن أردت أن أكتب فقد سبقتني الأقلام وكتب التاريخ.

هي بلاد تنفرد بطبيعتها المتنوعة، تحتضنها جبال شاهقة من كل مكان، وتنتشر بين أرجائها الوديان والتلال والهضاب. ومع أنها جبلية وأرضها صخرية، فهي في مجموعها بحرية تبدو كجوهرة في قلادة تتدلى جنوب أوروبا. متوغلة في البحر الأبيض وسط جزر متناثرة هنا وهناك، وكأن البحر يفتح ذراعيه مرحبًا بالملاحين الذين غزوه ذات يوم مغامرين، متطلعين إلى بناء الأساطيل العظيمة، وتكوين الإمبراطوريات، أحداث تغنى بها الملهمون من الشعراء حين نظموا الملاحم التاريخية الخالدة التي تصف المغامرات البحرية لهؤلاء الملاحين المغامرين الذين خلدتهم أساطير "هوميروس".

نعم إنها اليونان، ابنة الجبال التي تربع على عرشها في يوم من الأيام "زيوس" كبير الآلهة ورب الأرباب، وفيها فتنت "أفروديتي" بجمالها الرجال. ابنة الأسطورة التي طالما سلبت العقول واستحوذت على الألباب عندما عزف "هوميروس" على قيثارته أعذب الألحان. صعدت فيها الآلهة إلى جبل "الأوليمبوس" أعلى قممها، ومعقل آلهتها.

توقفت أمام هذا الجبل العملاق صامتة متأملة وهو يكاد -من فرط ارتفاعه- أن

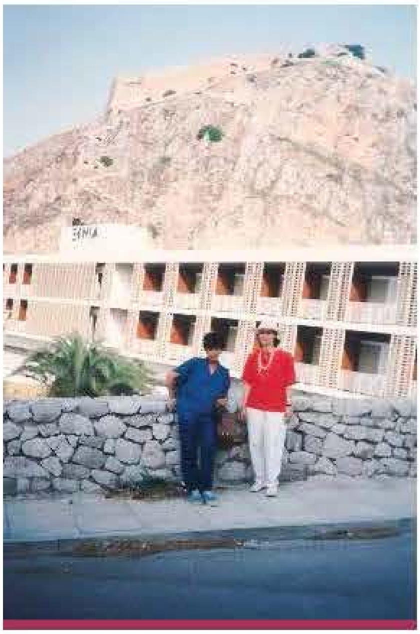


يحتضن السحب ويلامسها، وسرعان ما استدعيت ما لديّ من مخزون أسطوري نسجه الشعراء الملهمون حول "زيوس" بوصفه كبير آلهتهم، الجالس فوق قمة عرش الجبل يحكم البشر وباقي الآلهة.

كان هذا الجبل المقدس، وكما تروي الأساطير، معقلًا للآلهة القابعة في قصرٍ كبير يقع فوق هذا الجبل، وهو قصر الإله الأكبر "زيوس"، في منطقة أطلقوا عليها اسم منطقة "ثاليا"، التي تعني باليونانية "تفتح الأزهار".

كان يقوم على حراسة هذا القصر أربعة أشخاص، ابنتان لزيوس وامرأة أنجبت منه ابنان. كما كانت ربات الفصول، في اعتقاد البعض الآخر، هي التي تقوم بحراسته.

أمام كل هذه الروايات المتباينة الممزوجة بالخيال الأسطوري، المرتبطة بالأيقونة الواقعية التي فرضتها طبيعة المشهد أمامي، وحددت ألوانها، توقفت معلنة عجزي عن فصل خيال الشعراء



عن الواقع المرئي. وإذا بي أحلق بعينيّ إلى أعلى، محاولة استباق هذا الجبل الشاهق في التحليق فوق السحاب، لأراه مكسوًّا بثلوج جليدية ترتفع مع ارتفاع الجبل الذي يبلغ ما يقارب ألفين وتسعمائة وتسع عشرة قدمًا.

نعم إنه الجبل الذي حكمت من فوقه الآلهة وحددت مصائر البشر. وعزف "أبولّو" على قيثارته أجمل الموسيقى والألحان.

"الأكروبوليس"

ومن فوق جبال "الأوليمبوس" الشاهقة ننحدر صوب إحدى التلال وسط العاصمة اليونانية "أثينا"، إلى "الأكروبوليس"، أحد المعابد اليونانية ومن أهم معالمها. تلك الهضبة الصخرية العالية التي ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار مائة وخمسة وثلاثين مترًا على وجه التقريب. رمز عالمي للحضارة اليونانية والروح الكلاسيكية.

يمثل "الأكروبوليس" أكبر تجمع معماري فني تركه اليونانيون القدامى، أشرف على تصميمه وبنائه مجموعة استثنائية من الفنانين اليونانيين القدماء من أشهرهم "بيريكليس". ومن بين جميع معابد المدن اليونانية القديمة، كان للأكروبوليس في أثينا الشأن الأعظم حين



اتخذوا منه قاعدة حصينة ضد الغزاة، فضلاً عن قيمته وأصالته الروحانية.

مسرح "إبيداوروس"

ولم تخلُ جولاتي في بلاد اليونان من التردد على مسارحها العريقة التي طالما اكتظت بالجمهور لمشاهدة أساطيرهم المتنوعة في ثوب درامي تراجيدي، فتوجهت إلى واحد من أكثر المسارح شهرة وعراقة، إنه مسرح "إبيداوروس" الذي يتردد عليه السياح حتى الآن من كافة أرجاء العالم لمتابعة العروض الصيفية التي تعرض المسرحيات الكلاسيكية اليونانية باللغة اليونانية الحديثة.

هذا المسرح الأثري تم بناؤه في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد جرت العادة أن تقام فيه أجمل حفلات الأوبرا فضلًا عن العروض المسرحية الأخرى. ويتسع هذا المسرح لقرابة اثني عشر ألفًا من الجمهور، وفيه تقدم العروض الكلاسيكية اليونانية بين شهري يونيو وسبتمبر المصاحبة للمهرجانات والعروض الغنائية الرائعة. كما تعتبر شروطه السمعية الأفضل في العالم، فلقد تعمدت الوصول إلى موقع الأوركسترا في هدوء لإلقاء عملة نقدية للتأكد من وصول الصوت إلى كافة أرجاء المكان. والمدهش أن مصممي بنائه المعماري توصلوا مبكرًا إلى طريقة لإسماع جميع النظارة كل ما يدور عند الأوركسترا.

صادف هذا التوقيت عرض "مأساة أوديب"، عايشت أحداث المأساة وشخوصها أسطورية الأصل منذ تنبؤ الآلهة لأوديب بقتل أبيه وزواجه من أمه، وصولًا إلى ذروة المأساة عندما يكشف وحي الإله "أبولّو" في "ديلفي" أمر أوديب، ويبوح بسره إلى "تيريسياس" العراف. وتختتم المأساة بعقاب "أوديب" نفسه بفقء عينيه.

قوبل الممثلون بحفاوة وتصفيق حاد يصل إلى نهاية مدرجات المسرح، كما قوبل المخرج بترحيب ملأ فضاء المكان لحسن إدارته للحدث وقيادته الممثلين، فضلًا عن حسن اختياره لديكور العرض المسرحي وإضاءته.

زيارتي لمسرح "ديلفي"

ومن "إبيداوروس" إلى "ديلفي" اليونانية القديمة حيث وحي الإله "أبولّو"، بإطلالته الرائعة على المناظر الطبيعية أدناه. لم يكن بالإمكان الانصراف عن هذا المكان دون تأمل المسرح المدرج الذي لا يقل أهمية عن مسرح "إبيداوروس". وقد بُني في "ديلفي" أعلى التل من معبد "أبولّو" لإعطاء المتفرج بانوراما للمحمية الطبيعية، وإطلالة رائعة على المناظر الطبيعية الخلابة أدناه.

مدينة "أوليمبيا"

ومن الجبال والمعابد والمسارح في بلاد الإغريق إلى الألعاب الأوليمبية القديمة





التي تُعتبر من أشهر الدورات الرياضية في التاريخ القديم. سميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة "أوليمبيا" اليونانية، مركز عبادة الآلهة. بدأت عام 776 قبل الميلاد، وكانت تقام كل أربع سنوات، وتدوم سبعة أيام على التوالي على شرف "زيوس" كبير الآلهة، وزوجته "هيرا". وليس خافيًا على أحد أن الألعاب الأوليمبية الشهيرة قد بدأت في اليونان، إلا أن قلة منهم يعرفون أنها بدأت قبل ألفين وسبعمائة عام.

لذا فإن زيارتي لمسقط رأس الألعاب الأوليمبية كانت بالنسبة لي -على الأقل- أمرًا لا بد منه.

تبدأ قصة الألعاب الأوليمبية بملك إغريقي أدرك أن المباريات الرياضية وحدها كفيلة بإنقاذ بلاد اليونان من حرب أهلية. فبدأ بإدخال طباخه الخاص في مسابقة للطهي فاز بها، لتتولد بذلك فكرة الألعاب الأوليمبية. كان سباق الجياد والعربات ضمن الألعاب التي تمارس في تلك المناسبة، إلا أنها كانت قاصرة على الأثرياء وحدهم، إذ كان على كل من المتسابقين أن يملك جوادًا خاصًا به.



كما مارسوا الألعاب الخماسية التي تتألف من: العدو، والقفز الطويل، والرماح، ورمي القوس، والمصارعة.

وجدير بالتنويه هنا أن الفائز في إحدى تلك الرياضات لم يكن يحصل على الميدالية الذهبية أو الفضية التي يحصل عليها الفائز الآن، بل كان غصن الزيتون هو الجائزة التي تمنح للفائز آنذاك. وما زالت روح هذه الألعاب التي توحد بين البشر من كافة أرجاء العالم تطل علينا حتى الآن، حيث تشتعل الشعلة كل أربع سنوات، وكأنها تصل الماضي بالحاضر.

حي "بلاكا"

استغراقي في الماضي لم يصرفني عن



الحاضر، حيث الحضارة المتصلة التي يتناسج فيها الزمنان، وتتلاحم فيها العادات والتقاليد. فلم يكن حي "بلاكا" التاريخي بأثينا، الذي كنت دائمة التردد عليه في العطلات الأسبوعية ببعيد في كلاسيكيته عن معالم الحضارة اليونانية القديمة.

يقع هذا الحي أسفل جبل "الأكروبوليس"، ويضم العديد من المباني الكلاسيكية، فضلًا عن المطاعم التي طالما ترددت عليها لمعايشة الفولكلور اليوناني أثناء تناول وجباتهم الشعبية، مما كان يضفي على المكان دفئًا له طابع خاص.

جزيرة "سبيتسيس"

وأخيرًا، عندما قاربت على الانتهاء من مهمتي العلمية، قررت أن أرتمي بين أحضان الجزر والريف اليونانيين. فوقع اختياري على إحدى الجزر التي لا تبعد كثيرًا عن "أثينا"، قياسًا بالجزر الأخرى مثل: "كريت" أو "ساموس".

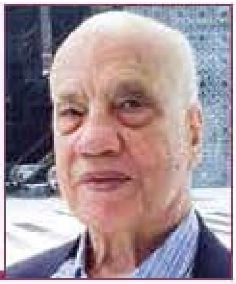
إنها جزيرة "سبيتسيس" التي تقع على بعد 54 ميلًا بحريًا فقط من "أثينا"، وتعتبر جزيرة مهيبة داخل خليج "أرجوساروذيكوس"، ذات تقليد بحري وتاريخ غني وثقافة مميزة، جوهرة الهدوء، كما يطلق عليها اليونانيون، تقع قبالة ساحل "البلوبونيز"، وتطل شواطئها على البحر الزمردي الذي يتردد عليه هواة الغوص. وتتميز هذه الجزيرة بخلوها من السيارات، وتنتشر بها العربات التي تجرها الخيول، مما يضفي عليها طابعًا خاصًا يميزها عن باقي الجزر اليونانية.

ضاحية "كرانيذي"

ومن جزيرة "سبيتسيس" اصطحبتني بعض الصديقات من ذوات الجذور الريفية إلى موطنهن الأصلي في قرية صغيرة تدعى "كرانيذي"، وهي تقع في مقاطعة "أرجوليس" ولا تبعد كثيرًا عن الجزيرة، لم يتجاوز عدد سكانها آنذاك خمسة آلاف نسمة. كانت "كرانيذي"، شأنها شأن باقي الضواحي الريفية هناك، عبارة عن بيوت صغيرة متلاصقة، تأخذ مكانها فوق تل صغير، وكلها مبنية من الحجر، وتتميز بتباين ألوانها، وشوارعها الضيقة المتناهية الصغر، تحيط بها زهور وحدائق تسترق الأنظار.

في هذه القرية الصغيرة أمضينا الكثير من الأمسيات نتجاذب أطراف الحديث عن أبطال الأساطير، ونردد أبياتًا من أشعار "هوميروس"، أو تؤدي إحداهن أحد المشاهد الكوميدية من أعمال "أريستوفانيس".

ثم نختتم الأمسية برقصة شعبية على أنغام الأناشيد الفولكلورية اليونانية، تتداخل معها أحيانًا، في انسيابية، بعض النغمات الحديثة التي كانت تفرض علينا واقعًا جديدًا تتماس فيه العراقة مع الحداثة، فما تبقى حضارات أو شعوب إلا بالتجديد والإبداع.



عبدالرشيد محمودي
لندن

وفاته حرمتني متعة تناول فنجان القهوة معه

أيام لن تتكرر في لندن مع جلال أمين

من عادات الإنجليز الحميدة أنهم عند تأبين موتاهم والتعبير عن أساهم أنهم يطبقون قاعدة «اذكروا محاسن موتاكم»، ولكن بطريقة قد تختلف شيئًا ما عما ألفناه. فهم لا يفوتهم عند ذكر محاسن الفقيد العزيز أن يستدعوا بعض الذكريات الطريفة أو المضحكة عنه. وإذا كان التأبين في الكنيسة، فإنهم قد يذيعون مقطوعة موسيقية أو أغنية مما كان يحب. ويرحل المؤبنون والمعزون وفي قلوبهم قدر من راحة التعزي. لقد أدوا الواجب نحو الفقيد وأوفوه حظه من الثناء وأبرزوا إنسانيته. وربما عادوا إلى بيت الفقيد وتناولوا شيئًا من الطعام
وتناول الطعام بعد رحيل الفقيد والتعبير عن الأسى على فراقه عادة قديمة. نجدها في هوميروس، وهي توجد أيضا في ريفنا المصري. فما دلالة هذه العادة؟ ربما كانت جزءا من محاولات للتعزي، والتأكيد بعد ذرف الدموع على أن الحياة مستمرة وينبغي أن تستمر رغم كل شيئ. وهو إذا صدقنا الفيلسوف الألماني هيدجر نوع من عمل الجماعة (ما يسميه «الهُم») على التغطية على موت الفرد وصرف الأنظار عنه بوصفه مصيرًا لا يشاركه فيه أحد وجزءًا من صميم وجوده الذي هو أساسًا وجود نحو الموت. وهو عمل يعبر عنه مَثَل نردده: «الحي أولى من الميت».

لقد وقع عليّ نبأ رحيل جلال أمين كالصاعقة، وأجد أن أساي عليه مستقر في أعماقي وله ثقل ووطأة. ولكن ينبغي ألا يستأثر الحزن بي. ينبغي أن أذكر ما كان يشيعه من بهجة في صحبة أصدقائه وأينما وجد. والواقع أنه كان ينتمي بقدر ما أعلم لأسرة معروفة بحسها الفكاهي. وأقول: «بقدر ما أعلم» لأنني لم يتح لي أن أعرف أحمد أمين إلا عن طريق كتاباته أو أن أعرف جميع أفراد الأسرة الكريمة. ولكنني عرفت أخوين له:- حسين وحافظ - وكان كلاهما على درجة عالية من الحس الفكاهي، وحب النكتة، وذلك بالإضافة إلى الولع بالأدب والثقافة. وأنا أتخيل أن أبناء أحمد أمين عندما كانوا يجتمعون تدور بينهم أحاديث شيقة، ويتبارون في التعبير عن مواهبهم في مجال الفكاهة الذكية، وتعلو قهقهاتهم. فأقول لنفسي: كم كان جلال سعيد الحظ لأنه نشأ في تلك البيئة الجميلة.

ومن الغريب أن أبناء أحمد أمين كانوا قادرين على النظر إلى أبيهم من مسافة، وبعين لا تخلو من الفكاهة. وصورة الأب كما رسمها حسين (في كتابه «في بيت أحمد أمين») وجلال (في سيرته الذاتية) ترينا بوضوح أن أحمد أمين الكاتب كان يتميز بسعة الأفق والاستنارة، في حين أن أحمد أمين رب البيت يشبه إلى حد ما شخصية سي السيد كما رسمها نجيب محفوظ في الثلاثية.

ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأن أحمد أمين نجح نجاحًا رائعًا في تربية أبنائه. وذلك أن شدة بأسه وسطوته لم تنل من قدرتهم على الازدهار والتفتح، بل إن من المؤكد أن الرجل شجع أبناءه على حب المعرفة واستقلال الشخصية ويدل على ذلك نجاحهم جميعًا، كل في مجاله، وكل وفقًا لأسلوب خاص به. وقد ساعدت تلك الخلفية الأسرية جلال على تنمية مواهبه واستعداداته. ومن ذلك أنه كان في الأساس مطمئنًا إلى أنه «ابن ناس»، وأنه جاء من أسرة مثقفة، وكان يتصرف بناء على ذلك. كان دمثًا ولبقًا ورقيق الحاشية وودودًا ومقبلًا على الحياة باعتدال. كان قادرا على الاستمتاع بملذات الحياة البسيطة، واستقبال الدنيا بوجه باسم. صحيح أنه كان يبدو في بعض الأحيان متجهمًا عبوسًا، ولكن كانت تكفيه كلمة طريفة من جليسه ليتبدد ذلك المظهر في غمضة عين كأنه سحابة صيف وتبدأ النكات وتعلو القهقهة. فكأن جلال كان يشعر في أعماق نفسه أن الحياة لا تستحق الشعور بالمرارة أو الاكتئاب، وأن من حق الإنسان أن يشعر بالحزن أحيانًا، على أن يكون ذلك أمرًا عابرًا.

وأذكر أنني اقترحت عليه ذات يوم أن يهتم بالكتابة الساخرة فيستخدم لغة الهجوم والهجاء (satire) على طريقة جوناثان سويفت مؤلف «رحلات جاليفر». إلا أنه لم ينفذ هذا الاقتراح، واكتفى بنوع من السخرية الرقيقة الرفيقة. ويبدو أن الكاتب الهجاء (بتشديد الجيم) يحتاج إلى قدر من الشراسة والقسوة. ولم يكن جلال شرسًا ولا قاسيًا.

وحقيقة الأمر أنه كان سعيد الحظ وموفقًا من نواح عديدة. أولها بطبيعة الحال نشأته في تلك البيئة الغنية بالثقافة والمحابية للتعليم. يضاف إلى ذلك أنه كان موفقًا في دراسته، ومن ثم كان فوزه ببعثة لدراسة الدكتوراه في لندن. وتصادف أن تكون فترة الدراسة في لندن (أواخر الخمسينات وجزء من الستينات من القرن الماضي) مطابقة لمرحلة سعيدة من تاريخ المدينة. فهي المرحلة التي شهدت نهضة لا نظير لها في جميع الفنون: المسرح، والموسيقى، والسينما. وكان الطلاب الذين درسوا في لندن حينذاك - ومنهم كاتب هذه السطور - يجدون

كان مصدرًا للبهجة أينما وجد

شدة والده وبأسه وسطوته لم تنل من قدرته على التفتح



فيها ثمرات تلك الفنون وفيرة ومتاحة لهم دون إرهاق لميزانياتهم المتواضعة. كانت هناك مثلًا دور ثلاث عظيمة لعرض الأفلام – «إفري مان» في هامبستد، و«أكاديمي سينما» في أكسفورد ستريت، و«ذا ناشيونال فيلم إنستيتيوت» في ووترلو. وكانت تلك الدور تتبارى في عرض روائع السينما العالمية. فقد تخصص مثلًا موسمًا كاملًا لعرض كل أفلام أحد كبار المخرجين من روسيا أو إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا أو السويد. وقس على ذلك قدرة الطالب مثل جلال على مشاهدة روائع المسرح (شكسبير وتشيكوف بصفة خاصة) وحفلات الموسيقى، وعروض الأوبرا.

ولا بد أن أذكر بالمناسبة أن جلال الذي درس القانون وتخصص في الاقتصاد، كان يضيق بتخصصه (نظرا لجفافه) وكان الأدب يستهويه، ومن ثم كانت كتاباته المعروفة في نقد الروايات. ولكن قليل هم الذين يعرفون أن جلال كان من عشاق الموسيقى، والموسيقى الكلاسيكية بصفة خاصة. ولم يكن من قبيل المصادفة أنه روى في سيرته الذاتية قصة الكمان التي اشتراها أبوه له في طفولته. ولكن من الغريب أنه لم يكتب عن هواية الموسيقى مثلما كتب في هواية الأدب.

ولا أدري أين قرأت منذ بضعة شهور أنه كان يسمع في تلك الآونة موسيقى رامو (Rameau)، وهو مؤلف موسيقي فرنسي من مؤلفي القرن الثامن عشر. ولقد عجبت لذلك لأن رامو مجهول عندنا (اللهم إلا لدى أهل الاختصاص)، وتكتنفه الظلال في الغرب إلى حد ما لأنه يقع على حدود عالمين موسيقيين: عالم موسيقى الباروك وعالم الموسيقى كما أسس له هايدن، وتلاه موتسارت، فبتهوفن، فشوبرت، فبرامز - إلى آخر تلك السلسلة الفريدة المترابطة الحلقات من الموسيقيين العظام. فلم يحدث في تاريخ البشرية لا في الشرق ولا في الغرب أن وجدت تلك الوفرة من المعجزات المتعاقبة.

إلا أن جلال – ويا للدهشة ! – كان يستمع إلى موسيقى ذلك الموسيقار الفرنسي المغمور. قرأت الخبر لا أذكر متى وأين على وجه التحديد: هل كنت في انجلترا أم أنني كنت أستعد للسفر إليها؟ ولكنني عقدت العزم عندئذ على أن أنتهز أول فرصة لزيارة جاري - فقد كان يسكن على مسيرة دقائق من بيتي - وأن أحادثه في أمر رامو وأسأله: كيف اكتشفته، وما رأيك في موسيقاه؟ ولو أنه سألني عن سر اكتشافي لرامو، لأخبرته أنني لا أعرف عنه شيئًا إلا عن طريق القراءة. وربما حدثته عما قرأت في الكتاب الرائع الذي ألفه الفيلسوف الفرنسي ديدرو (القرن الثامن عشر) تحت عنوان «ابن أخي رامو» وتطرق فيه عرضًا لموسيقى العم رامو، لأنه سلط الأضواء على ابن أخيه. إلا أنه استطاع أن يقدم من خلال ابن الأخ – وهو الصعلوك الكبير - صورة بانورامية للحياة الاجتماعية والثقافية في فرنسا لذلك العصر.

وكانت لجلال عليّ أياد بيضاء كثيرة. لقد أعجبت به منذ التقيته لأول مرة عندما كان في زيارة إلى القاهرة من إنجلترا. وكان من أوائل الذين استقبلوني في لندن، ورحب بي، وأرشد خطواتي الأولى. وصرنا أصدقاء كأجمل ما تكون الصداقة. وقد أسعدني الحظ فحضرت حفل خطوبته على الفتاة التي صارت زوجته ورفيقة حياته في السراء والضراء؛ وعرفني على عدد من أفراد أسرته المتميزة، واستضافني أكثر من مرة، ولعبت مع أطفاله، وكأنما صرت أحد أعمامهم.

ومن المؤسف أننا ابتعدنا في السنوات الأخيرة أحدنا عن الآخر رغم أن بيته كان لا يبعد عن بيتي إلا لدقائق سيرًا على الأقدام. كنا نتهاتف عن طريق التليفون، وكنت أزوره أحيانًا لأشرب قهوة الصباح معه. ولكن تلك الزيارات صارت نادرة. ولا أذكر أنه زارني إلا إذا كانت هناك دعوة رسمية ومع جمع من المدعوين. وقد قلت له ذات يوم: «يا أخي لماذا تنتظر أن تُدعى؟ لك أن تأتي إلى العمارة في أي وقت تشاء، وأن تطرق على بابي، فأرحب بك. وتستطيع أن تطلب مني أن أغديك أو أعشيك أو أقدم لك مشروبًا، فستجد ما تريد». كانت تلك دعوة مفتوحة على طريقة طرفة بن العبد عندما قال في معلقته الرائعة: «فإن تأتني أصبحك كأسًا رويةً / وإن كنت عنها في غنىً فاغنَ وازددِ».

ولكن جلال لم يستجب لتلك الدعوة المفتوحة التي لم يحظ بها أحد غيره. وكم كنت أود أن ألتقي به وأن أطلب إليه أن يكتب بالتفصيل قصته مع الموسيقى، بداية من تلك الكمان التي اشتراها له أبوه. ولكنه رحل قبل أن تتاح لي الفرصة. يقول المتنبي في رثائه لجدته: «أردت لها حظًا ففاتت وفاتني». والغريب أن جلال كان ثالث ثلاثة من الأصدقاء الذين سكنوا في الحي نفسه الذي أوجد فيه، وكانوا جميعهم من عشاق الموسيقى. وكان هو آخر الراحلين.

الشاعر والمفكر اليمني عبدالعزيز المقالح:

اليمن في كارثة بكل ما تعنيه الكلمة والمواطن يحتاج للتنفس والشعور بالأمل



حوار:
محمد الغربي عمران

■ مشروعك الثقافي والإبداعي.. كيف تتأمله اليوم؟

- ربما قد يجد أي باحث جاد في مؤلفاتي محاولة لإقامة مشروع ينهض على ركيزتين: أدبية وفكرية. ومن يعش في مثل ظروفنا وما أحاط ويحيط بها من أحداث ومفاجآت لا يطمع، ولا يطمح في إقامة أي مشروع من أي نوع، فلن تمكنه هذه الظروف ولا ردود أفعالها من استكمال ما قد يبدأ به ويهيئ نفسه لبنائه، وإني لأعجب كيف استطعت وسط هذه التراكمات المخيفة من الصعوبات والمعوقات أن أقدم هذا الشيء القليل كمًا! إنني أعجب لزملاء جيلي ولأفراد من الأجيال الجديدة وكيف نجحوا في التغلب على حالات الخواء وغيبة الإمكانات من انجاز ما تم لهم انجازه سواء على المستوى الإبداعي، أو على المستوى الفكري.

■ دومًا كنتَ داعية للتجديد في الأدب وبالذات في الشعر.. فما هو موقع الشعر اليوم؟



- الشعر من وجهة نظري حي يرزق ولا صحة لما يقال عن انحساره أو موته، والأصوات الناعمة القليلة للشعر والصادرة عن بعض النقاد تأتي من باب المماحكة، وفي كلمات طائرة تذهب مع الهواء وليست ناتجة عن دراسات نقدية علمية موضوعية، وهناك من بين هؤلاء المتسرعين من يتحدث عن موت كل أشكال الإبداع من رواية ومسرح وقصة قصيرة، ويذهب إلى القول إن العصر هو عصر الصورة لا عصر الكلمة. وفي هذا القول الكثير من الشطط، فلا شيء من فنون الإبداع يدركه الزوال؛ قد تتطور الأساليب والأشكال إلاّ أنها تبقى ثابتة الملامح قادرة على الحضور والاتصال والرحيل إلى وجدان الناس ومشاعرهم.



لقاء يجمع المقالح بعلي عقلة عرسان

■ **من القصيدة العمودية إلى شعر التفعيلة إلى الحر ثم الهايكو.. ماذا بعد في المشهد الشعري؟**

- أبواب التحديث والتجديد مُشرعة أمام المبدعين الموهوبين، والقفزة التي حققها الشعر العربي خلال العقود السبعة الماضية، بدءًا من اربعينيات القرن العشرين إلى اليوم، تشكل إضافة نوعية. وفي تاريخ شعرنا القديم ما يشبه هذه التحولات والقفزات من القصيدة البيتيه ذات الوزن الواحد والقافية الواحدة إلى ما سماه النقاد القدماء بالمبيتات والمربعات والمسمطات، وقد كانت الموشحات عند ظهورها مبهرة ومثيرة للتساؤل وصارت بعد ذلك جزءًا لا يتجزأ من بنية الشعر العربي متعدد الأشكال، وما قصدوه بالتفعيلة إلاّ تطور لشكل الشعر داخل إطار القصيدة الموزونة المقفاة. كما أن الهايكو، الشكل الشعري الياباني، ما هو إلاّ صورة من الومضات والشذرات التي عرفها الأدب العربي في العصر الحديث على وجه التحديد.



■ كنت راعيًا للشباب اليمني إبداعيًا؛ فمَن من الأصوات الشعرية يمكن أن تعتبره مجددًا؟

- يصعب الحديث عن واحد بعينه، أو عدد محدود فالأجيال التي اسعدني الاقتراب من بداياتها الشعرية يعود ظهور بعضها إلى سبعينيات القرن الماضي، وقد أثبتت وجودها على المستويين: المحلي والعربي، وما تزال الأجيال الأحدث تتوالى في حضور مدهش رغم صعوبة الواقع وفقدان كل وسيلة للتشجيع باستثناء تلك الظاهرة المحدودة التي ترعاها وزارة الشباب على نطاق ضيق خاص بالناشئين.

باختصار شديد يمكنني القول إنه في بلادنا الآن العشرات من الشعراء الشبان الموهوبين الذين يشكلون صورة المستقبل شعريًا وهم قادرون على إضافة الجديد.

■ ظل النقد في مجاله غريبًا يتلقفه النقاد العرب كصدى؛ فأين النقد العربي تنظيرًا ومنهجًا؟

- هذا هو سؤال المبدعين الذين يكتبون وينشرون أولًا، ينشرون ولا يجدون من يتابع خطواتهم الإبداعية.

وفي المقابل هناك سؤال مماثل يطرحه النقاد، وهو: أين الإبداع الجدير بالنقد والمتابعة.. وفي السؤالين كليهما مبالغة؛ فالنقد الأدبي موجود ومكانه لم يعد الصحف والمجلات، وإنما الجامعات، وهناك عشرات الأطروحات عن الشعراء والروائيين وكتّاب القصة، «وكلها - أي تلك الأطروحات - على» درجة عالية من المنهجية والتتبع العلمي الدقيق، وهذه الإشارات لا تمنع من القول إن عددًا من النقاد يراكمون دراساتهم النظرية على حساب النقد التطبيقي الذي ينظر إلى ما هو موجود، وليس لما يمكن أن يوجد.

■ كم هائل من الإصدارات الشعرية والسردية لا يواكبه نقد، فهل تعده عجزاً نقديًا؟

- اسمح لي أن أحيل سؤالك على الإجابة السابقة، فالعجز ليس سببًا، ولكن التجاهل في بعض الأحيان هو السبب عن عدم المتابعة والمراجعة، وغياب المجلات الجادة والمحكمة والهادفة إلى تشجيع الإبداع والنقد على حد سواء؛ فالنقاد بحاجة إلى من يشجعهم أيضًا ويفتح أمامهم الطريق، شأنهم في ذلك تمامًا شأن المبدعين.

الإبداع اليمني لا يزال يتحدى الاستسلام للتطاحن والتدمير

■ نعرف أن بيننا عشرات من حملة الشهادات العليا في تخصص الأدب العربي .. لكننا لا نجد صدى لهم على مستوى البحوث والدراسات النقدية، فأين يكمن الخلل؟

- ربما كان ذلك شأن البعض من حملة الشهادات العليا، وليس الكل، وقد تكون لذلك أسباب ليس من بينها التجاهل أو الكسل، وبعضها يعود إلى الوضع الجامعي الذي لا يساعد على تفعيل قانون الالتزام بقواعد البحث العلمي، وهذه الملاحظة تخص العاملين في حقل التعليم الجامعي، أما مَنْ هم خارج



المقالح وعرسان والعلاق ودماج في مقيل صنعاني

الجامعة فالسؤال يوجه إليهم .

■ أين الأدب مما يدور من صراع في أقطارنا العربية؟

- ما يحدث في الوطن العربي من صراعات ونزاعات وحروب فاجعة يكاد يشل الفكر، ولا يجعل للكلمة مكانًا أو اعتبارًا. وقد سادت في حياتنا الأدبية مقولات سخيفة منها تلك التي تذهب إلى القول بأنه «إذا نطقت المدافع صمتت الأقلام». وهذا لا يعني أن هناك صمتًا بالمطلق فما يزال الشعر يفضح الأسباب، والنثر يتحدى الاستسلام لما انتجه الواقع من أحداث ووقائع تقود إلى التطاحن والتدمير. وإن في نطاق الممكن والمتاح من وسائل النشر المحكومة من قبل صنّاع الصراعات ودعاة التقتيل.

■ أين الأدب من القضايا الكبرى في الوطن العربي؟

- لعل في الإجابة السابقة ما يكفي، وإهمال الحديث في الأدب عن القضايا الكبرى والصغرى عائد إلى ما تم شرحه، وكلها تدور في إطار واحد ومشترك عنوانه التفكيك والدخول في المعارك والحروب الداخلية التي جعلت الاهتمام بالقضايا القومية العامة أمرًا مؤجلًا أو غير ذي بال.

■ الرواية العربية.. هل لامست قضايا؟

- ما من شك في أن الرواية العربية لامست أكثر مشاكل الإنسان العربي، ونجحت في تجسيد ما يثقله من هموم، وما يحلم به من تغيرات، وصارت هي الوسيلة الإبداعية القادرة على رسم التناقضات التي تشغل الواقع العربي، وتدفع به إلى مزيد من الصراعات. ومن أهم خصائص الرواية العربية وأكثرها وضوحًا تلك التي تتجلى في الانغماس في الواقع الذي ما يزال ثريًا بأطروحاته الاجتماعية والسياسية، وليس كذلك حال الرواية الأوروبية على- سبيل المثال- التي لم تجد في الواقع الأوروبي سوى القليل من الموضوعات غير الهامشية.

■ الرواية العربية هل اقتربت من العالمية؟

- كان يمكن لها أن تغدو عالمية شأن الرواية في أمريكا اللاتينية، حيث تتشابه الأوضاع وتتماثل المصادر، لكن عجز المترجمين القادرين، من جانب، وغياب الكتاب العربي المترجم عن المكتبات العالمية، من جانب آخر، كلها تجعل من المستحيل وصول أي ابداع عربي إلى العالمية، وبفضل الترجمة وصلت آداب بعض الشعوب التي كانت آدابها وما تزال أقل شأنًا من أدبنا، ونتاجات مبدعينا في الرواية والشعر خاصة.

■كيف ترى نتائج الصراع بين الكتاب الورقي والإلكتروني؟

مهما أشتد الصراع بين هذين المتنافسين سيبقى للكتاب الورقي مكان الصدارة لما يمنحه لقارئه من متعة ودفء حميم، وكما تعايشت الإذاعة مع الصحافة، والسينما مع التلفزيون، سيتعايش الكتابان؛ الورقي والإلكتروني، ينجحان في التسريع بإنضاج الوعي، والارتقاء بمعارف الإنسان الحديث.



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

■ الجوائز العربية كيف تقيمها؟

- هي أفضل ما تفتقت عنه الذاكرة العربية في مجال الإبداع، وتكاد تكون بالنسبة لبعض من فازوا بواحدة منها، أو بالنسبة لمن ينتظرونها، قارب الإنقاذ من الوقوع في قبضة الفاقة والجوع فالأديب العربي لا يستطيع أن يعيش من أدبه في مجتمع نحو 80% من أبنائه أميّون، و10% لا يقرأون! ولهذا فالجوائز الأدبية العربية، مهما قيل عنها، تعتبر منقاذًا.

■ وجائزة المقالح؟

- ما تزال تواصل دورها المرسوم في حدود إمكاناتها المحدودة، وهي للمبدعين الشبان في مجال الشعر والرواية والقصة القصيرة، وقد بدأت الهيئة المشرفة عليها في التشدد في قبول الأعمال المقدمة، وهي تخضعها لمواصفات خاصة تجعل المتقدمين يحرصون على رفع مستويات إبداعاتهم لتكون جديرة بالفوز بها.

■ هل نتعرف على رأيك في هذه الحرب الطاحنة في اليمن؟

- هي كارثة بكل ما تعنيه الكلمة من خراب ودمار وقتل وتهجير وجوع وانقطاع عن التواصل مع العالم ثقافيًا وعلميًا. وهو ما سيؤثر على واقع البلاد بعد سنوات قليلة إذا استمرت الحرب ولم يحدث انفراج قريب يعيد للمواطنين القدرة على التنفس والشعور بالأمل.

■ «المقيل».. خصوصية يمنية توازي «المجالس» أو «الصالونات الأدبية» في البلدان العربية الأخرى، ومقيلكم هو الأهم في صنعاء..فهل نُعَرِّف القارئ به؟

- المقايل اليمنية حالة يمنية خاصية لا مثال لها في أي قطر عربي، تبدأ من الثانية والنصف بعد ظهر كل يوم وأحيانًا تستمر إلى التاسعة مساءً. وتختلف المقايل من مكان إلى آخر باختلاف روادها، إن كانوا سياسيين أو أدباء أو رجال أعمال أو عاديين، وأهمها على الإطلاق تلك التي تجمع بعض الأدباء، حيث يتم اقتطاع وقت كبير للقراءة من كتاب مهم أو مجلة جادة. وتنتهي القراءة بنقاش واسع فضلًا عن قراءات قصائد للشعراء الحاضرين، ومتابعة أحوال الأدب وأخباره، ومستجدات المشهد الثقافي؛ محليًا وعربيًا.



وهنا أود أن أشير إلى أنني من أنصار المقيل ولست من أنصار «القات» الذي يتم تناوله في هذه المقايل.

وتجمع تلك المقايل الأدبية بعض النخب السياسية ليتسع مجال النقاش، وتأخذ أبعادًا جعلت بعض إخوننا في



سوق الملح بصنعاء القديمة

مصر والعراق وسوريا اللذين يحضرون هذه المقايل يعتبرونها برلمانات مصغرة.

تسمية المقيل آتية بالتأكيد من القيلولة، وهي حالة عربية عامة، إلاّ أن وقتها يختلف باختلاف المكان، وهنا تمكننا الإشارة إلى أن تطورًا ما قد حدث في أسلوب هذه المقايل الأدبية عندما بدأت تضم عددًا من الفنانين المتخصصين في المسرح. والمقيل بما يحدث فيه من حوارات متعددة يشكل حالة مسرحية، ولهذا فقد تم اكتشاف ما يسمى بمسرح المقيل، فكان الممثلون الذين هم من فرقة المسرح الوطني يجلسون وسط

الوضع الجامعي عندنا لا يساعد على تفعيل قانون الالتزام بقواعد البحث العلمي!

المقيلين، وعندما تبدأ المسرحية ينطلق كل ممثل ليؤدي دوره وكأنه على خشبة المسرح.

وقد نجحت التجربة وحاولت الخروج إلى بعض المقايل ومنها التي تسمى بالشعبية، وأتذكر من بين تلك المسرحيات التي عرضت في مقيلنا الأدبي «مسافر ليل»، و«والأميرة تنتظر» للشاعر الكبير صلاح عبد الصبور و«سقراط يشرب الكاس» لكاتب مسرحي عراقي هو المرحوم «كريم جثير»، وفي هذه الإشارات ما يدل على أن المقيل ليس مكانًا للهو، أو لقتل الفراغ بقدر ما هو تجمع ثقافي، ووسيلة من وسائل اللقاء بين الأصدقاء.

ومن عبارة «جلسة على قات» تكونت كلمة «علاقات» المتداولة عربيًا.





فى ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

«إله الحرب»..

سيناريو فيلم ممنوع من العرض



وجدي الأهدل

م(1) نهار/ خارجي:

الملك الأزتيكي يُطالع مغتبطًا والفرح يشع من محياه وجوه العشرات من البنات والأولاد الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرضع إلى من ناهزوا البلوغ.

يأمر الملك الأزتيكي الورع بانتزاع قلوب الأطفال الأسرى -وهم أحياء- ثم إحراق جثثهم.



الجنود الأشداء يطيعون أمره ويسوقون الأضاحي البشرية إلى المذبح.

الأطفال المغلولو الأيدي المربوطون كل خمسة بحبل واحد، منهم من ينتحب، ومنهم من يمضي إلى حتفه شامخ الرأس.

الملك الفخور بكرشه التي ترمز لعظمة مملكته واتساعها يجثو على ركبتيه ويتضرع إلى الإله أن يمنحه البركة والثروة.

م(2) نهار/خارجي:

نرى صورة مأخوذة من قمة جبل عالٍ لصنعاء عاصمة اليمن.

ثم لقطات متتابعة تترجم بصريًا المعلومات الواردة في التقرير.

نسمع صوت ضربات على آلة كاتبة.

تظهر على الشاشة الكتابة التالية:

في السادس والعشرين من مارس 2015 يركز إله الحرب أنظاره المميتة على اليمن.

الكهرباء مقطوعة منذ بداية الحرب وحتى الآن.

المياه لم تعد تتدفق من الصنابير.



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

الفقراء الذين لا يمتلكون ثمن المولدات الكهربائية يُزجُّ بهم إلى آلة الزمن ويتم ترحيلهم قسرًا إلى القرون الوسطى!

مئات المصانع تتوقف عن الإنتاج.

الخسائر التجارية الفادحة تضطر التجار إلى مغادرة البلد.

الملايين من العاملين في القطاع الخاص يفقدون مصدر دخلهم.

استفحال وباء الكوليرا، وعدد المصابين به يتجاوز المليون، وعدد الوفيات يناهز الثلاثة آلاف إنسان.

في منتصف عام 2016 الحكومة تتوقف عن دفع الرواتب للموظفين، أكثر من مليون موظف في القطاع العام بالإضافة إلى عائلاتهم يتضورون جوعًا.

تفاقم مأساة مئات الآلاف من النازحين الفارين من مناطق الاشتباكات إلى العاصمة ومدن أخرى قليلة نجت من القتال المحتدم.

انهيار سعر العملة الوطنية، وارتفاع خيالي في أسعار المواد الغذائية.

أعداد متزايدة من البشر في المدن يحصلون على غذائهم من النبش في القمامة. عشرة ملايين يمني يعانون من المجاعة، وفي الأرياف يقتات المعدمون على أوراق الأشجار.

وكالات الأنباء تتداول صورًا خادشة للمشاعر الرقيقة:

ثلاثة أطفال غارقون في دمائهم، قتلهم والدهم لعجزه عن إطعامهم.





(هند منصور) طفلة عمرها خمس سنوات ماتت جوعًا.

رجل شنق نفسه متدليًا من جسر الصداقة لأنه لم يعد يحتمل أن يرى عائلته تتضور جوعًا.

الكاميرا تتجول في شوارع اليمن، وترصد الوضع الإنساني:

نساء ورجال ناحلون يعانون من سوء التغذية، عيون مترعة بالخوف والدموع، مجانين هائمون على وجوههم، متسولون من كافة الأعمار، أطفال وشبان فقدوا رجلًا بسبب انفجار لغم فيها.

انهيار التعليم في المدارس الحكومية بسبب عدم صرف رواتب المعلمين، وتسرب الطلاب الذين يتمتهم الحرب إلى سوق العمل لإعالة أسرهم.

تدهور الخدمات الصحية إلى الحضيض، والحالات المرضية الحرجة تلقى حتفها بسبب إغلاق مطار صنعاء، وعدم التمكن من إسعافها لتلقي العلاج في الخارج.

المرضى الذين يعانون من الفشل الكلوي، يموتون كالذباب بسبب تقليص جلسات الغسيل الكلوي ونقص المواد اللازمة.

مع كل موجة هبوط للعملة الوطنية محلات البقالة تغلق أبوابها ريثما يستقر سعر الصرف.

تفشي السوق السوداء في الشوارع الرئيسية لبيع البترول والعملة الأجنبية.

الازدحام المروري أصبح ذكرى من الماضي.. الشوارع تشهد حركة خفيفة للسيارات بسبب غلاء الوقود.

الشعب اليمني يقتنع أخيرًا بممارسة المشي.. بعد الارتفاع القياسي في أجرة المواصلات العامة.

اتساع ظاهرة استخدام الحطب في المنازل والأفران كبديل عن الغاز الذي يتوفر في الأسواق بكميات شحيحة وأحيانًا ينعدم تمامًا.. ونتج عن التحطيب الجائر إفقار اليمن من غطائها النباتي.

معظم أوراق العملة المحلية مهترئة ولم تعد صالحة للتداول، وشجارات في كل مكان بين متداوليها.



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب



بسبب تبعات الحرب وعدم الصيانة، استشراء ظاهرة أنابيب الغاز التالفة التي يتسرب منها الغاز، ويوميًا تتحدث المدينة عن انفجار أنبوبة غاز في أحد المنازل ومقتل عائلات بأكملها.. والناجون من الموت ما زالوا يتلقون العلاج من الحروق.

بسبب الغلاء الفاحش للماء، كثيرون يظهرون في الطرقات بملابس متسخة، وتراجع العادات الصحية والاعتناء بالنظافة الشخصية.. وروائح الأجسام الزنخة تشم في الأماكن المزدحمة ووسائل المواصلات.

أسعار الأدوية تحلق عاليًا، ومرضى ومريضات السكر الفقراء يشاهدون عند أبواب الصيدليات وهم يتوسلون ذوي القلوب الرحيمة المساهمة في دفع تكاليف علاجهم.

حدوث مجاعة ثقافية: منذ اندلاع الحرب فلم تعد الكتب والصحف والمجلات العربية تدخل إلى اليمن، ومعظم المكتبات المتخصصة ببيع الكتب تعرضت للإفلاس.

رغيف الخبز يفقد ثلثي وزنه، وينسجم في هزاله مع هزال البشر الذين يتناولونه.

انتشار ظاهرة إغماء الأطفال في المدارس بسبب عدم تناولهم الطعام منذ أيام.

اكتشاف أطفال في المدارس يتناولون وجبة إفطار مكونة من خبز متعفن تدبروه من حاويات القمامة.

معلمة لاحظت أن حقيبة إحدى الطالبات منتفخة فطلبت تفتيش حقيبتها، فرفضت بشدة، فثارت حولها الشكوك بأنها سرقت شيئًا ما، وفي الإدارة تبين أنها جمعت بقايا السندوتشات أثناء الفسحة من فناء المدرسة، واعترفت أنها تقوم بهذا



الفعل يوميًا لتطعم أسرتها المكونة من أمها وأخوتها لأنهم لا يجدون ما يأكلونه في البيت.

إدارة المدرسة توجه المعلمات والمعلمين بأن ينزلوا إلى فناء المدرسة وقت الفسحة ليحثوا طلابهم على منح ما زاد عن حاجتهم من الطعام النظيف لـ «الخالة».. يتم جمع الطعام الفائض عن الحاجة وتوزيعه على الطلاب الجياع الذين لم يفطروا في بيوتهم..

مدارس أخرى تقتدي بهم وتطبق الفكرة.

ملايين الأطفال في المدن والأرياف يعانون من سوء تغذية حاد ومن فقر الدم.

ملايين الأطفال تعرضوا لصدمات نفسية بسبب الحرب، ونسبة لا يستهان بها منهم بحاجة ماسة للعلاج النفسي.

مليونا شخص تركوا ديارهم منذ اندلاع الحرب.

خمسة ملايين يمني -فوق 18 سنة- يعانون من اضطرابات نفسية نتيجة ضغوط الحرب وتبعاتها الاقتصادية.

ثمانون ألفًا من الكلاب الضالة تجتاح مدينة صنعاء، والمستشفيات تُسجل عشرة آلاف حالة تعرضت للنهش، ووفاة مئات الحالات معظمهم من الأطفال.

أكثر من عشرة آلاف مدني معظمهم من النساء والأطفال لقوا مصرعهم، وإله الحرب ما يزال جائعًا ويطلب المزيد من الجثث.

(4) نهار/ خارجي:

ثلاثون أمًا يمنية يقررن التضحية بأطفالهن الرضع لافتداء ثلاثين مليون يمني. في اليوم الموعود تُصور كاميرات جاءت من مختلف أصقاع الأرض الأمهات وهن يرمين الأطفال الرضع عراة من جبل شاهق في مَناخَة.

ولكن غضب إله الحرب لم يسكن، والقتال يزداد ضراوة.

م(4) ليل أبدي/ داخل البيت الأبيض:

الرئيس الأمريكي جالسًا إلى مائدة العشاء الفخمة وحوله جنرالات الجيوش الأمريكية، يضم يديه ويُصلّي: «أيها الرب امنحنا البركة والثروة».

قطع.

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

هل هو حقًا «اليمن السعيد»!

«اليمن السعيد» هو ما درجنا على إطلاقه على القطر العربي القابع عند عنق البحر الأحمر عند لقائه بالمحيط الهندي عبر خليج عدن والمشرف على مضيق باب المندب الشهير. تساءلت عن سر تسمية اليمن بالسعيد وهو البلد الذي عانى الحروب والفقر والجفاف منذ وعيت على الدنيا.

قيل إن الرومان هم الأصل في التسمية من بعد نجاة اليمن من الاحتلال - ربما لبعد موقعه الجغرافي بالإضافة لعدم اهتمام القيادة في روما بتكبد مشقة الترحال بالجيش للسيطرة عليه. ولكن هناك من الأمثلة ما يدعونا للتريث قبل الحكم؛ فالمستعمر البريطاني كان قد أطلق على أرضين تم احتلالهما وخضوعهما إلى التاج البريطاني بأسماء خادعة لغرض جذب أو إبعاد المهاجرين إليهما. فأطلقت بريطانيا على الأرض الباهرة الجمال والخلابة الطبيعة اسم "أيسلندا" (بمعنى أرض الجليد) لتخيف النازحين إليها وتحد منهم، في حين سميت المستعمرة الأخرى "جرين لاند" (أي الأرض الخضراء) رغم برودة جوها الشنيع، فتستقطب إليها الأيدي العاملة اللازمة للحياة فوق أرضها.



شريف مليكة
الولايات المتحدة الأمريكية

أما عن "اليمن السعيد" ففي الستينيات (سمعت منذ وعيت على الدنيا) إنه تحديدًا في عام 1962 قام عبد الله السلال بقيادة ثورة ضد "الإمام". وهرب الأخير إلى المملكة العربية السعودية ليحارب السلال قائد الثورة الذي كان يدعمه جمال عبد الناصر، من هناك، تحت رعاية الملك سعود وبريطانيا. واستمرت تلك الحرب الأهلية 8 سنوات، تركت وراءها اليمن ممزقًا فقيرًا، لا مظهر من مظاهر السعادة عليه! كما رجح محللون سياسيون أن تلك الحرب تسببت كذلك في إضعاف الجيش المصري المنهوك القوى ليحظى بهزيمة ساحقة في عام 1967.

واليمن له تركيبة معقدة جدًا من الصعب ان تجعله سعيدًا، سواء من الناحية الجغرافية او من حيث التركيبة السكانية فهو يختلف اختلافًا شديدًا عن بقية البلدان العربية من حيث نوعية السكان التي تعتمد اساسًا على النظام القبلي الذي تمثله خمس قبائل رئيسية وهي حاشد وبكيل ومذحج، وجميعها تركزت في الشمال. وقبائل حمير وكنده. ومعظم اليمنيين ينتمون إلى قبائل مختلفة وهم حضر يعيشون



عبد الله السلال رئيس الجمهورية اليمنية ونائبه د. عبد الرحمن البيضاني

في قرى متناثرة بأرجاء البلاد وتوجد قبائل بدوية في محافظة مأرب والجوف وبادية الربع الخالي شمال حضرموت، وشبوة أو ما يُعرف بصحراء صيهد. وهناك سكان محافظة المهرة في شرق اليمن وهم يتحدثون لغتهم الخاصة. أما سكان جزيرة سقطرى فهم يتحدثون اللغة السقطرية. تلك الجزيرة معزولة عن شبه الجزيرة العربية وأفريقيا وهو ما خلق ثقافة فريدة لسكانها وعددهم قرابة الخمسين ألف نسمة. وهناك يمنيون من أصول مختلفة تركية وفارسية وأفريقية وهندية وغيرها.

والإحصائيات الحديثة (بحسب موقع واي باك ماشين الإلكتروني) تقدر عدد القبائل اليمنية بمئتي قبيلة، نحو 168 منها تعيش في الشمال والباقي في الجنوب وتسكن غالبيتها المناطق الجبلية. الجهل ونسبة الأمية العالية جدًا أسهما في هذا التنوع السكاني العجيب الذي لا يمكن اخضاعه لنظام دولة بمفهوم العصر الحديث. نسبة الزيادة السكانية حوالي 3% سنويًا وتبلغ الكثافة السكانية حوالي 40 نسمة لكل كم2. معدل الخصوبة هو 6.5 طفل لكل امرأة. و75% من السكان أعمارهم أقل من 30 سنة وقرابة نصف السكان يعيشون تحت خط الفقر. ويعد معدل النمو السكاني واحدًا من أعلى المعدلات في العالم ومن المتوقع أن يصل تعداد اليمن إلى 30.8 مليون نسمة عام 2020 وهو ما يضع اليمن أمام تحديات مستقبلية جديدة.

ومع نهايات عام 1978 تولى علي عبد الله صالح مقاليد حكم اليمن السعيد. وامتدت فترة حكمه نحو ثلاثين عامًا إلى أن تنازل عنه عام 2012 في غمرة ثورات "الربيع العربي". وخلال فترة حكمه شبه الأزلية تبوأ اليمن عدة ألقاب عالمية فاقت "اليمن السعيد" شهرة، وحظيَت البلاد بمراتب دولية كثيرة؛ فتصدر اليمن ترتيب البلدان الأقل شفافية، والأشد فقرًا، والأكثر غيابًا لحقوق الإنسان والتعليم والصحة، حتى أعلنت الأمم المتحدة بمنظماتها المختلفة أن أكثر من نصف سكان اليمن السعيد لا يحصلون على الغذاء أو المياه النظيفة الصالحة للشرب. وأعلنت الولايات المتحدة اليمن كمستوى ثالث عند تقسيم الدول إلى ثلاثة أقسام في قضية الحد من المتاجرة بالبشر، رغم تجريم بيع وشراء العبيد بها منذ عام 1962.

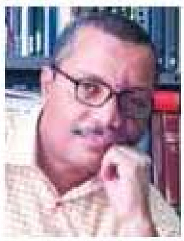
وحاليًا تدور حرب أهلية جديدة في ذات اليمن السعيد تستنزف ما تبقى له من سعادة، وتمحو فتات الخيرات المتبقية، وتقضي على أهله بمئات الآلاف ما بين قتيل وجريح. ناهيك عن ضحايا الجوع والأمراض المتفاقمة من جراء تلك الحرب المتوحشة. وعندما تتساءل عما وراء تلك المأساة المروعة، فتطالعك الحقيقة بابتسامتها الصفراء اللئيمة فتنبئك بأن أصل الصراع مذهبي - شيعي سني تتبناه عن بعد كل من إيران من جهة والمملكة السعودية وأمريكا من الجهة الأخرى.

يا لك من سعيد أيها اليمن التعس!

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

الرواية اليمنية على عتبات عقدها الذهبي

يُعدُّ المشهد الروائي اليمني في العقد التاسع من عمر الرواية اليمنية أكثر عقودها الحافلة بالتحولات المهمة، بوصفه تتويجًا لمسيرة روائية طويلة من التطورات والعثرات معًا، وهنا تجدر الإشارة إلى ثلاثة أجيال من عمر الرواية في اليمن؛ الأول جيل البدايات التي تعود إلى 1927 خاض لجتها رواد من الأدباء المصلحين والتنويريين، حاول توظيف كتابة الرواية في تمرير خطابه الفكري النهضوي إلى جوار استعانته بأشكال متعددة من الممارسة الإبداعية، الجيل المؤسس للصحافة وفنون الأدب، وفاتحة هذا الجيل الصحفي والمصلح أحمد عبدالله السقاف، كتب رواية «فتاة قاروت» في 1927، ورائد النهضة العدنية محمد علي لقمان كتب رواية «سعيد» في 1939، ورواية «كملاديفي» في 1947، روايتان تجسد فيهما خطابه الفكري التنويري، وسؤال النهضة الذي صاغه في كتابه «بماذا تقدم الغربيون».



عبدالحكيم باقيس

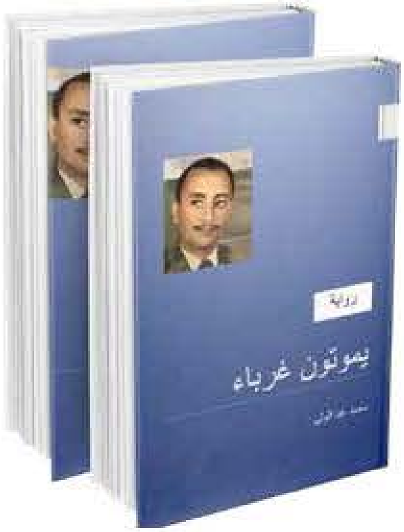
وبعد نحو نصف قرن سيبدأ تيار الرواية الواقعية الجارف، الجيل الثاني الذي تقدم بالرواية في اليمن خطوات، وفاتحة هذا الجيل من الواقعيين: محمد عبدالولي «يموتون غرباء» 1971، التي تشكل البداية الفنية لولادة الشكل الروائي الحديث، باشتراطاته ومكوناته السردية، وفي هذا الجيل زيد مطيع دماج «الرهينة» 1984، وستشكل رهينته ما يشبه جرار القطار الذي يسحب بقية عربات الرواية اليمنية نحو مرحلة جديدة من التطور والانتشار، وثلاثة عقود من نزعة التعبير والتفسير.

كان الانشغال بقضايا الواقع والموضوعات الكبرى أهم ما يميز جل روايات هذه المرحلة، قضايا نضال اليمنيين، والريف ومشكلاته، ومواجهة الطبيعة القاسية، والسلطات الأشد قسوة، محاولة الإجابة عن أسئلة الواقع في صيغ روائية، ويتميز أكثر كتاب هذا الجيل بكتابة الرواية اليتيمة، على الرغم من نجاحهم منذ التجربة الأولى، يبدو أن الكتابة الروائية كانت على هامش الاهتمامات والشواغل الثقافية، ولم تجد ما يكفي من الاهتمام والتشجيع، وربما



كان غياب النقد ووسائل النشر والتواصل مع الأوساط الثقافية والأدبية أحد أسباب هذا الانصراف المبكر، وقد كانت رهينة دماج الأوفر حظًا من بين أخواتها في الخروج من دائرة العزلة، بما تحقق لها من الاحتفاء محليًا وعربيًا، ويمكن قياس مؤشرات هذا الاحتفاء في عدد المقالات والدراسات المكتوبة عنها، وتكرار طبعها.

أما الجيل الثالث فيمكن أن نطلق عليه جيل التسعينيات، الذي بدأ ممارسة كتابة الرواية بوعي تام لطبيعة النص الروائي واشتراطاته، فلم يعد الخيال ووصل النص الروائي بالواقع ومحاولة البحث عن إجابات لأسئلة الواقع من أولويات الكتابة، وإنما إثارة التساؤلات وارتياد أفق جديد بفضل الخبرة والثقافة التي تقف خلف إنتاج النصوص الروائية الجديدة، وقد اطلع هذا الجيل على تجارب روائية عربية وأجنبية، وذلك ما نلمسه في كتاباتهم، جيل انفراط العقد، إذا ما استعرنا مقولة محسن الموسوي، لأنه يبشر بتحول كبير في تاريخ الرواية اليمنية، ويحفل بأسماء كثيرة، تتنوع تجاربها وأساليبها في الكتابة الروائية.



ومنذ بداية القرن الجديد زادت معدلات نشر الرواية، وأخذ الجيل التسعيني يكرّس وجوده في المشهد الروائي، بفعل مجموعة من العوامل التاريخية والسياسية التي مهدت له الطريق؛ ولعلّ أهمها أجواء الحرية السياسية عقب قيام الجمهورية اليمنية، فضلاً عن قيام الأحزاب وحرية التعبير النسبية، وظهور مؤسسات أهلية ومدنية تعنى بالشأن الثقافي، وتأثير وسائل التواصل الحديثة التي ساعدت في كسر العزلة التي كان يعاني منها الكتاب في اليمن، وليس المقام إحصاء الأسماء المعروفة على الساحة الآن. ولكن يكفي القول إنه العقد الذهبي للرواية اليمنية، وفق المعيارين: الكمي والنوعي، ظهور كتاب يمثلون تيار الرواية الجديدة، من أمثال: وجدي الأهدل، أحمد زين، حبيب سروري، عليّ المقري، نادية الكوكباني، نبيلة الزبير وغيرهم.

وقد عبرت هذه الأسماء إلى نحو العقد

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

التاسع برصيد خصب من المنجز الروائي، وبذلك رسخت وجودها في مشهد الرواية الجديدة، وأضيفت إليهم أسماء روائية جديدة توالت مساهمتها الروائية بالعديد من الأعمال، وولجت إلى عالم الكتابة في العشر السنوات الأخيرة من بوابة القصة القصيرة حينًا، ومن بوابة الشعر والصحافة في أحيان كثيرة، وهنا تجدر الإشارة إلى أن نسبة المنشور روائيًا في السنوات العشر الأخيرة يزيد على مائة وعشرين رواية على الأقل (سأكتفي بذكر بعض أسماء مَنْ كتبوا أكثر من رواية، بالإضافة إلى المذكورين سابقًا) مثل: الغربي عمران، مروان الغفوري، وليد دماج، سمير عبدالفتاح، سامي الشاطبي، ندى شعلان، سيرين حسن، ما يشير إلى غنى المشهد الروائي في العشرية الأخيرة وتنوعه.

- ومن أبرز ملامح المشهد الروائي الجديد تناول موضوعات المهمشين اجتماعيًا بأسلوب أكثر جرأة وتشخيصًا لمشكلات الواقع باضطراباته وتناقضاته، مثل موضوعات المهمشين من طائفة الأخدام السود، واليهود اليمنيين، وهنا لا يمكن أن نعزل ماهو اجتماعي عما هو سياسي أيضًا، فأصبحت الرواية لا تكتفي بالتشخيص فحسب، وإنما تثير الكثير من التساؤلات المتصلة بالبعد الإنساني والأخلاقي، تساؤلات تحمل النقد العنيف للواقع، فرواية «أرض المؤامرات السعيدة» 2018 لوجدي الأهدل، تضع سؤالًا كبيرًا حول فساد الواقع، في لغة سردية حافلة بالسخرية والمفارقة التي نستشرفها من على عتبة هذا العنوان، واقع يسوده الظلم والارتباك وسقوط الثوابت والتناقضات، وعبرت إليه من خلال سرد المهمشين، والنظرة السلبية إلى طائفة الأخدام، تصل إلى حد الرق والاغتصاب، والعديد من الممارسات العنصرية التي تتعرض لها هذه الطائفة من ذوي البشرة السوداء، ومع نمو الأحداث تتحول الرواية إلى كاشفة التهميش الذي يطال المجتمع بأكمله، وقد استطاع وجدي الأهدل من خلال بنية روائية مذهلة أن ينفذ بجرأة بالغة إلى أدق تفاصيل عمق الوضع المأسوي في المشهد اليمني المعاصر، استخدم فيها أسلوب اليوميات التي يكتبها شاب صحافي انتهازي أثناء مهمة صحفية لتغطية حادثة اغتصاب فتاة قاصر من طائفة الأخدام، وتكون مهمته تقديم أخبار مفبركة وقلب الحقائق لتبرئة شيخ قبلي مغتصب، تظهر المتعاطفين مع الفتاة المغتصبة في صورة سلبية مشوهة للرأي العام، فيصبح أداة خطيرة بيد السلطة للتآمر على الخصوم، وفي النهاية يكتشف أنه أصبح ضحية مؤامرة. والرواية تصف بسخرية بالغة

الربيع الثوري تحول في اليمن إلى ربيع روائي


سمير عبد الفتاح







الأوضاع السائدة التي وصل إليها الفساد السياسي بمختلف مؤسساته من أحزاب وتيارات وسلطات محلية وقبائل ووسائل إعلام تتولى تبرير هذه الجرائم وتضليل الرأي العام، حالة من السقوط الكبير في مختلف المستويات، وعالم من الدسائس والمؤامرات. وتتخذ الأحداث على مستوى السرد تسلسلًا زمنيًا خطيًا، أما فصولها فترقم بطريقة عكسية، على طريقة العدّ التنازلي، تبدأ باليوم الرابع والستين، وتصل إلى الفصل أو اليوم صفر، وذلك في بنية نكوصية تنازلية انحدارية تماهي يوميات السقوط التي عاشها الصحفي الشاب نحو نهايته المأساوية.

وكتب سامي الشاطبي «أنف واحد لوطنين» 2017 لتقدم إشكالية قديمة جديدة، تتصل بسؤال الهوية والانتماء، من خلال نقد الرؤية السلبية في المجتمعات المتخلفة التي تتعصب لفكرة اللون، وفي نظرتها إلى الذين يطلق عليهم اسم «مولدون» الأبناء اليمنيين السود من أمهات حبشيات أو أفريقيات، يعاني الفتى «صادق» من التمييز العنصري في مجتمع متخلف يعيد إنتاج القهر والنظرة الاستعلائية على طائفة من أبناء جلدته بسبب اللون، يقول: «آه.. لو كانت أمي فرنسية أو أمريكية، لكانوا لي احترامًا وخوفًا مبالغًا فيهما»، ما يعني أن الموقف هو من المولد الأسود، وهو موقف سليل ثقافة لا ترى في الأسود غير المعاني السلبية التي هي في الواقع انعكاس لثقافتها العنصرية، فيصبح الأسود ضحية لممارسة أشكال القهر والظلم الاجتماعي، وبمهارة بالغة يتناول الشاطبي الظلم الذي يتعرض له المولدون من أمهات أفريقيات، يذكرنا بخطاب مجابهة هذه الرؤية منذ محمد عبدالولي في «يموتون غرباء».

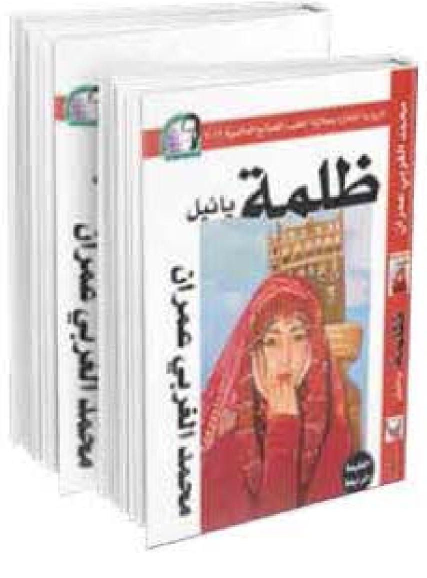
لا يجد الفتى المولد ملاذًا من سخرية المجتمع غير صدر أمه الحبشية، التي تمنحه كلماتها قوة وحكمة في تجاوز شعوره بالانتقاص المستمر من هويته، يزداد شعوره بالاغتراب عن الناس بعد موتها، ويقول له عمه الذي قرر الاستيلاء على ميراثه: «أنت مولد وأمك حبشية وما يحق لك أي ميراث»، وحين يذكره أنه ابن أخيه، ينكر نسبه فيهم قائلًا له «لا.. القبيلي ما ينجب أحباشًا»، فيقرر الذهاب إلى أثيوبيا بحثًا عن عائلة أمه، لكنه يكتشف هناك أنه في قلب معاناة أخرى، مجرد «كلس» أي مولد باللغة الحبشية، ابن لأب يمني من أم حبشية.

- أما تناول موضوع اليهود اليمنيين، فقد بات يشكل أحد أهم ظواهر المشهد الروائي الجديد، ووفق مستويات ورؤى متعددة لليهودي، بداية بحضوره على استحياء في كل من روايتي «ركام وزهر» ليحيى علي الإرياني، في صورة المعلم سالم اليهودي رمزاً للطيبة والخبرة بشؤون القرويين، و«زهافار» لياسر عبدالباقي، التي تقدم صورة لليهودي المتطرف، إلى الغوص في تفاصيل العلاقة باليهودي، في البعدين: التاريخي والثقافي، على النحو الذي صاغته من خلال سؤال الهوية روايتا «اليهودي الحالي» و«بخور عدني» 2014

في مملكة بلقيس.. وحضارة مأرب

لعلي المقري، وفي الأخيرة تناول علي المقري موضوع اليهود في عدن، وغاص في أعماق علاقتهم بمجتمعهم العدني، وكيف أصبحوا أول ضحايا ردة الفعل الشعبية العنيفة بسبب قضية فلسطين، مع تركيزه على خصوصية التعدد والتنوع الثقافي والديني الذي عاشته عدن، يستعيد صورة عدن الكوسموبوليتية في ظل الاحتلال البريطاني، وعلاقة الشخصيات بمختلف أعراقها وثقافاتها ومعتقداتها بالمكان، تتناول الرواية قضية الهوية العابرة لحدود اللون والعرق، وفي إطار سؤال عن هوية العدني، بوصفها نسبة إلى المدينة وليس إلى العرق أو المعتقدات.

وتناولت «ظلمة يائيل» 2011 للغربي عمران اليهود في العمق التاريخي الذي يعود للقرن الخامس الهجري في تفاصيل حياة يهودية متخيلة، امتدت تفاصيلها إلى روايته الأخيرة «مملكة الجواري» 2017، وهكذا تم تسريد حيوات اليهود بوصفهم أكثر الفئات الاجتماعية تعرضًا للظلم الاجتماعي والتهميش. وآخر الأعمال الروائية «حانوت شوذب» 2017 لعبدالله عباس الإرياني، وفي الحانوت تفاصيل الحياة الداخلية لليهود اليمنيين الذين رفضوا الهجرة إلى فلسطين المحتلة، وكيف تحول بعضهم إلى «مهتدين» بدخولهم الإسلام، كاشفة في أثناء ذلك عن الصراع الداخلي في إطار البنية الاجتماعية القبلية السلبية؛ فالرعوي يبقى رعويًا مهما توفرت له شروط الانسلاخ الاقتصادي عن طبقته أو فئته، واليهودي يبقى كذلك يهوديًا مهتديًا حتى إن تحول إلى الإسلام،



وبهذا تقدم نقدًا مباشرًا للواقع القبلي الذي يستند على موروثات اجتماعية سلبية.

- بعد ثورة التغيير اليمنية في الحادي عشر من فبراير 2011، تحول هذا الربيع الثوري إلى ربيع روائي يمني، مُثل سرديًا في كتابات تفاوتت في مقاربتها ورؤيتها لثورة التغيير، كتب عبدالله عباس الإرياني «جولة كنتاكي» 2014 وتحيل إلى المكان الذي جرت فيه مواجهات حاسمة بين شباب التغيير والسلطات، وجاءت رواية «بئر زينب» 2015 لندى شعلان مستندة إلى منظور نسوي اتخذ من جرحى الثورة المنسيين خطًا سرديًا في تناول أحداثها، لم يكن تعاطي الروائيين محايدًا في الموقف من ثورة التغيير، ويبدو أنه لا حياد في مثل هذه الموضوعات الكبرى.

كتبت نادية الكوكباني «سوق علي محسن» 2016، لرصد يوميات الثورة الشبابية وتفاصيلها من خلال عيني طفلين من المهمشين، تدفعهما ظروفهما البائسة إلى ترك التعليم والعمل في أحد الأسواق الشعبية القريبة من الساحة، لا تتجاوز أحلامهما الحصول على مبلغ







بسيط خلال يوم عمل شاق، أو امتلاك عربة بائع متجول صغيرة، يجدان نفسيهما ضمن مرتادي ساحة التغيير، وتتداخل أحلامهم بأحلام الشباب الثائر في الساحة. وتلامس الرواية العديد من الأوجاع الاجتماعية والسياسية: حروب صعدة، عمالة الأطفال، التحرش الجنسي، الفقر والفساد، انتهاك الحقوق والحريات، فشل التجربة الديمقراطية في اليمن، ما جعل الرواية حافلة بسرد تفاصيل الأحداث والشخصيات، وتحولت إلى سجل توثيقي ليوميات الثورة، تحاول أن تثبت ما يمكن تثبيته روائيًا خشية أن يتعرض للنسيان أو التلفيق والتشويه.

تميل رواية «ثورة مهيوب» 2017 للمياء الإرياني في تناولها لثورة التغيير إلى تركيز السرد، وبطلها مهيوب من أشد الفئات الهامشية، يعيش على رصيف عمارة الحاج صالح، وينام بداخل كيس، يرقب من خلال الشارع التحولات التي تمر بها المدينة والناس، وحين شرع شباب الثورة في اعتصاماتهم سمعهم يرددون كلمات كان يسمعها من صديقة الشاب المثقف هزاع، وعندما ذهب إلى ساحة التغيير شعر بالصدمة والخيبة لرؤية العقيد الذي تخصص في نهب الأراضي والممتلكات قد التحق بالثورة، وقرر العودة إلى رصيفه، وإلى كيسه الذي يشكل ترميزًا لكيس كبير من الظلمة والعزلة داخل اليمن.

وواضح أن الروايتين تقدمان صورة للأوضاع التي تسببت في تعثر حلم التغيير في اليمن، اجتياح القبائل والمشايخ والعسكر لساحة الثوار، والذي سيمهد لحرب كابوسية كبرى لم يشهد اليمن مثيلها في تاريخه الحديث.

- لقد تعددت أساليب الكتاب وتقنياتهم في معالجة العديد من الموضوعات، وتنوعت مساحات التجريب الروائي بتعدد اتجاهات الكتاب وخبراتهم السردية، ما يوحي بزغم ربيع روائي، يخرج من عمق المحنة التي يعيش اليمن الآن، والتي تبدو رواية مفتوحة أكثر خيالية وسوريالية وجنونًا مما يمكن أن تحمله رواية مكتوبة إلى القارئ، كما أن من طرائف المشهد الروائي الأخير شعور بعض رجال الساسة والأحزاب والسفراء والوزراء بلذة الرواية، كتب السياسي الشهير ياسين سعيد نعمان «جمعة»، والوزير أحمد الأصبحي «البديّة»، والسفير أحمد الصياد «درويش صنعاء».


وليد دماج


نادية الكوكباني


علي المقري



«الرهينة».. درة أعمال زيد مطيع دماج



حسين عيد

رواية «الرهينة» للكاتب اليمني «زيد مطيع دماج» (1943-2000) التي أصدرها عام 1984، تعتبر من أهم الروايات اليمنية، وربما أهمها على الاطلاق، والتي سرعان ما احتلت المكانة التي تليق بها حين تُرجمت الى عديد من لغات العالم، وصدر لها ست طبعات منها «كتاب في جريدة» سبتمبر 1998، وأخرى ضمن اصدارات «مكتبة الأسرة» عام 2000، ورغم أن «زيد مطيع دماج» نشر قبلها مجموعتي قصص «طاهش الحومان» (1973)، و«العقرب» (1982)، كما نشر بعدها ثلاث مجموعات قصصية أخرى: «الجسر» (1986)، و«أحزان البنت مياسة» (1990)، و«المدفع الأصفر» (2001)، إلا أن روايته الوحيدة ظلت درة أعماله.



تجربة رهيبة

هـو مـن مواليد قرية «المجهرة» بناحية السياني بمحافظة آب. عاش في أتون تجربة رهيبة من اليمن القديم خلال فترة حكم الإمام الطاغية «يحيى حميد الدين» - حيث كان رجال الامام ليضمنوا ولاء المشايخ الذين يعارضون حكم الطاغية يأخذون أبناءهم كرهائن - فعانى زيد خوفًا يكاد يكون طاغيا نغّص عليه حياته، وربما لازمه قلق مستمر وهاجمته كوابيس كئيبة مزعجة نتيجة هذا الوضع الرهيب خاصة، وأن ابن عمه الأكبر سبق أن أخذوه رهينة. هكذا انصهر زيد في بوتقة تلك التجربة المرّة خلال مراحل طفولته وصباه وشبابه، فغوّرت بين حناياه، واستقرت في أعماقه فكانت – في النهاية – عبئًا ينوء به كاهله مع مرور الأيام وانقضاء العمر.

والآن، اذا شئنا أن نتفهم كيف كانت طفولة «زيد مطيع دماج»، من الأرجح أنـه كـان يتنازعه تـيـاران متقابلان، أحدهما خارجي يمثله نظام الإمـام، وهـو حكم عـدائي مهيمن له وجود ظاهر طاغ ملموس، يستشري جنوده في الآفاق يثيرون الرعب وينشرون الدمار ويختطفون أطفال المشايخ أو يعتقلون أقارب المعارضين، حتى تبارى المواطنون في نقل الحكايات وتبادلها حول سطوتهم وجبروتهم.

والثاني تيار داخلي للأسرة، وهو دافئ حبيب يمثل المـلاذ والملجأ. كانت الأم تجتهد في محيط هذا التيار من أجل المحافظة عليه فتتفنن في وسائل إخفائه بعيدًا عن الانظار، وتضطر في أثناء ذلك



زيد مطيع دماج



إلى إصدار أوامر تنهى عن المحظورات، ليظل الطفل في نهاية المطاف موزّعا بين نارين: سلطة غاشمة كارهة للبشر تهدف إلى اعتقاله، وسلطة حنون تبعده بكل ما في جعبتها من حيل عن مواطن الخطر وإن كانت تحدّ - في ذات الوقت دون أن تدري – من أن يعيش طفولته بكل مافيها من عفوية وانطلاق!

وحين كبر الطفل اضطر أبوه إلى أن يلحقه بمعلامة القرية، وأن يتعهده خلال دراسته الابتدائية بالرعاية. واختار عام 1944 ليرحل إلى «عـدن» ليناضل ضد الإمام من هناك.

وهناك تياران آخران يؤثران في حياة الطفل زيد، هما تيارا غياب وحضور. ظهر الأول في غياب ابن عمه «أحمد» الذي اختطفه رجال الإمام وحولوه الى رهينة، مجسدًا الخطر المحدق بمن ينضم إلى زمرة المعارضة في «عدن».

ورغـم أن تصرف الأب كان إيجابيًا كقدوة وحلم مرتجى للصغير، فان غيابه كان مؤثرا كأب له دور أساسي في التربية. يقابل هذا الغياب حضور رجال الإمام الذين تفشت إشارات وجودهم في كل مكان، وان قلّص من سطوته حضور مجسد للأم الحضن والملجأ والملاذ. وربما رتب كل ذلك تغييبًا للطفل زيد عن عالم الطفولة الذي يعيشه أترابه، وحرمانًا من أن ينهل من مباهجه.

اغتراب

وربما مع ارتفاع مدّ نضال الأب وازدياد بطش الامام بأعدائه من رجاله وجنوده، تم الاتفاق على أن يهجر الصبي اليمن بأكمـلـه عام 1958 ليسـتقر مغتربًا في

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

محافظة بني سويف بجنوب مصر، حيث أكمل فيها تعليمه الاعدادي ونال منها شهادة الاعدادية، ثم حصل على شهادة الثانوية العامة من مدينة طنطا بوسط دلتا النيل، ليلتحق بعدها بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ومنها انتقل بعد سنتين إلى كلية الآداب لدراسة الصحافة. لكنه ظل خلال تلك السنوات يشده حنين لا ينقضي إلى اليمن الحبيب الذي اضطر إلى الاغتراب عنه، وإن خفت حدّة قسوة تجربة طفولته وصباه التي ناء بحملها في اليمن بعد أن أحكمت قبضتها عليه، ولم يملك الفكاك منها الا بالاغتراب الذي كان فاتحة خير عليه حين منحه فرصة استكمال تعليمه، وفتح له باب التفكير في مستقبله وكيف سيكون، وتأمل تجربة طفولته وصباه وتقصّي أبعادها المختلفة على ضوء الواقع الحالي.

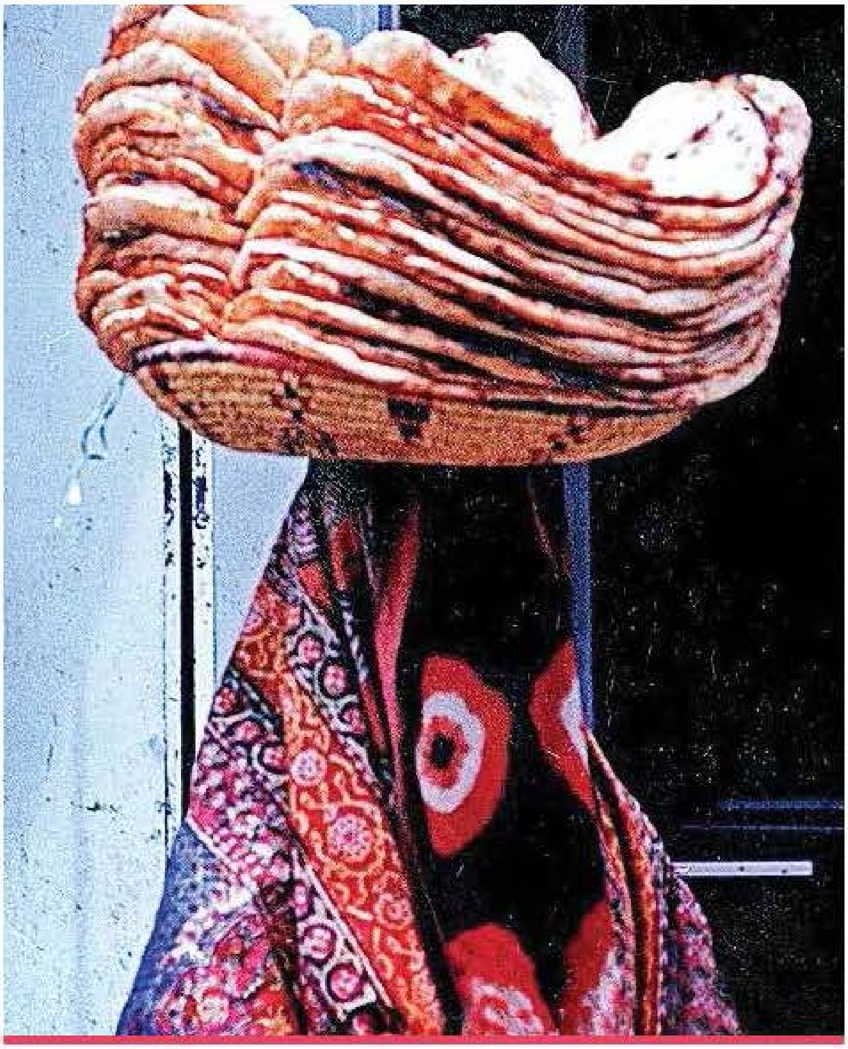
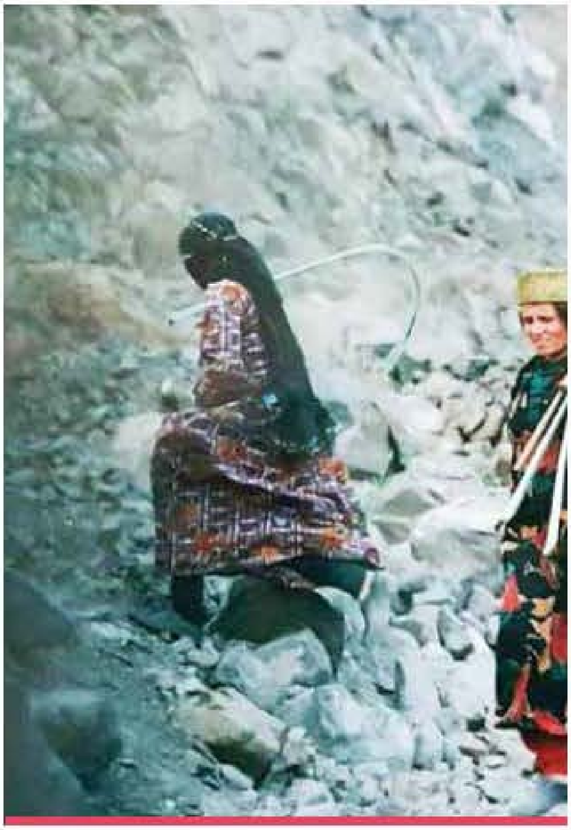


بين الواقع والابداع

أتاح نجاح ثورة اليمن في سبتمبر 1962 لزيد أن يعود الى أرض الوطن، وأن يساهم بقسط وافر في أنشطته، تارة حين انتخب عام 1970 في أول برلمان في الشطر الشمالي ممثلًا لناحية «السياني» حيث ولد ونشأ. وإن سمحت هذه العودة لموهبته الأدبية أن تنبثق وتتدفق، فأصدر مجموعته القصصية الأولى «طاهش الحوبان» في عام 1973، ولعل تعيينه وزيرًا مفوضًا وقائمًا بالأعمال في الكويت عام 1980، هو ما أتاح له الوقت اللازم للإبداع فأصدر مجموعته الثانية «العقرب» في عام 1982، التي أدت إلى الاعتراف بموهبته اللافتة، وبوجوده ككاتب متميز.

ولكن خلال كل تلك السنوات ظلت تجربة زيد الرهيبة التي عاشها طفلًا حية داخله بعد أن ترسبت واستقرت في أعماق ذاكرته، وراح يحملها كصليب ينوء به كاهله، تطارده أصداؤها أنّى ذهب، ربما لأن ظروف حياته لم تتح له أن يتفرغ لها.

لكن مع بداية حقبة الثمانينات، ومع الاستقرار في العمل الدبلوماسي، وحين أشرف على الأربعين من عمره، وبما

اكتسب من خبرات خلال حياته العملية والأدبية ساهمت في بلورة رؤاه الداخلية للحياة والكون من حوله، أصبح الطريق ممهدا كي يتصدّى لتجربة طفولته وحياته داخل صومعة عالمه الفني، تلك التجربة التي أرقته طويلًا، وولّدت لديه خوفًا مقيمًا من أن يختطف كابن عمه ليصبح رهينة. وكان الوقت قد أزف كي يواجه ذلك الرعب القديم الذي تلبّسه سنوات طويلة وأن يخوض غمار معركته عبر مخيلته الإبداعية. وربما في تلك اللحظة ومضت في ذهنه أن يتقمص أخيرًا دور الرهينة الدويدار الجديد في قصور الإمام قادمًا من معتقل الرهائن في «قلعة القاهرة» بالمدينة. والدويدار هو صبي حاضر البديهة يستخدمه الأمراء والحكام في قصورهم حتى يبلغ الحلم. وهكذا بدأت رحلة الدويدار الجديد الرهينة إلى قصور الإمام بكل ما يمكن أن يواجهه في الخيال مكتوبًا على الورق. وبذلك ولدت شخصية الدويدار الجديد السارد الرئيسي للرواية، وهنا تبرز الشخصية الروائية الثانية وهو الدويدار القديم أو الحالي، وتكون نقطة بدء الرواية هي لحظة اللقاء بينهما ليتابع القارئ منذ تلك اللحظة مايجري داخل قصور الإمام، ليروي لنا تلك الأحداث التي لم يعشها أبدًا في الواقع، وإن حوّمت أصداؤها كثيرًا في حياته.

لكن يلاحظ أنه ربما استفاد من تجربة ابن عمه «أحمد» كرهينة سابق في قصور الإمام، فكان مصدرًا أساسيا للمعلومات عن قصور الإمام وكيف تمضي الحياة فيها، أو ربما أفاد من تجربة ابن عمه فكان يرجع إليه كلما توقف دفق الإبداع أو غابت عن ذهنه تفاصيل لا يعرفها، كأنه قبل أن يبدأ الكتابة قام بعملية بحث ضرورية لمثل هذا النوع من الروايات، لعب شقيقه دورًا رئيسيًا فيه.

تُقدّم الرواية من زاوية صبي يافع، بلسان حكي عذب، تلقائي، سلس، يتسم ببساطة مدهشة. لم يُعرّف الصبي باسم معين ليصير أنموذجًا ورمزًا لكل أطفال العالم. وكان زيد موفقًا في تقديم بطله في هذا العمر الذي يمثل فترة انتقال من الطفولة بعبثها الخيالي

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

إلى مرحلة الشباب، حين تبزغ شخصية الفتى وهي تتشكل على أول مدارج الرجولة بكل ما يحيط بها من اعتزاز بالذات.

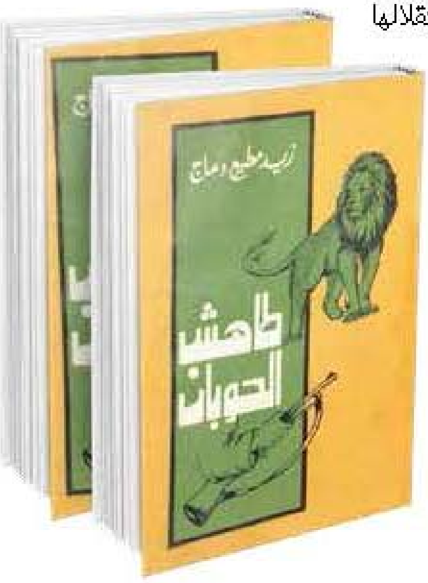
علاقة حب

بدءًا من مفتتح الرواية تبدأ علاقة حبّ بين الدويدار الجديد والشريفة حفصة، أخت نائب الإمام من أم أخرى، وهذه العلاقة هي محور الرواية الأساسي، ومركز ثقلها. علاقة بين قطبين متقابلين، متوترة، متوهجة دائمًا، لا ترتوي أبدًا. هو قادم من قرية فقيرة مستكنة في حضن جبل، وهي ابنة المدينة، سليلة القصور، كبيرة المجتمع. هو صبي يافع لم يبلغ الحلم ولم يعرك الحياة، وهي امرأة مطلّقة مجربة محنكة. هو خام جاد بحكم قسوة الحياة في القرية أو في قلعة الرهائن. هي مدللة تشعر بقوتها وتستمد استقلالها من ثروتها التي خلفتها لها أمها. هو خجول وديع صموت معتز بشخصه، وهي جريئة جبارة عنيدة جامحة.

أتيح له أن يقترب منها، بعد أن اختارته دويدارًا لها، فحدث أول احتكاك حين دعته لتعرفه على القصر فأخبرها أن الدويدار الحالي قد قام بذلك فعلًا، فثارت عليه، إذ كيف له أن يعترض مشيئتها، وجذبته من يده بجلافة لتعرّفه على أركان القصر، دون أن تهتم بنظرات الآخرين.

ثم بدأت تستخدمه كرسول يحمل رسائلها وهداياها إلى شاعر الإمام الذي يخيل إليها أنها تهواه. وقد فهم الصبي ذلك بعد أن أخبره صاحبه الدويدار الحالي، بعد فترة من تعارفهما، أن الشاعر لايحبها لأن لديه عشرات من المعجبات، لكنها تحلم بالشهرة وتحب التحدي.

وفي اللقاء التالي له معها، طلب اعفاءه من المهمة لأنه «لا فائدة ترجى»، «فلديه ما يشغله عنك»، «وأنت تحلمين ولا تحبين». فإذا بها تثور وتغضب وكان رد فعلها عنيفًا حين أمرت أن يسلسل ويقيّد ويحبس، وتم لها ما أرادت، ثم تدخلت حتى أعفي عنه، لكنه رفض أن تفك أغلاله.



وهكذا كانت العلاقة بينهما تتأرجح بين شدّ وجذب: هي تحاول أن تخضعه لسلطانها، وهو يقاوم ويبتعد وإن كان يحترق شوقًا إليها. وحين رآها سادرة في غيها، تتعلق بأي وسيلة لاستمرار علاقتها مع شاعر الإمام، وكان قد بلغ الحلم، انفلت



عياره وراح يمارس سطوته هو الآخر مع حريم القصر، كما الدويدار الحالي، وإن داخله إحساس باحتقار الذات لمسلكه المشين.

وحين وقع في خطأ غير مقصود مع غلام ولي العهد المدلل، دافعت عنه الشريفة حفصة بقوة، حتى برّئت ساحته فكان ذلك إيذانًا بالاقلاع عمّا يفعل، فأخبر نائب الإمام بأنه بلغ الحلم، فضمه إلى معيته خادمًا شخصيًا له.

وحين مات الدويدار الحالي، حضرت معه مراسم دفنه. ولمّا انفردا، في الخلاء، قرب الغروب، أعلمها بعزمه على الرحيل، فرفضت أن تتركه وطالبته أن يصحبها معه، لكنه كان قد وعى طبيعة تكوينها والفارق بينهما وأنها لم تكن تحبه فعلا، فانفلت هاربًا وهي تقذفه بالحجارة، وحين توقف لاهثًا بعد فترة، تواردت خواطره: «كنت قد قطعت مسافة كافية في طريق جديد مؤد إلى المستقبل، مخلفًا ورائي صوتها المبحوح المحبب إلى قلبي».

ومن أجواء الرواية

- «لم تبخل عليّ الشريفة حفصة بشيء. منحتني الملابس النظيفة فكونت المظهر اللائق بها وبي، ومع ذلك كنت أريد أكثر من ذلك، لكنها كانت تتعالى كومضة برق».

- «السجين المقيد مرتاح أكثر ممن هم سجناء غير طلقاء بلا قيود في هذه المدينة فلا مشاكل ولا هموم يعانون منها فعذرهم واضح بأنهم سجناء مقيدون لاحول لهم ولاقوة»

- «لا أدري كيف تذكرت مقيل والدي وما كان يحكيه عن عشق عمر بن أبي ربيعة للشريفة سكينة بنت الحسين».

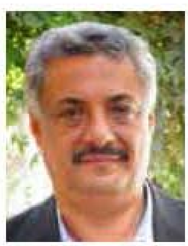
- «مارست مع صاحبي جميع هواياته ورذائله القذرة واندمجت في عالمه الغريب حتى كاد يغار مني! فقد تعلقت بي النسوة المتعددات المواهب والمتنافرات أشكالًا وألوانًا و أعمارًا ، فقد سئمن من صاحبي لسعاله الشديد ونحوله الشاحب، وخوفهن من ذلك المرض المرعب».

- «كدت أشفق عليه. بل أشفقت عليه فعلًا وهو يتلوى في مكانه كحية جريحة، وقد تحول سعاله إلى فحيح مكبوت لكي لا يزعجني. كنت أوهم نفسي وباقتناع تام بأنني أدرأ عنه أعباء لم يعد قادرًا على تنفيذها ومواكبة السير فيها كما كان في أيامه السابقة، ومع ذلك أحسست باحتقار لنفسي ولمسلكي المشين».

- «منذ فترة لم يطرق أذني ذلك الرنين الساحر الصادر عنها كم هو رائع. في بلادي التي حكيت لها عنها العجاب استضعفوني واعتدوا على أسرتي وصادروا كل شيء، مسخوني إلى رهينة ودويدار ثم خادم في بلاطها وبلاط أخيها النائب

لكن صوتها الريان ينزلق الآن في رفق ويحول الصدى إلى موسيقى ذات أنغام حالمة».

الشعر باب ثالث لبلدٍ باحثٍ عن سعادته



محمد عبدالوهاب الشيباني

في اليمن أبـواب كثيرة، غير أن بابين اختزلا ثنائية البلد المشقوق والدامي، فالأول باب انفتح على الماء وكان اسمه «باب عدن»، الذي أبصرت منه المدينة الكوزموبوليتية العالم لأكثر من قرن من الزمن، فأبصرها اليمنيون بدورهم درة الدنيا وهي كذلك.

أما الباب الذي انفتح على الجغرافيا الشائكة، فكان أيضًا يشير إلى الماء، لكن من الجبل الأقصى في الشمال، فـ«باب اليمن» ليس إلا إشارة إلى الجنوب كموضع جغرافي، وليس كهوية بعيدة وغريبة في البلد المنغلق.

بابان اختزلا المرموز التاريخي والجغرافي لبلد لم يزل يبحث عن سعادته، التي فرَّط بها المتحاربون والمنتفعون. ومن البابين هذين يريد اليمن أن يغادر منذ أمد طويل وهنه إلى الأبد، ومنهما أيضًا يرغب في الولوج إلى نفسه، لاستبصار تضاريسها المتشعبة، التي صيَّرتها رغائب الدم وضغائن الأخوة ركامًا من الألم الشقي.

قصيدة الدم الطويلة.. دليل الساحة الشعرية اليمنية في ظل الحرب



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب





عبدالله البردوني

ما يجعل مدخلًا إنشائيًا بهذه اللغة الغنائية، لازمة للحديث عن الشعر، هو أن انعطافات مهمة في تاريخ اليمن المعاصر كان للشعراء قولهم المختلف، فيما يرغبون أن يكون عليه يمنهم، الذي انغلق طويلًا في الشمال، ورزح ليس بالوقت القليل تحت هيمنة المستعمر واستبداده في الجنوب، قبل أن تُصيِّره استقطابات الحرب الباردة وجهين متقاطعين في السياسة وشعاراتها، التي أشعلت بين الأخوة حربين نظاميتين في عقد واحد، وعشرات حروب الوكالة في خمسة عقود، قبل أن تتلملم جميعها في صورة بشعة لحرب ضروس، أتت على كل شيء، بما فيها أحلام الشعراء.

شعراء وتنويريون باكرون

تأسست المعارضة الباكرة لنظام الإمامة في الشمال بعيدًا عن الحواضن السياسية، المختزلة في الأحزاب والتنظيمات السرية بسبب الانغلاق، الذي فرضه نظام الحكم على البلد شديد الوعورة والتخلف، وتعينت هذه المعارضة، على هيئة مبادرات لأفراد انطلقوا من موجبات دينية، اقتضت منهم لعب أدوار النصح لإصلاح النظام، فلم يمتلكوا من وسائل لإيصال أصواتهم غير القصائد، التي بُثت في ثناياها مطالبهم في الإصلاح ، وبدأت هذه اللحظة كمفصل شديد الوضوح بُعيد الحرب اليمنية السعودية في 1934، التي انهزم فيها الجيش النظامي، وفقد فيها اليمن أراضٍ من شماله.

هذه الكارثة جعلت هذا الصوت يعيد حساباته في فكرة الاستقلال، التي كان يتغنى بها نظام الإمام يحيى، فبدأ يُعبِّر عن سخطه بوضوح، مجاهرًا بالنقد من باب النصح الناعم، قبل أن يتحول إلى صوت تحريض وتثوير.

هذا الصوت بتجلياته ومستوعباته المتعددة، من شعراء ومثقفين دينيين وكتاب، كان النواة الصلبة لشكل المعارضة المنظمة، التي ستجد في مدينة عدن ملاذها الأول بتشكيل


علي أحمد باكثير


حسن اللوزي


نبيلة الزبير

حزب الأحرار اليمنيين 1944، الذي كان المثقفون التنويريون والشعراء أبرز مؤسسيه.

وفي هذه الفترة تقريبًا ستشهد حضرموت صدور ديوان «ولائد الساحل» للشاعر حسن بن عبيد الله السقاف، الذي تشير مقاربات من كتبوا عن بواكير الريادة الشعرية، أنه اقتفى أثر أستاذه باكثير في كتابة القصيدة اللاوزنية، فعدوه رائدًا. ويستدلون في ذلك إلى بضعة نصوص «مرسلة» في مجموعته، التي لم تغادر في مجملها مزاج الكتابة التقليدية الوزنية وأغراضها.

وبعد فشل حركة 1948، التي عرفت في أدبيات السياسة بالثورة الدستورية المجهضة، دفع كوكبة متقدمة من هؤلاء التنويريين وفي مقدمتهم الشعراء ثمن مغامرتهم الأكثر خطورة في البلد المغلق والمخذول، حين عُلِّقت رؤوس بعضهم في ميدان بصنعاء، أما البقية فقد غُيبوا في سجون حجة المظلمة لسنوات طويلة. ومن خرج منهم معافى فقد صيَّرته الأقبية ومرارات الانكسار أكثر تدجينًا وطواعية.

الخارج حاضنة للوعي الجديد

في هذا العام تقريبًا (1948) سيكون ضمن البعثة التعليمية اليمنية في مدارس المقاصد الإسلامية في لبنان وتاليًا في بني سويف المصرية، طالب شاب من تهامة اسمه «إبراهيم صادق»، ستُنضج السنوات وتحزبه الباكر تجربته الشعرية ليكون ضمن طلائع الشعراء الذين انحازوا لكتابة القصيدة الجديدة على نحو ما كتب في 1954، قصيدته الشهيرة «عودة بلقيس» التي تسمَّت بها مجموعته الأولى والوحيدة.

حدث شعري لافت سيتخلق بعدن في العام 48 أيضًا تمثل في صدور الديوان الأول لأحد رموز اتجاه الشعر الرومانسي في اليمن، ألا وهو «لطفي جعفر أمان»، حمل عنوان «بقايا نغم»، بعد رحلته الدراسية في السودان، وفيه سينشر بعض نصوص غير تقليدية.

ومع الوقت سيطور من أدواته وانحيازه التام للقصيدة الجديدة، إذ لن تحتوي مجموعته الأخيرة على أي نص عمودي.

في فترة الخمسينات ومع لحظة المد الثوري وبروز الخطاب القومي، تعددت المنابر وانتشرت المطابع في مدينة عدن، واتسعت دائرة بعثات الطلاب إلى مدن مصر على وجه الخصوص، وهنا بدأ تأثير القراءات التفاعلية للشعر الذي روَّجته العواصم على العديد من الشعراء في بواكيرهم الأولى، التي تردد كتَّابها في الإفصاح عنها بسبب السطوة التي ظلت تمارسها القصيدة البيتية على نصوصهم، وإن كانت بعض قصائد «محمد أنعم غالب» قد بدأت بالتداول حين كان طالبًا في القاهرة أوائل الخمسينات، والتي ستجمع بعد ذلك بوقت طويل في ديوانه الأول «غريب على الطريق» الصادر عام 1974،

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

الذي قال عنه الشاعر والناقد عبد الودود سيف «إن لم يكن هذا الديوان أخطر ديوان يمني صدر خلال العقود المنصرمة، فهو من أهم وأخطر دواويننا اليمنية، فكيف مر علينا مرور الكرام إذن؟؟».

وفي ذات الفترة سيبرز شاعران رائدان هما: «عبده عثمان محمد»، و«علي عبد العزيز نصر» اللذان يحسب لهما قيامهما بالتجريب الواعي في شكل القصيدة الجديدة منذ منتصف الخمسينات.

الثورة وشعراء الستينيات

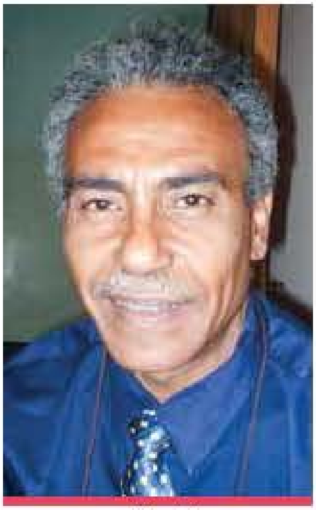
مع لحظة التحول الأكبر في تاريخ اليمن المعاصر مطلع الستينيات، بدخوله مرحلة الثورة، سيتاح للشعراء الشبان التعبير عن الحلم المختلف المستولد من هذا الحدث بشعر جديد، أو كما يقول عبد العزيز المقالح: «لقد أصبح الشعر عندنا حلمًا بتغيير اليمن والقصيدة والعالم».

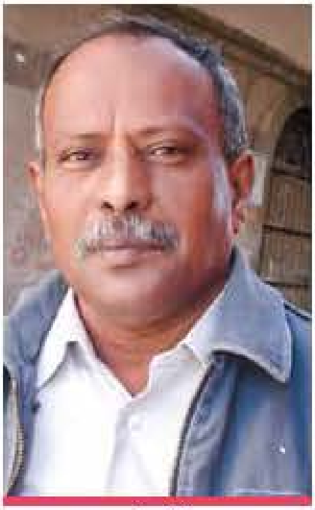
لهذا ستنهمر النصوص الجديدة كتعبير عن لحظة التحول عند أغلب شعراء الاتجاه التجديدي السابق ذكرهم، مُضافًا إليهم «القرشي عبدالرحيم سلام» والشاعر «عبدالله سلام ناجي»، ومع هؤلاء سيجري «عبدالله البردوني» أهم التحديثات البنائية واللغوية على قصيدة العمود، ليصير -ولأربعة عقود تالية- صوتها الأوحد، القادر على إقناع جمهور القراءة بحيوية هذا النوع من الشعر وديمومته، لاقترباته الحادة من النبض اليومي للشارع ومشاغله السياسية، بلغة مدهشة غير متخشبة.

السبعينيون.. الخروج الكبير

يحسب كثيرًا للشعراء السبعينيين أنهم كجيل استطاعوا كسر العزلة الطويلة، التي عانتها أصوات سابقيهم من الشعراء بسبب حالة الانغلاق التي فرضها نظام الحكم، وانعدام منابر التوصيل، مستفيدين من جملة عوامل منها: الاستقرار السياسي النسبي الذي شهدته البلاد شمالًا وجنوبًا بعد أن وضعت الحرب الجمهورية الملكية أثقالها، وكذا التسوية الأولى لاحتراب الشطرين- وعودة الكثير من الطلاب المبتعثين ومنهم شعراء وكتاب معروفين، إلى جانب تأسيس العديد من المنابر الثقافية، وعلى وجه الخصوص الدوريات المتخصصة بالموضوع الثقافي


عبدالودود سيف


شوقي شفيق


مبارك سالمين


عبدالوكيل السروري

ومنها: «مجلة الحكمة» التي أعاد «عمر الجاوي» إصدارها باسم اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بعدن عام 1972، و«مجلة الكلمة» التي أصدرها في مدينة الحديدة محمد عبدالجبار في الفترة ذاتها، إلى جانب إصدار المجلتين الحكوميتين الرائدتين: «اليمن الجديد» في صنعاء، و«الثقافة الجديدة» في عدن، في فترات متقاربة.

في هذا العقد سيكون الشعري قد خطا الخطوة الأكبر في حسم تردده مع مسألة الشكل لصالح النص الجديد، إذ صار معظم المنتج المنشور في الدوريات والصحف، وكذا محتويات الإصدارات الشعرية نصوصًا جديدة.

وعلى هذا الجيل سيسلط الضوء الأكبر في الدراسات النقدية والأدبية التي انصرفت لاحقًا لقراءة تحولات الخطاب الجديد بمكونه الشعري.

وستبرز في هذا العقد مجموعة أسماء سحبت تأثيراتها على الشعراء اللاحقين في الجيلين التاليين ومنها: «عبد الرحمن فخري»، و«عبدالودود سيف»، و«حسن اللوزي»، و«إسماعيل الوريث»، إلى جانب «عبد الرحمن إبراهيم»، و«عبدالله القاضي»، و«عبدالكريم الرازحي»، و«عبداللطيف الربيع»، و«شوقي شفيق» في بواكيرهم الأولى.

غنائيات الثمانينيين الشاهقة

لم يصل بعض شبان الشعراء الذين تداركوا قليلًا من صهيل خيل السبعينات الجامح إلى عقد الثمانينيات إلا وقد كانت تجاربهم الشعرية أكثر اكتمالًا ونضجًا واستبصارًا لماهيتها الرؤيوية، والحديث سيتركز على الشعراء: «محمد حسين هيثم»، و«جنيد محمد الجنيد»، و«مبارك سالمين»، و«نجيب مقبل»، الذين سيشقون بكثير من المكابدة والتعب طرقهم الخاصة التي تخلصت من اعتلالات الشكل وسقم الغنائيات، التي وقع في شراكها عديد شعراء من أقرانهم الزمنيين، لأنهم كانوا أكثر إخلاصًا لموضوع الكتابة المتخلصة من سطوة البيت وتفاعيل الوزن.

وفي نصفه الثاني ستتشكل موجة ثمانينية لافتة من شعراء مغامرين، سيشكلون بدورهم لحظة تجسير واضحة مع لاحقيهم التسعينيين، ومن الأسماء التي برزت حينها: «أحمد العواضي»، و«حسن عبد الوارث»، و«نبيل السروري»، و«جمال الرموش»، و«علي المقري».

واللافت حضور شاعرة واحدة أكثر إقناعًا بصوتها المكتمل وهي «نبيلة الزبير» صاحبة «ثمة بحر يعاودني».

ما ميز صوت هذا الجيل الشعري هو انذياحة الغنائي البالغ الذي التقط من «محمود درويش» ما بعد بيروت 82 إيقاعه التصويري الشاهق ومن «سعدي يوسف» كثافته البلاغية المخاتلة، في منجزات فردية ظلت تعمل طويلًا في مساق الشعرية الجديدة.

التسعينيون الحلم والانكسار

مع مطلع التسعينيات كان اليمن

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

كجغرافية قد دخل منعطفًا تاريخيًا جديدًا باندماج الشطرين في دولة واحدة، استولد حلمًا فارطًا في رأس كل شخص عاش هذا الحدث، الذي كان حتى قبل أشهر من تحقيقه بعيد المنال.

وكان للشعراء الشبان مغامراتهم الأكثر جرأة في التماهي مع هذه اللحظة الفارقة، لهذا صار الحديث عن كسر تابوهات الشكل، وأصنام الأبوة، ويقين السطوة، أهم أدوات هذه المغامرة، حتى وهي تعبّر عن وجودها باضطراب بائن.

ووجدوا في الحدث مساحة لمعاينة السؤال الوجودي: من نحن؟ وماذا نريد؟

ومع هذا السؤال استطال مفهوم التجييل، الذي تحول في القراءات النقدية إلى مجهر معاينة لخصوصية هذا الصوت باندفاعه الحالم، وتاليًا بارتطاماته الدامية في الصخور الصلدة للواقع العاري، الذي تحول في ظرف أعوام ثلاثة إلى حفرة امتصاصية ابتلعت كل شيء!

وحده الشعر ظل يستنهض حلمًا من ركام السياسة.

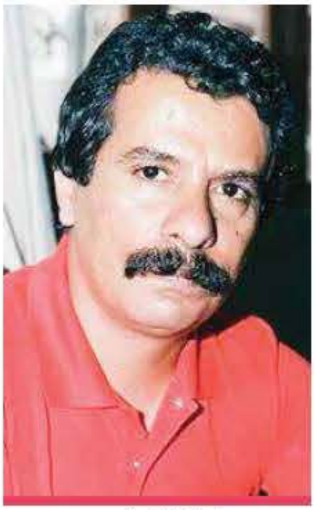
فالانفجار الشعري التسعيني لم يكن فقط في التطييف اللوني للأسماء، ولا في تعدد مرجعيات هذه التجارب الطرية، وإنما في تحول الكتابة ذاتها إلى هجاء للسياسة التي -من شدة سيولتها- لم تعد تغري في تمثلها الكثير منهم، كما كان الحال عند مَنْ سبقوهم من آباء الشعر منذ الثلاثينيات.

فمتلازمة المثقف المناضل والشاعر السياسي، التي حكمت حضور أهم الأسماء الشعرية طيلة الفترات السابقة لهذا العقد تلاشت مع هذا الجيل بسبب سقوط اليقينيات الكبرى. وبدلًا عن شاعرة واحدة يتيمة في عقد الثمانينيات ستظهر في التسعينيات العديد من الشاعرات اللواتي انحزن للكتابة الجديدة.

غير أن اللافت في تجارب هذا الجيل الشعرية هو تلك المتجاورات القاتلة لأشكال الكتابة، إذ سيلحظ متفحص الخارطة الشعرية أن شعراء النثر حضروا جنبًا إلى جنب مع كتاب القصيدة الوزنية، الذين لم يبتعدوا بخطوات واسعة عن كتاب العمود من أقرانهم، ومرد ذلك -حسب ظني- إلى الإرباكات الشديدة في وعي منتجي النصوص، التي ضاعفت من ترددهم في حسم



عبدالرحمن إبراهيم



عبداللطيف الربيع



محمد حسين هيثم



عبدالكريم الرازحي

مسألة الشكل، لأن هشاشة الحوامل المعرفية بتمثلاتها القرائية بدرجة رئيسية عند أكثرهم صنعت هذا الاضطراب.

الآن وبعد قرابة عقدين من الزمن يصعب كثيرًا حصر هذه الأسماء أو حتى الإشارة إلى بعضها، التي بدورها ستغفل الكثير من الأسماء التي يصعب تجاهلها في الأصل. فعندما أنجز في عام 2000 الشاعر والناقد «عبدالودود سيف» الجزء الأول من ديوان الشعر اليمني والمكرّس لشعراء التسعينات، ضمّنه مختارات نصيّة لأكثر من ستين شاعراً وشاعرة محسوبين على هذا الجيل، دون أن يتلافى، رغم جهده الخارق، غياب بعض أسماء حسبت على الجيل ذاته.

الألفيون وارتدادات الموجة التسعينية

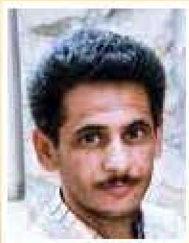
ارتدادات موجة التسعينيات الشعرية ستجرف معها جزءًا كبيرًا من أصوات الشعراء، الذين شكلت سنوات أواخر القرن حواضنهم الأولى، وستجرف معها في الوقت ذاته الجزء الأصيل من ذات الاضطراب، غير أن حسومات الشكل ستسطع هنا لصالح قصيدة النثر الأكثر وعيًا بصنيعتها، والتي بفعل الفضاء المفتوح ومغريات التقانة، ستتجاوز الكثير من عثرات التوصيل التي عاني منها الشعر في اليمن طويلًا، وقد شكل «ملتقى صنعاء الأول للشعراء الشبان العرب» في عام 2004، على سبيل المثال، لحظة قطيعة واضحة -ليس فقط مع التكريس الرسمي للشعراء- وإنما بالقبول بالقصيدة الجديدة «قصيدة النثر» كصوت للشعر المستولد خارج التابو والأبوة، التي رعتها كصيغ وقوالب ولسنوات طويلة المؤسسة الرسمية.

مثل هذه الجرعة المعنوية الكبيرة التي ترافقت مع اجتهادات نقدية تبشيرية بهذا الصوت، جعلت هذا الشكل يتعزز كقناعات للكتابة عند عديد شعراء، لم يكونوا قد حسموا أمر انحيازهم في السنوات السابقة. وستشكل نصوص الهامش ومتجاورات السرد الشعري ورسم الوجوه وتعيينات المكان مشغلات للكتابة الأكثر استبصارًا بماهيتها وإراداتها، بواسطة شعراء صاروا أكثر إحساسًا بزمنهم المفتوح على الجهات الأربع.

وأخيرًا:

مثلما أسمَع شعراء الإحياء الأوائل صرير الضلفة الأولى للباب الصدئ المغلق، وفتح شعراء التجديد في الخمسينات كوة صغيرة فيه لمرور بعض الضوء، وفتحت يد الستينيين الخشنة ضلفتيه الثقيلتين، وخرج منه السبعينيون إلى العالم بكل ضجيجهم، وغنى الثمانينيون على مصطبته طويلًا، وفي ساحته المتقدمة تبلبلت طويلًا أصوات التسعينيين، ها هم الألفيون يطرقونه من جديد، وقد صاروا شهودًا حقيقيين على الثلمة القاسية للحرب، التي غدت تطبِّع وعيهم بقصيدة الدم الطويلة، كما تفعل قصائد «قيس عبدالمغني»، و«جلال الأحمدي» وأقرانهما من الألفيين.

السينما في اليمن.. الوقوف على الأطلال



بلال قايد عمر

أوائل التسعينيات كانت المرة الأولى لدخولي دار السينما التي كانت قريبة من الحي الذي نسكن فيه، وكان الفيلم العربي الأول الذي أشاهده هو فيلم لعادل إمام «مين فينا الحرامي»، وما زلت أتذكر الدهشة التي سيطرت عليّ طوال مدة عرض الفيلم، كان الفضل لدخولي السينما هو أخي الأكبر، في حين كان عمري وقتها لا يتجاوز خمس عشرة سنة.

استمرت دور السينما تعرض كل جديد من الأفلام الأجنبية والعربية حتى عام 1994 عند اندلاع حرب الوحدة، ومن بعدها تم تدريجيًا إقفال دور السينما بسبب حرب الوحدة التي أدت إلى سيطرة الجماعات الدينية على معظم مفاصل التعليم، وممارسة دور الواعظ والمهدد من الانفلات الأخلاقي بسبب السينما ونوادي الألعاب.

وما أن دخلنا العام 2004 حتى كانت دور العرض كلها مقفلة.



تأريخ السينما في اليمن

«يعود تاريخ دُور السينما في اليمن ودورها إلى مطلع القرن الماضي، حيث تأسست أول دار للسينما في عدن، من أصل 49 دار عرض سينمائي في اليمن» حسب الإحصائيات المنشورة في معظم وسائل الإعلام.

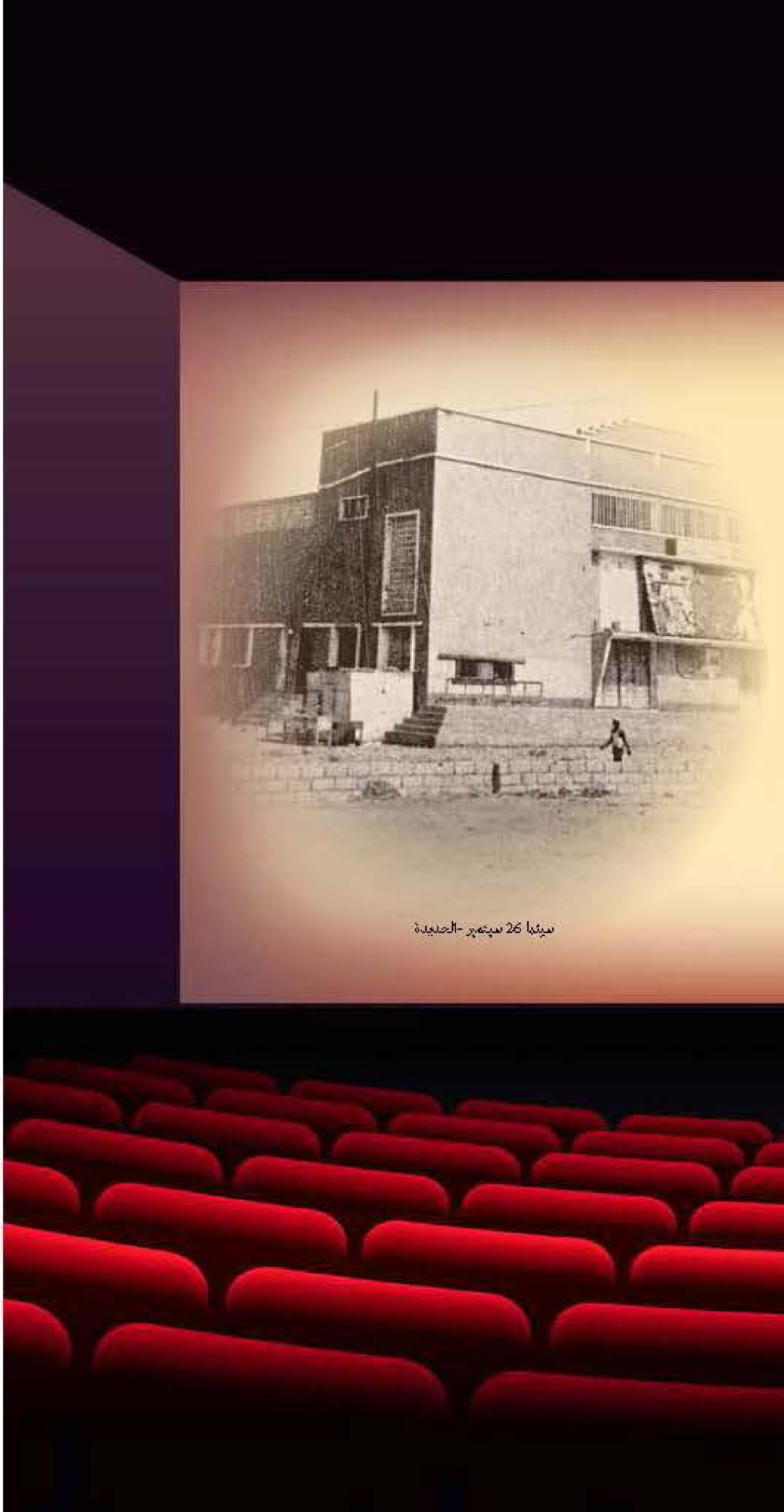
في حين بعض الإحصائيات تقول 43 دار عرض فقط، كما قالت مجلة «معين» في العدد 200 الصادر عام 1997.

كانت عدن صاحبة النصيب الأوفر لدور السينما، ففي الوقت الذي كانت توجد في صنعاء 5 دور للسينما، ومدينة الحديدة في حدود 7 دور عرض ومدينة تعز 7 دور عرض تقريبًا، كذلك مناطق تعتبر هامشية مثل مدينة«بيت الفقيه» و«يريم» و«حيس» و«باجل» و«المخا» و«لحج» و«الضالع» و«أبين»، كانت عدن تضم نحو 3 دور عرض سينمائي.

تعتبر عدن من أوائل الدول العربية التي بدأت العروض السينمائية، فقد كان أول عرض سينمائي صامت مفتوح أقيم في عدن عام 1910 على يد، مستر حمود.

إلا أن أول فيلم تم عرضه داخل صالة مخصصة للسينما كان في عام 1954 تقريبا، على يد، مستر طه حمود ابن، مستر حمود، الذي أسس فيما بعد أكثر من دار للسينما، منها: «سينما الحديدة، سينما الراديو، والشرقية». وكان يُقدر عدد الجمهور الذي يحضر بانتظام بـ 5000 شخص. وهو عدد كبير بمقياس ذلك الوقت.

ومثلما أسلفنا القول بدأت دُور السينما في التلاشي منذ التسعينيات بسبب التيار



سينما 26 سبتمبر -الحديدة



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

الديني المتشدد الذي جاء يسابق الزمن ليعيد اليمن عشرات السنوات إلى الوراء في مدة وجيزة.

تاريخ من العراقة اندثر بسبب عدم اهتمام الدولة بتطويره ومحاولة الانتقال به من مجرد عرض إلى صناعة السينما.

ففي بدايات إنشاء دور العرض كانت الدولة تدعم استيراد الأفلام وتأجيرها لدور العرض بسعر مخفض، وبعض الدور كانت تستورد لحسابها الخاص لسهولة التعامل حينها مع صناع الأفلام خارجيًا، ثم بدأ العد التنازلي بإيقاف استيراد الأفلام الحديثة، ورفع سعر استيراد الأفلام، والاكتفاء بالأفلام الموجودة، وعدم ضخ أي جديد لدور السينما، وشيئًا فشيئًا لم تعد السينمات تجد ما تعرضه غير تكرار عرض الأفلام نفسها على مدى سنوات، وهذا ما انسحب على الدور نفسها وعزوف الرواد عن دخولها.

ومن ثم تم إغلاق سينما «حدة» و«خالدة» في صنعاء، وعرض المبنيين وما جاورهما من مبانٍ تابعة للشركة اليمنية الكويتية للبيع في صفقة فساد مهولة تحت لافتة الخصخصة. وكانت سينما «بلقيس» قد سبقتهما في الإغلاق حيث باعتها الدولة لمستثمر يمني ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن وهي مغلقة، ولم تبق داخل العاصمة سوى دار واحدة هي سينما «الأهلية» لا تزال قائمة، ولكنها لا تعرض الأفلام بل تعرض مباريات كأس العالم وبعض الدوريات الأوروبية.

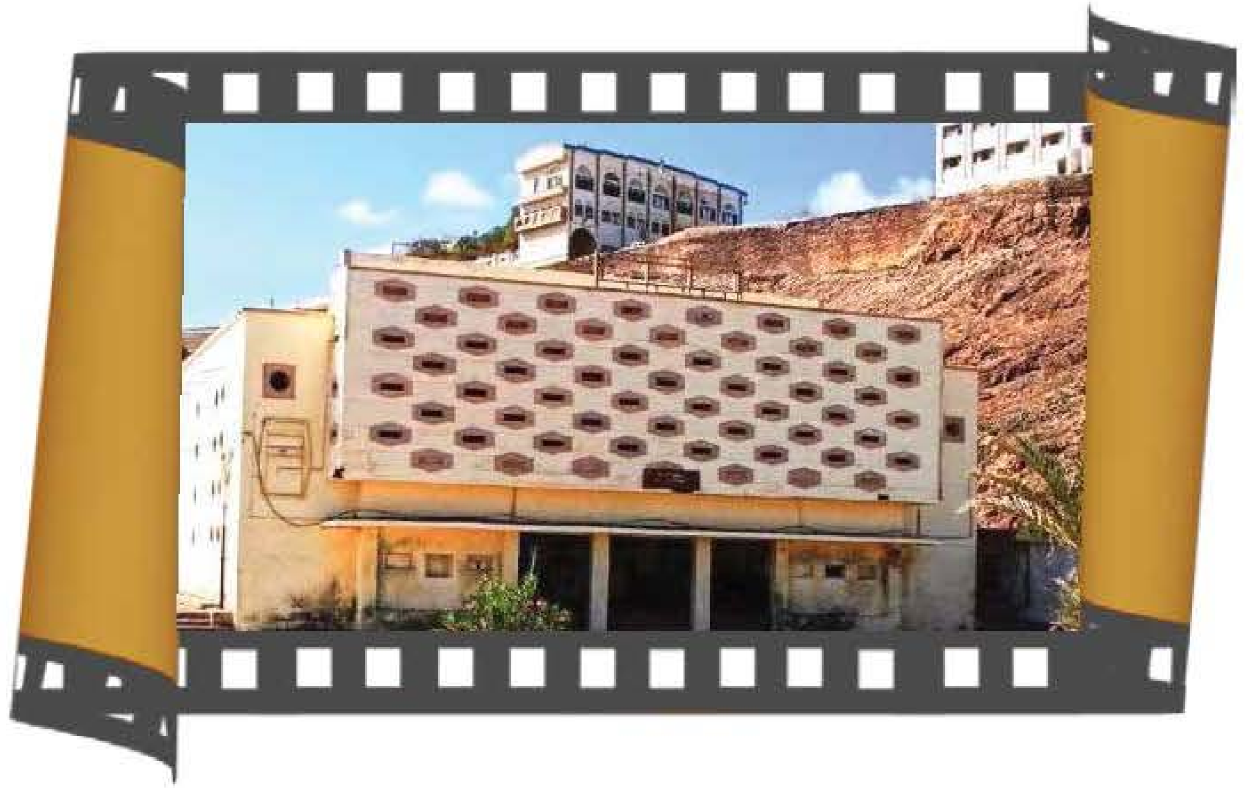
الإمام أحمد كان يستخدم السينما لإخافة الشعب

هذا فيما يخص صنعاء ودور السينما المملوكة للدولة، أما بقية المدن مثل الحديدة وتعز وبريم وإب وغيرها من المدن، فدُور السينما فيها كلها تقريبًا كانت دُوراً خاصة مملوكة للأشخاص، مع وضع خصوصية لمدينة عدن لأن دور السينما كانت مملوكة للأشخاص وتم تأميمها من قبل دولة الجنوب سابقًا، وتم إعادة الدور بعد الوحدة بسنوات لأصحابها وملاكها الحقيقيين.

جيل لا يعرف ما هي السينما

في الوقت الذي يتطور فيه العالم وتتقدم فيه صناعة السينما ودور العرض لتقديم كل جديد من أفلام، تأتي اليمن في ذيل القائمة بالتراجع المخيف فيها وتدمير دور السينما ودورها في رفع الوعي العام للمجتمع. أنهت الدولة دورها في رفد الدور بالأفلام الحديثة، بل وقامت بتعقيد استيراد الأفلام بفعل فاعل.

فقد نشأ جيل لا يعرف ما هي السينما إلا من خلال ما يقرؤه في وسائل التواصل الاجتماعي، كذلك من خلال مواقع الأفلام، ومن خلال الإحصاءات التي تأتيه من خلال القنوات الفضائية. ولا يعرف أن في اليمن كانت توجد دور عرض



وأحيانا دور عرض متنقلة تابعة للتوجيه المعنوي.

الأفلام التسجيلية و الوثائقية

أُنتجت الكثير من الأفلام الوثائقية عن اليمن من قبل البعثات الروسية والإيطالية وغيرها من البعثات العربية والأجنبية، وهي تقريبا 44 فيلمًا وثائقيًا، توزعت ما بين أفلام وثائقية عن مدن يمنية وعن اليمن بصورة عامة، وبعضها عن العادات والتقاليد، وغيرها من الجوانب التي تؤرخ لليمن شعبًا ومدينة.

حاليًا توجد العديد من الأفلام الوثائقية والتي أُنتجت عن طريق أشخاص كمجهود شخصي مثل «ليس للكرامة جدران» وهو فيلم يتحدث عن ثورة الربيع العربي وما حدث في جمعة الكرامة من انتهاك لحقوق المتظاهرين، وهو أول الأفلام الوثائقية اليمنية التي رشحت لجائزة الأوسكار. وأفلام أخرى أُنتجت عن طريق شركات خاصة إعلامية أو منظمات دولية، ومعظمها تتناول الجانب الحقوقي والمعيشي لليمنيين، أشهرها فيلم «أنا نجود مطلقة بعمر10 سنوات»، وهو فيلم حاز على عدة جوائز دولية في عدة مهرجانات في العالم.

ما بين صناعة السينما، والاكتفاء بعرضها فقط

تقول الإحصائيات التي أوردها الصحفي أحمد الأغبري، إن أول فيلم يمني هو فيلم «يوم جديد في صنعاء القديمة». لكن المتعمق في صناعة السينما في اليمن يعرف أن أول فيلم يمني أُنتج في عدن وتحديدًا في العام 1950م، وهو فيلم «عبث المشيب»، الذي تم تصويره في حضرموت، إلا أن هذا الفيلم، لم يُعرض جماهيريًا، وربما أن المصاعب التي تعرّض لها حالت حتى دون الاحتفاظ بنسخة منه، لتنحصر حكايته في معلومات وشهادات قليلة متناثرة هنا وهناك، وهو ما يجعل من الفيلم الروائي «من الكوخ إلى القصر»، الذي أنتجه وأخرجه الفنان جعفر محمد علي، في العام 1963 بعدن، جديرًا بصفة أول فيلم سينمائي يمني، وهو ما اتفقت عليه العديد من الشهادات لمختصين يمنيين، وحسب الإعلامي اليمني الراحل شكيب عوض فإن هذا الفيلم، الذي تم عرضه في العام 1965م بعدن، وكانت مدته أربعين دقيقة قد أُنتج بطريقة بدائية، لكنه استحق صفة أول فيلم سينمائي.

كما أن هناك فيلمًا يمنيًا إيطاليًا مشتركًا صُور في اليمن ومُنع من العرض، بسبب المشاهد الجريئة التي كادت أن تتسبب

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

في أزمة دبلوماسية بين البلدين.

محاولات لصناعة السينما

يبدو للمتابع للفن السابع في اليمن مفارقة عجيبة، ففي الوقت الذي كانت فيه دور السينما تملأ المدن وتعرض الأفلام الحديثة لم نجد أية طموحات لصناعة الأفلام ولو بالحد الأدنى، وقد كانت هناك عدة تجارب لإخراج أفلام تلفزيونية وليست سينمائية، حيث أوردت صحيفة اليمني الأمريكي التي تصدر من أمريكا في مقال للصحفي أحمد الأغبري بعضًا من هذه التجارب.

«تجربة المخرج عبدالعزيز الحرازي في الفيلم الروائي «القارب»، وتجربة المخرج سمير العفيف في الفيلم التلفزيوني الروائي «العُرس»، وهي التجربة التي استأنفها بعد عودته من الدراسة في الصين 2009 في الفيلم الروائي «شيء اسمه الحنين»، وقبل ذلك ولدتْ في 2006 فكرة إنتاج فيلم روائي يمني آخر، هو «الرهان الخاسر» للمخرج فضل العلفي، وهو الفيلم الذي أُنتج حكوميًّا في 2007، وتم عرضه في 2008 بهدف التوعية بمخاطر الإرهاب، وفيلم «كرامة» لسمير العفيف من تأليف فكري قاسم. وهذه الأفلام لا تندرج تحت مسمى الفن السابع كما يقول أهل الاختصاص بالسينما.

في اليمن اليوم.. جيل لا يعرف ما هي السينما

لم تشهد اليمن أي إنتاج سينمائي ولو حكومي لاستغلال دور السينما على الأقل، وإن اكتفت بالأفلام التلفزيونية الموجهة للداخل أكثر مما كانت موجهة للخارج.

والآن في ظل غياب دور السينما واندثارها بفعل فاعل نجد الكثير من الشركات الفنية والشباب اتجهوا إلى طريق إنتاج وإخراج الأفلام القصيرة والتسجيلية والوثائقية، وثمة فيلم روائي واحد أخرجه وليد الجيلاني في عام 2012 تحت عنوان «الأخطاء البريئة» كمشروع





سينما سهيناز

تخرج من كلية الفنون الجميلة في مدينة الحديدة.

وقد حقق الفن السابع في اليمن الكثير منذ أن بدأت هذه الموجة، التي توقفت بشكل كبير بسبب الحرب الدائرة منذ 2015، لكن لا يزال الكثير من الشباب يراهنون على الخروج من نفق الحرب أكثر اكتمالًا ونضجًا في ظل دأبهم المستمر على اكتساب المهارات ومتابعة تطوير أنفسهم، ومؤخرًا نجح المخرج عمرو جمال في إخراج فيلم «عشرة أيام قبل الزفة» حيث نجح في جذب الجمهور لحضور عروض الفيلم، الذي حطم كل التوقعات التي وضعها مخرج ومنتج الفيلم، مما يعني تعطش الجمهور للفن السابع المغيب من كل الفعاليات الثقافية خلال السنوات الأخيرة. حيث يعتبر هذا الفيلم أول فيلم تجاري في اليمن.

ظل هم اندثار دور السينما في اليمن يطل برأسه على الكثير ممن يحلمون بعودتها، وقد حاولوا فعلًا أن يعيدوا ولو القليل من ألق السينما بالبحث عن مشاريع ومنح تتيح لهم الحد الأدنى من الميزانية لعرض الأفلام في أماكن مفتوحة، و نجحت مؤسسة صوت للتنمية في الحصول على منحة بسيطة لعرض مجموعة من الأفلام للعامة في أماكن لا تتسع للكثير بسبب حالة الحرب التي نعيشها وغياب الصالات المخصصة للعروض السينمائية.

تقول سماح الشغدري رئيسة مؤسسة صوت للتنمية: لقد نجحت في تقديم سينما جديدة وشاشة عرض لأفلام كرست للحقوق الإنسانية والحريات الأساسية والديمقراطية، ومعالجة التمييز الحاصل سواء العنصري أو التمييز ضد المرأة .وكذلك قضايا الحرب وأثرها على النساء والأطفال على وجه الخصوص من نواح عديدة، أهمها الناحية النفسية وما تخلفه من آثار وأعراض مجتمعية واقتصادية وإنسانية، لاسيما فيما يتعلق بتجنيد الأطفال وأبعاده السيئة على المستويين القريب والبعيد.

وقامت المؤسسة بعرض 33 فيلمًا على مدى 33 أسبوعًا، وقد خصصت العرض الأخير للمشروع لعرض فيلم للأطفال.

ومن بعد مؤسسة صوت تأسست مبادرة «شفت» المعنية بهمّ السينما، فقد حاولت منذ إنشائها أن تغير نظرة المجتمع للسينما من خلال العروض السينمائية في الشارع والفضاءات الثقافية والتعليمية

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

المستقلة والحكومية، وحاولت أن تنزل للناس لأماكنهم، وأن تحتك بالواقع أكثر، مع عدم إغفال أن تصعد بمفهوم السينما لدى الأشخاص الذين يحملون فكرة سلبية عنها.

أنتجت مبادرة «شفت» فيلمًا قصيرًا بعنوان «حلمي10» بالتعاون مع مؤسسة «رنين اليمن» وأقامت أكثر من 48 عرضًا سينمائيًا لبرنامج سينما شو و20 عرضًا سينمائيًا خاصًا بالأطفال لجذبهم لعالم السينما، وبرنامجًا خاصًا بالشباب من خلال عروض موجهة لهم في مجال صناعة السينما، وكذلك أقامت 8 عروض لكبار السن لإعادة المتعة الجماعية للكبار من سن 40 سنة وما فوق لتعزيز دعمهم لإعادة دور السينما في اليمن.

44 فيلمًا وثائقيًا أنتجتها البعثات الأجنبية

مهرجان اليمن الدولي للأفلام القصيرة

وفي هذا الصدد كان هناك مهرجان للأفلام القصيرة، أقامته شركة «سركل يمن» في عام 2013 واستمر تجدد انعقاده على مدى 3 أعوام، ساهم المهرجان في تشجيع الإنتاج المحلي للأفلام القصيرة، كما ساعد في إخراج وجوه جديدة لعالم الفن السابع.

فبحسب الإحصائيات التي أخذناها من عاملين بالمهرجان كان عدد المتقدمين في العام الأول يقدر بنحو 50 فيلمًا قصيرًا، وفي العام الذي يليه ارتفع العدد لنحو 90 عملًا، أما في العام الثالث للمهرجان فقد ارتفع لنحو 120 عملًا سينمائيًا، وهذا يدل على أن الرغبة والدافع للإنتاج السينمائي موجودان، ولا ينقص إلا الداعم والممول في ظل عدم إيمان رجال الأعمال والشركات بالاستثمار بمجال السينما.

وقد كانت أهم أهداف المهرجان إيجاد فضاء لإبداعات الشباب وخلق روح المنافسة بينهم والتركيز على قضايا تهم المجتمع.





صورة حديثة للسينما الأهلية بصنعاء

وفي هذا الصدد يقول المخرج عمرو جمال إن ميزانية فيلم «10 ايام قبل الزفة» كانت 33 ألف دولار فقط، دفعتها إحدى الشركات مقابل إعلانات في الفيلم وفي الدعاية، في حين حقق الفيلم إيرادات غير متوقعة حتى للقائمين على الفيلم.

مهرجان الفيلم الأوروبي

منذ نهاية التسعينيات اتفقت وزارة الثقافة اليمنية والاتحاد الأوروبي على إقامة مهرجان الفيلم الأوروبي بشكل سنوي في مدن صنعاء وتعز وعدن بالتزامن أو على التوالي، وكانت تعرض في المراكز الثقافية اليمنية وقاعة جمال عبدالناصر في جامعة صنعاء، أما في عدن فكانت تقام في القنصليات، وكذلك إقامة أسابيع للسينما في المراكز الثقافية الفرنسية والألمانية والمصرية، واستمر المهرجان عدة أعوام قبل أن يتوقف بسبب الأحداث الدائرة في اليمن منذ 2011، وكان الحضور يفوق المتوقع رغم أن الأفلام لم تكن تلبي حاجة الجمهور، ولكن لافتقاد الجمهور لدور السينما كان التعويض بحضور هذه المهرجانات، فقد أقيم ما يقارب 13 مهرجانًا سنويًا.

وهدف منظمو المهرجان إلى استقطاب اهتمام الشباب في اليمن واجتذاب عشاق السينما، باعتبار أنها فن يتيح الانتقال من حضارة لأخرى ونقل صورة عن المجتمع الأوروبي المتنوع.

عدن وصنعاء تختلفان حتى الآن على تحديد أول فيلم يمني

حكاية اسم سينما هريكن

تقول الحكاية إنه في الحرب العالمية الثانية قامت بريطانيا بسحب الطائرات التي تحمل اسم «هريكن» الثلاث، والتي كانت تحمي عدن والدفع بها للحرب، فقامت في عدن حملة تبرعات شعبية لشراء طائرة لها، ومن ضمن الحملة أنشأ طه، مستر حمود أول دار سينما وأسماها هريكن.

مع العلم أن أول من أدخل عرض الأفلام في اليمن الشمالي وقتها «كما يقال» كان الإمام أحمد، وكان يتم عرض الأفلام في مبنى دار السعادة، ولم يكن يحضر العرض إلا علية القوم آنذاك. ويقال إنه كان يستخدمها لإخافة الشعب بأنه يستطيع تحضير الجن وقتها.

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

أخرجه عاطف سالم عام 1966

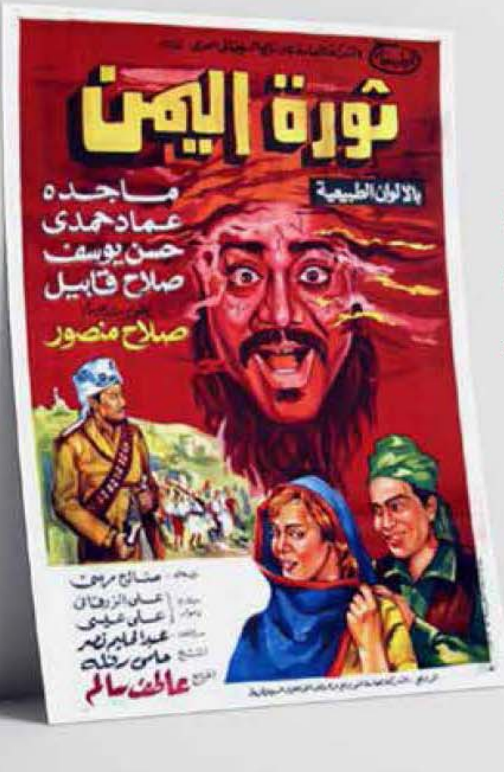
«ثورة اليمن».. فيلم يسخر من الديكتاتور



ناصر عراق

من الأفلام النادرة... لم يشاهده إلا القليل.. رغم أنه يحتشد بالنجوم، فهل يعود احتجاب فيلم «ثورة اليمن» لعقود متواصلة إلى غياب الحاجة التي أدت إلى إنتاجه وعرضه؟ أم لمشكلات فنية وتقنية؟

تعال نتعرف على الفيلم المصري الوحيد الذي تناول الشعب اليمني وثورته ضد البطش والظلم والفقر عام 1962.



كتب قصته صالح مرسي مؤلف «رأفت الهجان»



جمال عبدالناصر



عبدالله السلال



حسن البارودي وحسن يوسف في مشهد من «ثورة اليمن»

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

الظلال التاريخية

عرض فيلم «ثورة اليمن» للمرة الأولى في 22 يونيو عام 1966، أي في أوج الانتصارات الناصرية، وقبل أن تدق هزيمة 1967 رؤوس الجميع بعام واحد فقط، وبدون الدخول في التفاصيل التي دفعت عبد الناصر إلى مساندة ثورة الشعب اليمني ضد حكم الإمام في سنة 1962، إلا أننا يجب أن نعرف أن اليمن في ظل هذا الحكم كان أسيراً للعصور الوسطى، وكان الإمام أحمد حميد الدين -وابنه محمد البدر- آخر حكام اليمن يمثلان عقبة أمام دخول الشعب إلى العصور الحديثة، الأمر الذي يؤكده المثقفون اليمنيون كلما سألتهم عن هذه الحقبة البائسة -كما يقولون- في الزيارتين اللتين قمت بهما لصنعاء الجميلة، وأذكر أن وزير الثقافة اليمني السابق خالد الرويشان، وهو مثقف كبير أخبرني، ونحن في مجلسه بصنعاء عام 2008 أن أحد الأطباء البريطانيين عرض على الإمام حلًا عام 1945 للقضاء على الجراد الذي يهدد الصحة العامة للناس هناك، فإذا بالإمام يطلب من مرؤوسيه أن يحضروا صحنًا به جراد، فتناول واحدة، وقال للطبيب: «لا نريد التخلص منه... نحن سنأكله!».

صلاح منصور تقمص دور الحاكم الشهواني ببراعة مدهشة

من هذه الأجواء الاجتماعية القاتمة أرسل عبدالناصر الجيش المصري ليدعم



ماجدة وحسن يوسف في لقطة من الفيلم



صالح مرسي



عاطف سالم



صلاح منصور

ثورة الشعب التي اندلعت في 26 سبتمبر من سنة 1962 ضد طاغية هبط فجأة من العصور الوسطى ليحكم شعبًا عريقا في القرن العشرين! ورغم تحالف بعض الدول القليلة مع الإمام الابن بعد موت الإمام الأب، فإن الشعب نجح في النهاية في الإطاحة بالمستبد وأقام دولته الحديثة، لكن بعد حرب دامت نحو ثمان سنوات انتهت عام 1970 بانتصار الجمهوريين بقيادة المشير عبد الله السلال، على أنصار الإمام ورجاله.

في ذلك العام الذي عرض فيه «ثورة اليمن» بلغ عدد المصريين نحو 31 مليون نسمة، وقدمت السينما المصرية 36 فيلمًا، من أهمها: «صغيرة على الحب/ خان الخليلي/ فارس بني حمدان/ مراتي مدير عام/ ليلة الزفاف/ شيء في حياتي/ سيد درويش/ الزوج العازب/ القاهرة 30/ الحياة حلوة/ 30 يوم في السجن»، وكلها كما ترى تعكس أنماطًا مختلفة من حياتنا الاجتماعية، وكثير من هذه الأفلام اتسم بالجدية وحقق المتعة المنشودة.

لكن السينما في ذلك العام أيضا - 1966 - قدمت نجمًا جديدًا، لكنه نجم من اليمن الشقيق، أقصد المطرب أحمد قاسم؛ فقد تصدر بطولة فيلم «حبي في القاهرة» الذي أخرجه عادل صادق، ولعب الأدوار الرئيسة كل من: زيزي البدراوي ومحمود المليجي وزوزو ماضي وتوفيق الدقن، الأمر الذي يوضح مدى عمق العلاقات بين الشعبين بعد نجاح الثورة في اليمن.

الديكتاتور والطائرة

اختار عاطف سالم -مخرج الفيلم- أن تسخر المقدمة من الحاكم الديكتاتور، وهكذا بعد أن ظهرت خريطة العالم كاملة على الشاشة، اقتربت الكاميرا من اليمن وحددتها بمربع، كما حدث مع مقدمة الفيلم العالمي الشهير «كازابلانكا/ 1942»، ثم خرجت سمكة من البحر، وظهر الحاكم الإمام، لتتحول السمكة إلى امرأة، يتحسسها الحاكم بشهوانية، وهكذا تظل الصورة الكوميدية للحاكم الشهواني تتأرجح طوال مقدمة الفيلم!

المقدمة نفذها بمهارة رائد الرسوم المتحركة «مهيب»، والفيلم بالألوان، وأنتجته الشركة العامة للإنتاج السينمائي العربي، وكتب قصته صالح مرسي (مؤلف المسلسل موفور الصيت «رأفت الهجان»)، بينما كتب السيناريو والحوار كل من: علي عيسى، وعلي الزرقاني، وقام عبده نصر بالتصوير، أما أبطاله فهم:

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

ماجدة وحسن يوسف وعماد حمدي وصلاح قابيل وعمر ذو الفقار، وقد لعب دور الإمام ببراعة الممثل المدهش صلاح منصور.

يبدأ الفيلم بعودة منصور -حسن يوسف- إلى اليمن بعد غياب 12 سنة أنهى خلالها دراسة الهندسة في القاهرة... إنه في الطائرة... الطائرة فوق سماء اليمن... الطائرة لا تهبط... كابتن الطائرة يتصل بالمسؤول على الأرض طالبًا الإذن له بالهبوط من السماء... المسؤول يتصل بقاضي تعز وسكرتير الإمام... القاضي يدخن الشيشة... القاضي يأمر أن تظل الطائرة معلقة في الهواء حتى يأخذ الإذن من الحاكم..

الحاكم يلهو مع النساء.. الحاكم يأمر بهبوط الطائرة المعلقة في الجو.. الحاكم يُجن حين يعلم أن على متنها شابًا يمنيًا متعلمًا، فيأمر بمراقبته!

مشهد البداية ساخر وطريف، ويكشف بذكاء كيف تدار البلاد، حيث يظهر الإمام بوصفه المتحكم الأول حتى في سماء اليمن، ولما يهبط «منصور» من الطائرة يلقى الحفاوة من أسرته وأصدقائه، ثم تتجول الكاميرا في الأرجاء لتشاهد الجبال المحيطة والفقر المقيم والطرق الضيقة والبيوت اليمنية ذات الطراز الخاص، ثم نكتشف من خلال حوارات قصيرة ذكية أن اليمن ليس به مواصلات عامة ولا سيارات، فيتذمر العائد من مصر ويتعجب، لكنه يصاب بالذعر عندما يرى الرؤوس المعلقة على بوابة «تعز»، ويكتشف أن هؤلاء عارضوا الإمام، وأن الإمام هو أمير المؤمنين الذي ينبغي طاعته كما قال له أبوه وأفراد أسرته!

الديكتاتور والقطار

من خلال مشاهد سريعة نتعرف على تفاصيل الحياة اليومية للإمام، فهو شخص أعرج - دلالة على العجز -مهووس بالملذات الأولية من طعام وخمور ونساء، تسحره لعبة القطار الذي يتحرك بالزمبلك، فيظل متسمرًا أمامها تحيط به الحسناوات الأجنبيات اللاتي يتفنن في تدليله وإرضاء نزواته.

ومع ذلك فهذا الإمام يخفي الذخيرة المستوردة ويرفض إعطاءها للجيش لأنه يخشى من تمرده، وهكذا تدور حبكة الفيلم حول الجماعات السرية التي تناضل للإطاحة بحكم الإمام، ومحاولتها المستميتة للوصول إلى المكان الذي أخفى فيه الأسلحة لتنطلق ساعة الصفر إيذانًا بالثورة.


خالد الرويشان وزير الثقافة اليمني الأسبق

لعب «صلاح منصور» دور الإمام الطاغية الشهواني



حسن يوسف وماجدة منزعجان من جرائم الإمام في الفيلم

بمهارة حقيقية، واستطاع أن يطوّع صوته ليشبه النبرة اليمنية الجميلة، وعندما تمكن «حسن يوسف» من إعادة تشغيل القطار اللعبة المتعطل هلل الإمام صائحًا: «ما شاء الله.. ما شاء الله»، في مشهد من أجمل مشاهد الفيلم إظهارًا لعبقرية هذا الممثل الفذ.

مشاهد متكررة

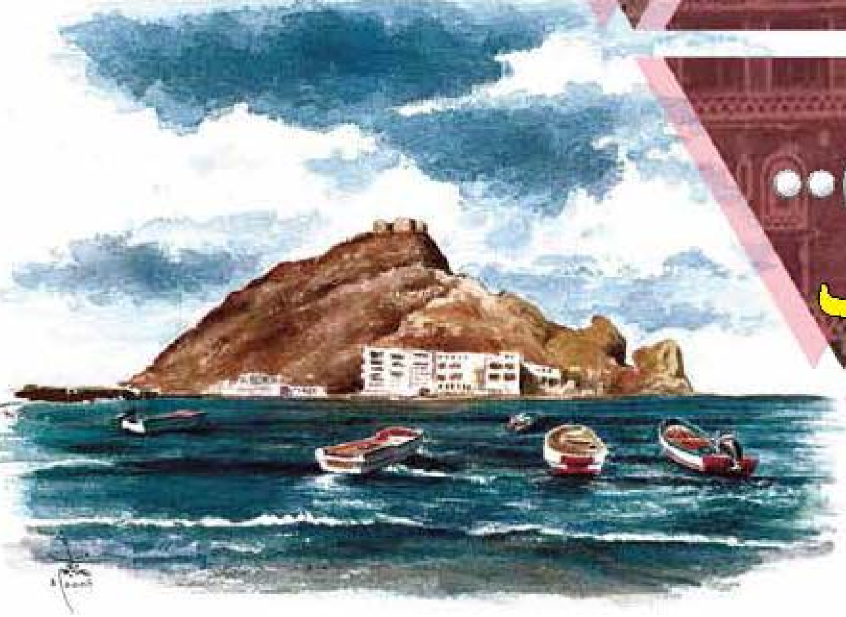
يبدو لي أن ظلال السينما الأمريكية ستلون الكثير من أفلامنا؛ فهناك مشهد شهير في فيلم «كوفاديس/ Quo Vadis» للمخرج Mervyn Leroy، والذي لعب بطولته كل من «روبرت تايلور»، و«ديبورا كير»، و«بيتر استينوف» الذي تقمص شخصية «نيرون».. حاكم روما. المشهد يتلخص في الآتي: يأمر نيرون أن تخرج الأسود من أقفاصها إلى الساحة المسوّرة لتلتهم المسيحيين المقيدين الذين يعارضونه، بينما هو يتابع عملية التوحش بسعادة، وفي «ثورة اليمن» يأمر الإمام أن تلتهم الأسود أحد المعارضين، لكن شتان بين المشهدين.. وأنت تفهم بطبيعة الحال!

كذلك تفوح من الفيلم أجواء مشابهة لفيلم «جميلة بوحيرد/ 1958» ليوسف شاهين، والفنانة «ماجدة» هنا تنضم إلى الثوار بعد أن قتل الإمام جميع أعضاء قبيلتها، وكالعادة تشتعل قصة حب بينها وبين ابن عمها منصور، ثم نكتشف -بمرور الأحداث- أن قائد الحرس الإمامي -عماد حمدي- هو زعيم الثوار، ومع موت الإمام، ومحاولات ابنه «البدر» الاستيلاء على السلطة، يصل الثوار إلى مكان الذخيرة لتندلع الثورة.

أجمل ما في هذا الفيلم أن الحوار كتب بلغة فصحى معززة بلهجة يمنية مبسطة، وقد أجاد الممثلون اداء أدوارهم بشكل عام، كما جاءت الألوان متوازنة وناقلة للمناخات اليمنية وسحرها الدائم.

لكن يندرج «ثورة اليمن» في إطار الأفلام الدعائية التي يلجأ إليها أي نظام في تسفيه وتشويه الأنظمة المضادة، خاصة إذا كان في حالة حرب مع هذه الأنظمة، وهو ما يفسر -إلى حد ما- لماذا اختفى هذا الفيلم من على شاشاتنا بعد وفاة «عبد الناصر»، ووصول «السادات» إلى السلطة، وانقلاب الأحوال!

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب



التشكيل اليمني بين المُبهم والمُبهر!

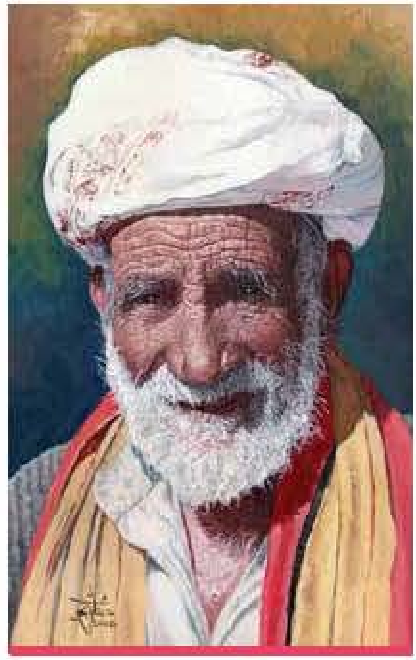


عدنان جمن

يكتنف المشهد التشكيلي اليمني الكثير من الغموض خصوصًا فيما يتعلق بنشأته وتاريخه، ومرّد ذلك يعود إلى نقص الوثائق والمعلومات بسبب عدم وجود أرشيف رسمي موثوق يمكن الرجوع إليه.

بيد أن معظم المهتمين بتاريخ الفن التشكيلي اليمني يُجمعون على أن الفنان العبقري هاشم علي (1945-2009) كان يشكّل دومًا طرف الخيط الذي يمكن الإمساك به للتعرف على نشأة وتكوّن معالم الفن التشكيلي في اليمن، وهو الذي فرض بصمته الخاصة في طرائق معالجة اللون الذي اكتسبت صخبًا وضوءًا لافتين، وكذا اللعب بالنسب التي كانت في أحايين كثيرة تقارب نسب فن الكاريكاتير في مواضيع أثيرة تكاد لا تتغير في مجمل نتاج الفنان: «البسطاء والفقراء».

ولهذا كان لزامًا علينا أن نعرّج على سيرة هذا الفنان الظاهرة الذي شكّل علامة فارقة ونقطة تحوّل لافتة في مسيرة التشكيل اليمني، والذي شكّل فيما بعد مدرسةً فنية ذات خصوصية متفردة تخرّج منها العديد من كبار التشكيليين اليمنيين.

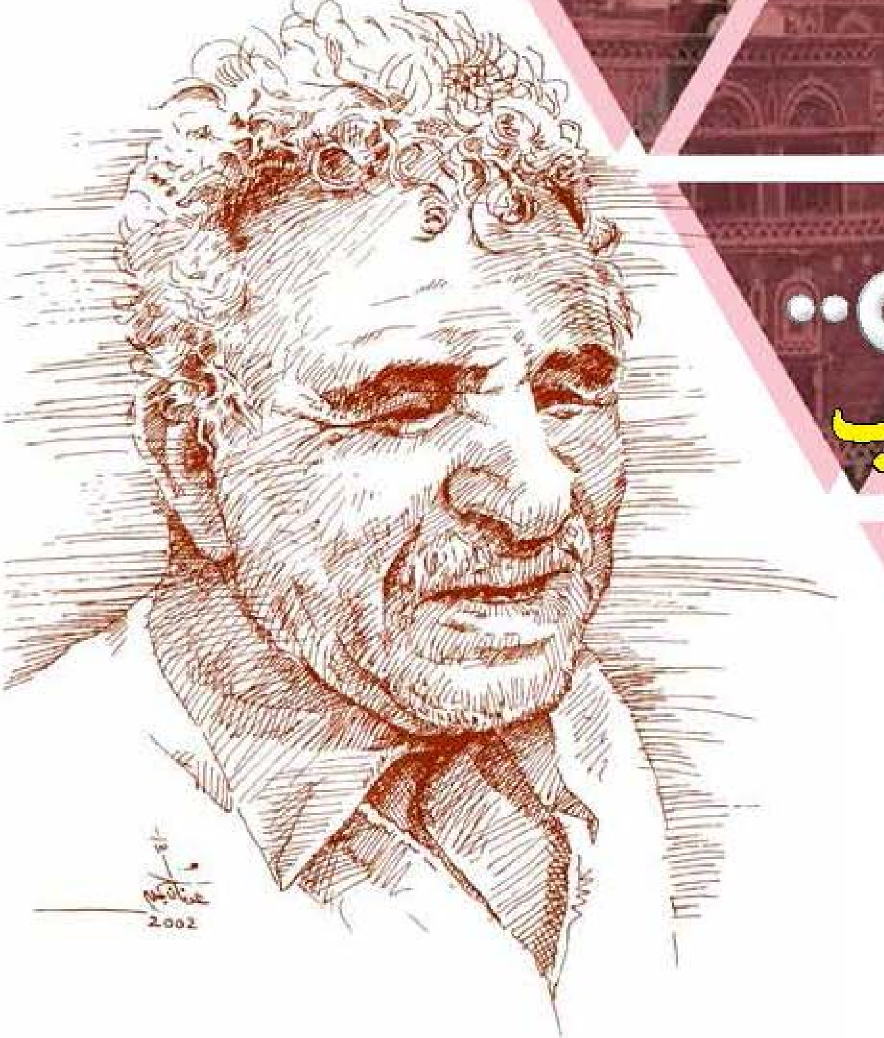
رغـــم أن «هـــاشـــم عـــلي» ولـــد في «حضرموت» إلا أنه قضى طفولته وبداية مرحلة المراهقة في «إندونيسيا» لمدة 13 عاماً حيث وصفها هو نفسه بأنها أفضل فترة عاشها في حياته ساهمت في تشكيل وعيه، راسمةً له مسار حياته فيما بعد، حتى بعد عودته إلى «حضرموت» -التي لم يجد فيها ضالته- سوى لقائه المهم بالملهم الأول أستاذ النحت «علوي الجفري» الذي تعلم على يديه أصول النحت، وقاده بعد ذلك إلى مهن مختلفة أهمها النجارة التي عمل فيها في «أبين» عندما سكن مع أخيه الشاعر والصحفي «عبدالله الدويلة» ثم قادته رجلاه إلى «عدن» التي كانت تشهد حراكًا تشكيليًا لا بأس به، هناك التقى بالفنان «محمد العقيلي» الذي اشتهر برسم اللوحات الزيتية العملاقة لمعالم مدينة عدن، وكان من أشهر رسامي تلك الحقبة من الخمسينات حتى بداية السبعينات، والذي لم يبخل بإعطاء «هاشم علي» الكثير من الدروس الهامة في



الرسم والتعامل مع الألوان.

وسرعان ما بدأ هاشم الرسم بشهية مفتوحة وبعين مختلفة، حيث وجد إقبالًا كبيرًا على لوحاته وبأسعار كانت تتجاوز أسعار بيع لوحات أستاذه العقيلي!

لكن صفة الترحال والسفر ظلت تلازم شخصية هذا الفنان، فتنقل بين مدن يمنية عديدة، حتى استقر به المقام في مدينة «تعز» التي أمضى فيها بقية حياته، وتلك المحطة كانت الأهم في مشواره الفني، والتي شكلت اللبنات الحقيقية الأولى فيما بعد لما يعرف بالفن التشكيلي اليمني الحديث، هناك، جعل من بيته مزارًا لكل فناني «تعز» الشباب، وتحوّل بيته إلى أكاديمية لتدريس أصول الرسم أثرّت على جيل كامل من الفنانين الشباب فيما كان يسمى بالجمهورية العربية اليمنية، الذين صار لبعضهم حضورًا قويًا بعد أن تلقوا علومهم الأكاديمية خارج اليمن ومنهم: طلال النجار، حكيم العاقل، عبدالعزيز إبراهيم، رشاد إسماعيل، والكثير ممن



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

سبقوهم أمثال عبدالجليل السروري وغيره من الفنانين الأكاديميين والعصاميين على حد سواء.

في الجانب الآخر بدأ مبتعثو جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حينها يحرّكون المياه الراكدة عبر كوكبة من الفنانين المتميزين أمثال: بامدهف، داؤود راجح، عبدالله الأمين، بريوم، كمال المقرمي وعدنان جمن وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم بيد أن مواضيع الاشتراكية غلبت على معظم إنتاج فناني تلك الفترة بحكم توجه الدولة آنذاك!

غير أنه من باب الانصاف هنا وجوب ذكر الرائد الفنان والناقد الفني الراحل «خالد صوري» الذي كان يماثل الفقيد «هاشم علي»، الذي كان يغرّد خارج السرب في فترة الحكم الشمولي الاشتراكي بعيدًا عن العناوين التي كانت تفرض على فناني تلك الفترة، لكن – مرةً أخرى- نواجه معضلة التوثيق فلا نجد هنا أية معلومات تؤكد أو تنفي ما إذا كان «هاشم علي» قد التقى بـ «خالد صوري» خلال تواجده في عدن في فترة الستينات.

في الوقت الذي بدأت أعمال هاشم علي -الفنان العصامي الذي لم يرتد الجامعات- تدهش المجتمع الفني وتثير حوله الكثير من الجدل والقبول معاً، كانت هناك أسماء أخرى لها ثقلها الفني وتواجدها







فى ملك بلقيس.. وحضارة مأرب





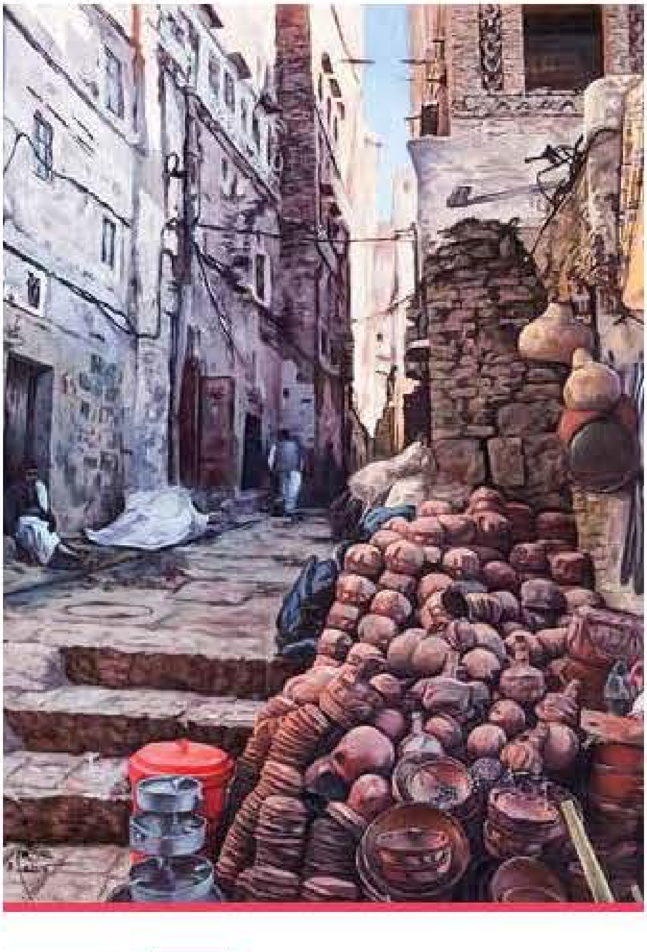
في الساحة الفنية مثل: الفنان الواقعي عبدالجبار نعمان، والفنان الجرافيكي فؤاد الفتيح، و الفنان التجريدي علي غداف الـذي كـان حالة خاصة في زمـن حكم الاشتراكيين، منذ بداية سبعينات القرن الماضي.

وقد تميّز «عبدالجبار نعمان» بقوة ألوانه ورسم المناظر الطبيعية والشخصيات العامة وبسطاء الناس، ووجدت أعماله رواجًا كبيرًا في اليمن الشمالي قبل الوحدة بيد أنها كانت تكتسب الطابع التجاري أكثر- وهذا لا ينتقص بالطبع من موهبته الفذة كرسام واقعي، ولذلك لم تكد تخلو مؤسسة حكومية أو أهلية من إحدى لوحاته المقتناة، فيما كانت تجربة «الفتيح» المختلفة في مجال الجرافيك تفسح له مكانًا متميزًا أوصل أعماله المستوحاة من البيئة اليمنية والتراث اليمني، والتي كان يرسمها بالحبر الصيني، إلى صالات عرض عالمية أعطته صيتًا استثنائيًا في فترة الثمانينات، وهو الذي تلقى دراسة الفنون الجميلة في ألمانيا الغربية، وكان أول فنان تشكيلي يمني يقوم بافتتاح صالته الخاصة







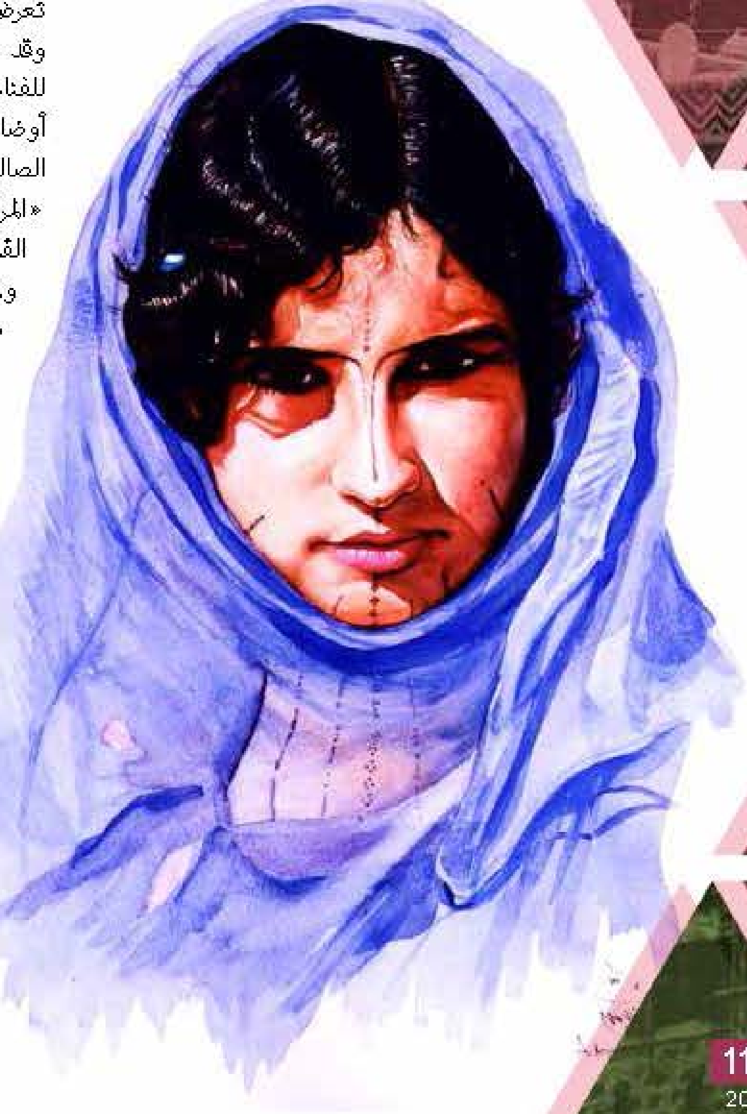






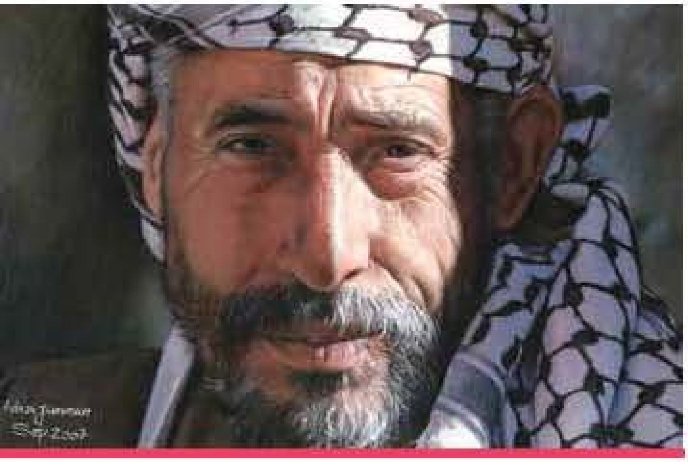


في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

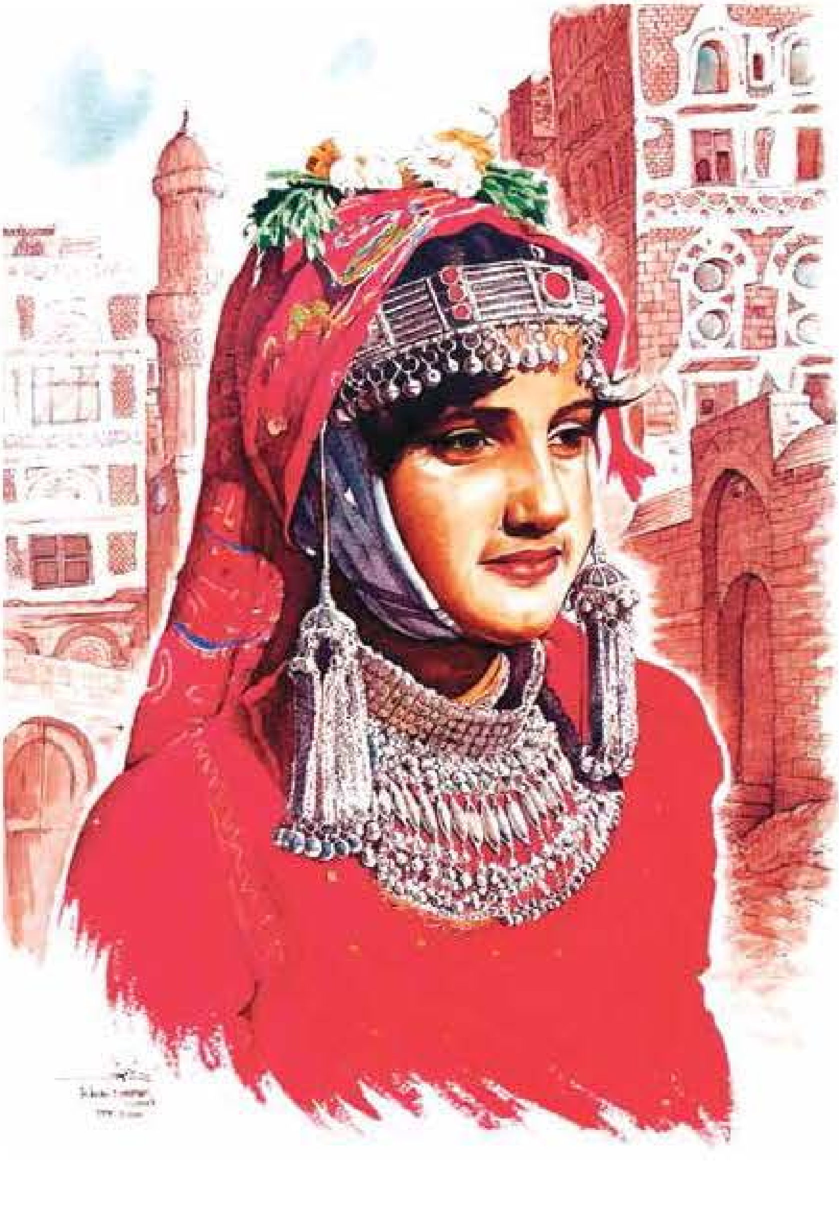


في اليمن منتصف الثمانينات حيث كانت تعرض أعماله، وكذا أعمال باقي الفنانين، وقد كانت تجربة ثرية ومميزة أوجدت للفنانين سوقاً رائجة ساهمت في تحسين أوضاعهم المعيشية إلى حد كبير، لكن الصالة الأولى أغلقت بعد أن أفتتح الفتح «المركز الوطني للفنون» في مدينة صنعاء القديمة بعد جهود شخصية حثيثة مع وزارة الثقافة والسفارة الألمانية لترميم مبنى «سمسرة المنصور» التي صارت صالة عرض مختلفة متميزة للغاية تجتذب مئات السياح وهواة اقتناء اللوحات. واستمرت «سمسرة المنصور» ترفد الواقع التشكيلي بالكثير من إبداعات الفنانين موفرة لهم مصادر دخل حسنت كثيراً من أوضاعهم المادية بمعزل عن أي تنسيق مع وزارة الثقافة التي كانت تنظم معارضها وتنتقي فنانيها وفقًا لمعايير وأهواء شخصية.

قبل قيام الوحدة اليمنية قامت حكومتا اليمن الجنوبي و اليمن الشمالي بابتعاث الكثير من







طلبة الفنون الجميلة للدراسة في دول العالم، جزء من هؤلاء كانوا من الشطر الجنوبي وجزء آخر من الشطر الشمالي، وعند عودتهم إلى أرض الوطن كان البلد في حالة تشكل وجداني جديدة بفعل الوحدة اليمنية، وبدأت الصلات بين الفنانين تتعمق وتتقارب لكن كل تلك الأجواء الإيجابية حينها لم تفض إلى تشكيل اتحاد أو هيئة جامعة لكل هؤلاء الفنانين في بوتقة واحدة، ويبدو أن السياسة كانت دومًا ما تفرّق اليمنيين كسلوك متبع، ولعبت حروب خصماء السياسة والمصالح دورًا كبيرًا في التأثير على حرية التعبير كالصحافة، والأدب، والفنون عمومًا.

ألقت الحروب المتتالية التي فرضت على اليمنيين بظلالها على الفن التشكيلي اليمني، ويمكن القول أن هناك إرتكاسًا ملحوظًا رافق مستوى الفنانين التشكيليين بعد كل حرب مما أوجد مفردات جديدة من السياسة فرضها كل منتصر في تلك الحروب على الواقع بشكل عام، وبالطبع كان لها أثر واضح على مساحة الإبداع التشكيلي كجزء من فسيفساء المشاهد المضطربة التي كانت تسود اليمن إثر كل حرب والتي تعيشها البلد اليوم في أسوأ حالاتها وأسوأ حروبه.

حركة النشر في اليمن.. إنجازات وعراقيل



زياد القحم

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسست في اليمن مطبعتان، فقد أسس الإنجليز المطبعة الأولى في عدن عام 1853م، وأنشأ الأتراك المطبعة الأخرى في صنعاء عام 1872م، ولكن هاتان المطبعتان والمطابع الأخرى التي تأسست في مراحل لاحقة لم يكن لها آثار ملموسة فيما يخص نشر الكتاب، ربما لأن التسويق لم يكن مغريًا، فالبيئات العلمية في معظمها كانت لا تزال تعتمد على الكتب المنسوخة بخط اليد، وهذا يمثل الطريقة البدائية في النشر، والبيئات الثقافية كانت تحصل على بعض ما يطبع خارج اليمن، ولكن المطابع اليمنية تلك تركت آثارًا واضحة فيما يخص الصحافة، نظرًا لاحتياج السلطة وقتها لإعلام يؤثر في الجمهور، ويوصل رسالة الحاكم، والغريب أن هذا الأمر ظل ساريًا إلى أيامنا هذه، حيث اتسعت حركة الطباعة والنشر في اليمن كثيرًا ولكن بمطابع متواضعة، وفي أحيان كثيرة بمطابع مستأجرة، أو عبر ناشر منفذ، ولكن المؤسسات الفخمة التي تمتلك مطابع عالية المستوى وحديثة جدًا ظلت تطبع المواد الصحفية الموجهة، أو المؤلفات التي لا تختلف في توجهها عن صحافة السلطة، ولم يتغير هذا الأمر رغم تعاقب السلطات وتداخلها. (أُنشئت مطابع حديثة وكبيرة وعالية الكفاءة تتبع وزارات الإعلام والدفاع «التوجيه المعنوي» وبعض الجهات الحكومية الأخرى وتخصصت في الغالب في طباعة الصحف أو الكتب التوثيقية للأنشطة الحكومية المختلفة).

أول مطبعة أسسها الإنجليز في عدن، والأتراك في صنعاء



في واجهة إنتاج الكتاب اليمني تبرز مؤسسة مهمة تركت أثرها الكبير وقدمت للمكتبة اليمنية العدد الأكبر من الإصدارات، وتميزت بتيسير نشر الكتب الأدبية وتوصيل الأسماء الجديدة، وهذه المؤسسة ليست أكثر من مركز نشر صغير، يمتلك تقنيات بسيطة وإرادة كبيرة، وحقق أهم تراكم في العناوين الأدبية، بالإضافة إلى عدد لا بأس به من العناوين العلمية والاجتماعية والاقتصادية والطبية، وهو (مركز عبادي للدراسات والنشر).

وقد تأسس هذا المركز في صنعاء في تسعينات القرن العشرين كامتداد لإحدى أشهر المكتبات اليمنية، وهي «مكتبة عبادي» في مدينة عدن، التي تأسست في أواخر القرن التاسع عشر، ولكن إصداراتها كانت محدودة فقد كان اهتمامها الأكبر بتسويق الكتاب، وقد تركت أثرها الواضح في الثقافة اليمنية، لكن الانتقالة الكبيرة أنجزت حين تأسس «مركز عبادي» في صنعاء متخصصًا في نشر الكتب الجديدة، وقدم أهم الأسماء في مجالات: الشعر والقصة والرواية والنقد الأدبي وتحقيق المخطوطات.

وشارك خلال سنوات طويلة في الكثير من معارض الكتاب الدولية.

تأسس المركز في ظل حراك أدبي كبير شهدته مرحلة التسعينات من القرن الماضي، وتراكم لإنتاجات أدبية في الثمانينات وما قبلها، ساعد المركز في إخراجها إلى القراء اليمنيين، وعدد من القراء العرب، ووفر هذه الإصدارات بأسعار رمزية.

لكن «مركز عبادي» يعاني حاليًا من التوقف مثله مثل بقية مؤسسات النشر في اليمن! وهو توقف إجباري بسبب الوضع العام في اليمن، ولكن توقف النشر لا يعبر عن توقف الكتابة والإنتاج عند الأدباء والكتاب كما أشرنا في المقدمة، من هذا الإنتاج ما يتمكن من التسلل خارج الحدود ليظهر عبر دور النشر في الدول العربية، ومنه ما يتم تأجيل نشره ليكون حافزًا لإحداث انتعاش في حركة النشر خلال الفترة القادمة، متى ما توفرت ظروف أفضل تساعد على استئناف الطباعة والنشر.

ونود أن نشير أيضًا إلى أن «مركز عبادي» كان قد تعرض للإغلاق من قبل وزارة الثقافة في العام 2002 على خلفية نشره رواية «قوارب جبلية» للكاتب وجدي الأهدل، وهي من أهم المحطات في تاريخ المركز.. إذ استمر إغلاق هذا المركز حتى تم إغلاق ملف القضية بعد تدخل الأديب العالمي جونتر جراس لدى السلطة في صنعاء.

كما قدم اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين تجربة في طباعة الكتاب الأدبي ونشره في

اليمن، ولكنه إنجاز خاص لم يتمكن الاتحاد من تحويله إلى عمل مؤسسي.. إذ شهدت إصدارات الاتحاد في الفترة التي تولى فيها أمانته العامة الشاعر محمد حسين هيثم انتعاشة كبيرة، وصلت حد إصدار كتاب كل أسبوع، لكن من تولوا قيادة الاتحاد بعده لم يتمكنوا من الاستمرار في مشروعه الذي كان يعطي الطباعة والنشر أولوية باعتبار ما يعنيه ذلك من تكريس للكتاب وتعميق للثقافة اليمنية، وتميزت إصدارات الاتحاد في تلك الفترة بسقف عالٍ لحرية الكاتب، وإلغاء أية رقابة عليه.

قامت وزارة الثقافة بإصدار عدد من الكتب، واعتنت بطبع المخطوطات المحققة لكثير من علماء اليمن وأدبائه ومؤرخيه من عصور مختلفة، ولكن هذه الإصدارات عانت من «مرض الموسمية»، وفي مناسبة صنعاء عاصمة للثقافة العربية 2004، قامت وزارة الثقافة بنشاط كبير في مجال نشر الكتب بمختلف مجالاتها، وبلغت إصدارات ذلك العام 1000 عنوان، حسب تصريحات قيادة الوزارة حينئذ.. وقد اعتمدت الوزارة في نشر عدد من هذه الإصدارات على «الناشر المنفذ»، أي أنها موّلت عملية النشر لدى ناشر خارجي أو ناشر محلي حسب أهمية الكتاب وتقييمه، وحسب ظروف الوزارة أيضًا.

وهناك العديد من جهات النشر الحكومية الأخرى -منها ما هو تابع لوزارة الثقافة مثل الهيئة العامة للكتاب، وصندوق التراث والتنمية الثقافية- قامت بطباعة الكتاب أو تمويل نشره، كما قدمت خدمة أخرى للمؤلفين ألا وهي شراء عدد من النسخ بسعر تشجيعي من أي كتاب يقوم المؤلف بطبعه على نفقته أو عبر ناشر آخر، وهذه الخدمة شجعت الكثير من المؤلفين الشباب على أن ترى أعمالهم النور، وربما تكون من أهم الإجراءات الحكومية التي يجب أن تُستأنف وتستمر، ومن عيوبها أنها في الغالب لا تراعي جودة العمل المنشور، لذلك يمكن تطوير آليتها بحيث تشترط الجودة وتضع معايير للكتب التي تقوم بتشجيعها، ومن مؤسسات النشر الحكومية أيضًا «دار الهمداني للطباعة والنشر» وهي المؤسسة التي كانت تدار في فترات سابقة كمؤسسة مستقلة، وفي فترات أخرى كجهة تابعة لمؤسسة 14 أكتوبر في عدن، وقد قامت بنشر عدد كبير من الكتب العلمية والثقافية في مختلف مراحلها.

> **عشق اليمنيين للكتب المنسوخة بخط اليد عطل دوران المطابع**

وتقوم الجامعات اليمنية بدور مهم في طباعة الكتب ولكنها غالبًا ما تركز على الكتب العلمية ومنها الكتب النقدية بطبيعة الحال، ومن الجامعات ما تتبعها مؤسسات نشر مثل: «مركز الدراسات والبحوث اليمنية» التابع لجامعة صنعاء والذي يترأسه الأديب المعروف الدكتور عبدالعزيز المقالح، و«دار جامعة عدن» التابعة لجامعة عدن.

وبمناسبة ذكر اسم الدكتور المقالح نشير إلى أنه إضافة إلى أنشطته الأدبية والعلمية

قام بأدوار مهمة في تنشيط النشر والطباعة خلال فترة رئاسته لجامعة صنعاء، ولمركز الدراسات والبحوث اليمنية، وعبر مجهوده الشخصي بكتابة المقدمات للأعمال الأولى للمؤلفين والمؤلفات في مجالات الأدب التي تعد بالمئات، ويعتقد كثير من هؤلاء المؤلفين بأن وجود مقدمة للدكتور المقالح تساعدهم في تسويق كتبهم بشكل أفضل.

ومن مؤسسات النشر الخاصة والأهلية -إضافة إلى مركز عبادي- «مجموعة الجيل الجديد» و«مكتبة الإرشاد» و«دار الكلمة» و«مكتبة خالد بن الوليد» و«عالم الكتب للنشر والتوزيع»، وهي جهات ينهض نشاطها على التجارة في الكتب التي تطبع خارج اليمن، بالإضافة إلى قيامها بنشر عدد من الكتب داخل البلاد، وهي تركز على الكتاب المشهورين، ولكن يحسب لهذه المكتبات والمتاجر أنها توفر إصداراتها وإصدارات الجهات الأخرى التي لا تقوم بالبيع المباشر، لذلك ظلت مقصدًا للقراء والباحثين والأدباء.

وبطريقة مختلفة وضمن معايير خاصة قامت الأمانة العامة لجائزة رئيس الجمهورية للشباب ابتداءً من العام 1999 بإصدار الأعمال التي تفوز بالجائزة سنويًا في مجالات: الشعر والقصة والمسرح والبحوث في العلوم الطبيعية والتطبيقية، ثم أضافت في مرحلة لاحقة طباعة كتالوجات للأعمال الفنية التشكيلية.

تقوم الجائزة بطبع العمل الفائز أولًا، ثم تمنح المؤلف فرصة أخرى لطبع عمل آخر ينتجه بعد الفوز وتوافق عليه لجنة متخصصة، ونظرًا لطبيعة الجائزة فقد قدمت كُتابًا وكاتبات مختلفين من عام لعام، ومن دورة لأخرى، ومن هؤلاء المبدعين الشباب مَنْ أصبح كاتبًا معروفًا بعد ذلك، ومنهم من توقف بعد إصداره الأول.

لا يفوتنا ونحن نتحدث عن حركة النشر في اليمن أن نشير إلى الدور الذي قامت به المؤسسات الصحفية في طبع ونشر عدد من الكتب الإبداعية، ومن أهم ما قدم في هذا السياق المشروع الذي قامت به مؤسسة الجمهورية للصحافة في مدينة تعز، وهو مشروع «كتاب في الجمهورية» حيث كانت -ولسنوات طويلة- تعيد نشر عدد من الكتب العربية الشهيرة كملاحق يومية بالصحيفة خلال شهر رمضان.

وفي الختام يجدر بنا أن نشير إلى توجه عدد كبير من المؤلفين والمؤلفات الشباب إلى الاكتفاء بالنشر الإلكتروني منذ توقف معظم مؤسسات النشر في اليمن على خلفية الحرب الدائرة منذ 2015، ومما يساعدهم في ذلك سهولة هذا النوع من النشر وانخفاض تكاليفه، وقد توجه عدد منهم لتأسيس مكاتب صغيرة تقدم خدمة صف الكتب، وتصميمها، ومراجعتها لتصبح جاهزة للنشر الإلكتروني، وهو نوع من استثمار وسائل التواصل الاجتماعي، حيث اشتهرت مجموعات الواتس آب والفيسبوك المتخصصة في تبادل الإصدارات الإلكترونية المنسوخة عبر ما يعرف بالـ «بي دي إف».



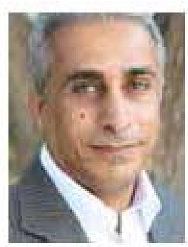
تقنيات بسيطة وإرادة كبيرة صنعت الكتاب اليمني

وقد نتج عن انتشار النشر الإلكتروني بهذه الطريقة كثرة الكتاب الشباب، بما في ذلك من إضافات مميزة كان يمكن أن تجد صدى أوسع إذا نشرت بطريقة أفضل، وإضافات عادية لم تكن لتظهر لولا فوضوية هذا النوع من النشر.

تشير استطلاعات كثيرة لمثقفين وناشرين وباعة كتب إلى أن القارئ اليمني العادي يهتم -في المقام الأول- بكتب التراث الشعبي، وخصوصًا الشعر الشعبي، ولذلك يتم التركيز من المكتبات التجارية على استنساخ هذا النوع من الكتب.

في أوساط أخرى من القراء تتصدر الرواية مبيعات الكتب، ويهتم القراء بشكل الكتاب من ناحية الغلاف وجودة الصفحات الداخلية، ولكن التأثير الأكبر في تسويق الكتاب يكون للسعر، ويزيد تأثُّر سوق الكتب بالأسعار كلما تراجعت قيمة الريال اليمني أمام العملات الأجنبية، وهذا هو السائد خلال السنوات الثلاث الأخيرة.

المجلات الثقافية اليمنية.. بين «التنوير» و«التثوير»



حسين الوادعي

يبدأ التحول المهم في التاريخ الثقافي للمجلات الثقافية في اليمن مع صدور مجلة «الحكمة اليمانية» في ديسمبر 1938 تحت إشراف الأمير عبدالله، نجل الإمام يحيى ووزير المعارف المتنور. ويبدو أن تنازل الإدارة الإمامية لإصدار مجلة ذات نَفَس إصلاحي تقدمي كان محاولة لتجسير الفجوة بين المثقف والأمير، خاصة بعد أن منيت الإدارة الإمامية بهزيمتين موجعتين أمام السعودية وأمام الإنجليز، خسرت فيهما شبوه وحضرموت والإقليم الشمالي كاملًا.

وكعادة النظم الاستبدادية يصبح نوع ما من الانفتاح النسبي وسيلة لتفريغ توتر النخب المثقفة، ويصبح إصدار مجلة شهرية باسمهم وسيلة أيضًا للتجسس العلني على ما يدور في أفكارهم.



اهتمت مجلة «الحكمة اليمانية» بهاجس النهضة ونقاشاتها، تأثرًا بالنقاش النهضوي الذي انتشر في العالم العربي متأثرًا بأفكار محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا والكواكبي. وكالعادة ارتبط سؤال النهضة بمطالب العودة والاستعادة؛ استعادة أمجاد العرب القديمة واستعادة روح الإسلام وحضارته.

وكان سؤال النهضة مرتبطًا بسؤال السقوط: لماذا تدهورنا؟ وكيف السبيل للنهوض؟

لم تكن نخبة «الحكمة اليمانية» وبعضهم قد اختلط بالعصر الحديث وأفكاره عبر البعثات التعليمية إلى مصر والعراق قادرين على مسايرة السلطة الإمامية، كما أن نزعتهم الإصلاحية لم تكن لتدفعهم إلى الثورة عليها.

لهذا نهجت نخبة «الحكمة» أسلوب إصلاح السلطة ونصحها من الداخل، الإصلاح وليس الثورة.

كانت أبرز الكتابات هي كتابات رئيس تحريرها الشاب أحمد الوريث التي نشرها مسلسلة تحت عنوان «الإصلاح».

وبحكم التكوين الديني لنخبة «الحكمة» كان طبيعيًا أن يأتي تصورهم للنهضة والسقوط محصورًا في الجانب الديني؛ فبسبب نهضة المسلمين كان تمسكهم بعقيدة الإسلام وانطلاقتهم العالمية لنشر الدين وإقامة العدل. وسبب انحطاط المسلمين هو إهمال العمل بقواعد الدين وسقوط الخلافة والتمسك بالقشور وحروب التتار والصليبيين ضد العالم الإسلامي.

غير أن سجالات «الحكمة» دشنت أول انخراط يمني رسمي للنقاش حول سؤال النهضة، والإجابة على سؤال شكيب أرسلان الذي ترددت أصداؤه شرقًا وغربًا: «لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟».

غير أن «الحكمة» انشغلت بسؤال التأخر أكثر من انشغالها بتفصيل عوامل التقدم. ولعل هذا راجع إلى مراعاتها للرقابة اللصيقة التي يقوم بها الإمام وحاشيته لمضامين المجلة.

وكانت النهضة عند نخبة «الحكمة» مرتبطة بالعودة إلى الدين دون نسيان إصلاح الدنيا، وهي الثنائية نفسها التي دشنها الأفغاني ومحمد عبده؛ ثنائية «الإسلام الصحيح والحضارة الحديثة».

كان التركيز كبيرًا عند نخبة «الحكمة» على «الطابع الأخلاقي» للإصلاح، سواء كان ذلك في أخلاق الخليفة أو الحاكم أو أخلاق العلماء أو الرعية. وكانت إجابة «الحكمة» عن سؤال الاستبداد إجابة أخلاقية صرف، ركزت على شخصية الحاكم المثالي، ورأت أن الخروج من حالة الاستبداد يكون في وجود الحاكم الصالح.

إنها نظرة قريبة إلى نظرة المستبد العادل التي روّجها محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، ولا يبدو أن نخبة «الحكمة» كانت قد تأثرت بأفكار المؤسسات النيابية والفصل بين السلطات، رغم وجود تجارب ليبرالية واعدة كانت قد بزغت في





في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

مصر وسوريا والعراق.

ولأن أي مجتمع لا يناقش إلا القضايا التي يساعد تطوره الاجتماعي والفكري على تطورها، فكان من السابق لأوانه أن تناقش مجلة «الحكمة» حكم المؤسسات، وانحصر خطابها ضد الاستبداد في البحث عن الحاكم الصالح، الذي ينفق الأموال على مصلحة الأمة، ويلجم حاشيته، ويقيم الأحكام الشرعية.

وهي تحاول إيجاد موطئ قدم وسطي، رفضت نخبة «الحكمة» التفرنج كما رفضت الجمود أيضًا، لأن كليهما أضرا بالإسلام، وحرضا الناس على الخروج على تعاليمه.

كان الفكر السياسي للحكمة -رغم أهميته ونزعته الإصلاحية الجريئة- لا يزال مأسورًا لتراث النصائح السلطانية؛ فالسياسة هي نصح السلطان ورفع المظالم إليه، وتذكيره بالعدل بين الناس وإقامة الشريعة.

أما الحقوق السياسية فهي في الأخير حقوق الحاكم لا حقوق المحكومين، وينحصر الإصلاح في تقليص حقوق الحاكم قدر الإمكان بحيث لا تتجاوز مصلحة الأمة وأحكام الدين.

عرف اليمن الكتاب المطبوع في عشرينات القرن الماضي عبر الكتب التي كانت تصل من مراكز الثقافة والطباعة في الشام ومصر، كما طبعت كتب قليلة داخل اليمن في إطار نشاط لجنة التأليف التي شكلها الإمام يحيى. ولأن الطباعة هي صانعة القوميات حسب ماكلوهان فقد أسهم الكتاب المطبوع والصحف المطبوعة -التي كانت تصل إلى اليمن سرًا أو علنًا- في تأسيس الشعور القومي العروبي.

ولم يكن بزوغ الفكرة القومية العربية داخل اليمن صعبًا، لأنها كانت فكرة مضمرة في قلب الفكرة الإسلامية الحديثة؛ فدعوات النهوض الإسلامي الحديث ظهرت في مواجهة الجمود والاستبداد العثماني -من جهة- والغزو الاستعماري التغريبي -من جهة أخرى- لهذا تزاملت العروبة مع الإسلام في أفكار المصلحين الأول: العروبة في مواجهة



التحريك والعثمنة، والإسلام في مواجهة الاستعمار.

ولأن العرب كانوا مادة الإسلام وقادة فتوحاته فكان الحديث عن الإسلام في حقيقته حديثًا عن العروبة. فالإسلام هو العرب، وعظمة الإسلام تعني عظمة عهود الحكم العربية. أما الانحطاط فلا يبدأ من لحظة سقوط الخلافة، لكنه يبدأ من لحظة سقوط الحكم الإسلامي في يد العناصر غير العربية من فرس ومماليك وترك وشراكسة.

وقد كان النزوع القومي العروبي واضحًا في كتابات أحمد المطاع الذي تولى رئاسة التحرير بعد الوفاة المفاجئة للوريث، وكذلك في كتابات عبد الله العزب الضلع الثالث في ثالوث التنوير اليمني المبكر.

ولأن الفكرة القومية العربية الحديثة قامت على أساس وحدة اللغة، وليس وحدة العرق، فقد أولت «الحكمة» اهتمامًا كبيرًا لإصلاح اللغة العربية، وإحياء الأدب وتجديده، والخروج من حالة الجمود التي رسختها عصور المماليك التي حولت الشعر إلى نظم جامد بلا معنى ولا إبداع.

كان كُتاب «الحكمة» يفكرون في هويتهم ضمن ثلاث دوائر متداخلة: الجامعة الإسلامية، والقومية العربية، والوطنية اليمنية.

جاءت مجلة «الحكمة» في وقت عصيب فقد اليمن فيه وحدة أراضيه بعد أن انتزع الاستعمار شبوه وحضرموت عام 1934 وفقد اليمن سلطته على الإقليم الشمالي الضخم الذي يشكل نصف مساحة اليمن تقريبًا، لهذا دافع كُتّاب «الحكمة» دفاعًا وطنيًا عاطفيًا عن وحدة اليمن، وعن يمنية المناطق المفقودة، وطالبوا بالعمل من أجل استردادها، والحفاظ على اليمن في إطار حدود اليمن الطبيعية أو اليمن الكبرى التي تمتد من حدود عُمان إلى أطراف الحجاز. كان الفكر الوحدوي البسيط الذي قدمته مجلة «الحكمة» مثاليًا جدًا يتجاوز حدود «اليمن السياسية» التي تحتلها اليمن حاليًا، ليعود إلى فكرة اليمن التاريخية الجغرافية بحدودها الشاسعة وأقاليمها الكبيرة، التي عرفت حكمًا ذاتيًا بعيدًا عن السلطة المركزية منذ وقت طويل.

إن الإحساس بالهوية اليمنية يعود إلى فترة النضال ضد الاحتلال العثماني، وتجميع جهود اليمنيين ضد المحتل الخارجي، ولأن العثمانيين كانوا يحكمون باسم الإسلام والشريعة، فكان من الصعب مقاومتهم بالشعارات ذاتها. صحيح أن جزءًا من ثقافة المقاومة ضد العثمانيين في اليمن ارتبط بمخالفتهم للشريعة وتجاوزهم في التعذيب والتنكيل بالناس، لكن كان لا بد من وجود شعارات وطنية يمنية تساند الخطاب الديني وتؤازره.

ولعل اهتمام مجلة «الحكمة» ببعث







في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

التاريخ اليمني وتنشيط الدراسات حوله نابع من إدراكها لأهمية تعزيز الهوية الوطنية.

وقد حاول كُتّاب «الحكمة» تجديد النقاش حول التاريخ اليمني القديم والعصر الذهبي لليمن وبعث مشاعر الفخر والعظمة عند اليمنيين بماضيهم المجيد.

وكانت تلك المحاولات حذرة حتى لا تصطدم بالسلطة الإمامية، خاصة وأن الحديث عن أمجاد اليمن قبل الإسلام خاصة وأن الحديث كان إحدى أبرز الأدوات في الصراع بين العدنانية والقحطانية، أو بين الفكرة اليمنية والفكرة الهاشمية.

أُغلقتْ مجلة «الحكمة» بعد ثلاث سنوات فقط من صدورها، بعدما ضاقت الدوائر الحاكمة بنزعتها الإصلاحية، لكن أعيد إصدارها من جديد بعد أكثر من ثلاثة عقود في سبعينات القرن الماضي، في ظروف مختلفة تمامًا، وكان سؤال النهضة والإصلاح قد تراجع ليبرز شعار الثورة وسؤالها.

وكان اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين وراء إعادة إصدار المجلة استعادة للدور التنويري للحكمة، ذلك الدور الذي أسس لثورة 1948 وللحراك الأدبي والثقافي الذي حطم أسوار العزلة الثقافية وربط اليمن بمؤثرات العصر.

وإذا كانت هناك قضية مشتركة بين «الحكمة القديمة» و«الحكمة الجديدة» فهي قضية الوحدة.

فقد كانت اليمن قد أنجزت ثورتيها (1962 في الشمال ضد الإمامة) و (1963 في الجنوب ضد الاستعمار) لكن اليمن ظل مجزءًا بسبب اختلاف الأنظمة السياسية التي حكمت الشطرين. وكانت قوى الثورة المضادة تحاول إعادة عقارب الساعة إلى الوراء وتفريغ الثورة من مضمونها الاجتماعي والسياسي، وبخاصة بعد نكسة 1967 وتراجع المشروع القومي العربي.

لهذا أعلن الأدباء والمثقفون اليمنيون تأسيس اتحاد الأدباء والكتاب كأول مؤسسة موحدة عابرة للشطرين.

وكانت قضية الوحدة اليمنية هي القضية الكبرى لـ«الحكمة الجديدة»، لكنها كانت وحدة ذات مضمون ثوري. فقد انتقل اليمنيون من سؤال الإصلاح إلى سؤال الثورة الشاملة، ونجحوا في تحقيق ثورتهم السياسية، لكنهم تعثروا في استكمال ثورتهم الاجتماعية والثقافية.

لهذا كرست مجلة «الحكمة الجديدة» صفحاتها للفكر الثوري عبر عشرات المقالات التي طالبت باستكمال التغيير الاجتماعي، وإزالة الفوارق الطبقية، وتحرير المرأة والتخلص من النزعات الثقافية المتخلفة.

أما سؤال الاستبداد فلم يعد حله مرتبطًا بإصلاح الحكم، وإنما بإقامة الديمقراطية ودولة المؤسسات وضمان الحريات العامة والخاصة.

كما استمرت «الحكمة الجديدة» في بعث الاهتمام بالتاريخ اليمني القديم والوسيط وإعادة تفسيره تفسيرًا اجتماعيًا علميًا، والاستفادة من دروسه لتجاوز عوائق الحاضر.

واحتل التجديد الأدبي حيزًا واسعًا من صفحاتها، لكن النقاش تجاوز التجديد في

اللغة وفي عمود الشعر ليشتبك مع الآفاق الرحبة للشعر الحديث، وقصيدة النثر والجدال الطويل حول الأدب الملتزم ومدى حرية الأديب، ودور الأدب في المجتمع.

وانتقلت «الحكمة» من مشروع التنوير إلى مشروع التثوير بناء على ثلاثية: (الوحدة، الثورة، الديمقراطية) وهي الثلاثية التي أدت لاحقًا إلى تحقيق الوحدة اليمنية، والانتقال إلى نظام التعددية السياسية والانفتاح الديمقراطي عام 1990.

كانت السبعينات والثمانينات فترة البحث عن «اليمن الجديد». وكان سؤال الجدة والتجديد هو المسيطر، وتراجع النقاش حول التراث ليتركز أغلب النقاش حول العصر والمستقبل. ولهذا صدرت في صنعاء وفي عدن في الثمانينات مجلتان تحملان صفة «الجديد» على غلافيهما وهما: «اليمن الجديد» من صنعاء، و«الثقافة الجديدة» من عدن.

ورغم سيطرة المضمون الأدبي على موضوعات المجلتين إلا أن البحث والنقاش حول اليمن الجديد كان محورًا من محاور موضوعاتهما.

كانت «الثقافة الجديدة»، ملتزمة بالنظرية الاشتراكية للأدب والمجتمع، تحاول تقديم اجتهادات يمنية على أساس مبادئ الاشتراكية العلمية والفكر اليساري العالمي. كما شكلت المجلة منبرًا للقارئ اليمني للتعرف على الأدب الروسي والفكر العالمي.

أما مجلة «اليمن الجديد» فلم تتبنّ أي خط أيديولوجي محدد، متنقلة فيما بين الطرح الليبرالي والطرح اليساري المخفف في إطار الحرية المحدودة التي كانت ممنوحة من النظام السياسي في ذلك الحين.



إمام اليمن أحمد بن يحيى

وإذا كانت هناك قاعدة مشتركة بين المجلات الأربع ودورها التنويري فهو ذلك التوازن الدقيق الذي حاولت أن تقيمه بين «المثقف والأمير -من جهة- وبين «الثقافة والسلطة» من جهة أخرى. كان مستحيلا للمجلات أن تصدر دون موافقة السلطة، ولكن القائمين عليها كانوا حريصين أيضًا على إقامة مسافة فاصلة بينها وبين السلطات، مسافة تستطيع المجلة أن تنتقد السلطة من الداخل، وأن تستفز نزعة التغيير داخلها، لكن دون أن تصطدم بها.

وبصدور قانون الصحافة والمطبوعات اليمني عام 1990 صار ممكنًا للقوى الاجتماعية إصدار صحف ومجلات دون حاجة لاسترضاء الحاكم. صحيح أن كثيرًا من الخطوط الحمراء ظلت موجودة، إلا أن هامش الحرية توسع كثيرًا.

لكن الغريب هو أن المجلات الثقافية التنويرية توقفت أو تراجع دورها التنويري بعد 1990. وقد يعود هذا إلى أن المشروع الذي ناضلت هذه المجلات من أجل تحقيقه أصبح منجزًا على أرض الواقع، وخاصة (الوحدة الديمقراطية). لكن تراجع وعود الديمقراطية والوحدة والتغيير الاجتماعي بعد التعديلات الدستورية عام 1997 وضع اليمن ومثقفيه أمام التحديات نفسها من جديد.

جرت تحت العشب مياه كثيرة، وعاد اليمنيون للاشتباك مع القضايا التاريخية الكبرى في تاريخهم: قضية الوحدة ضد التشرذم والطائفية، وقضية الديمقراطية ضد الشمولية والاستبداد، والثورة الاجتماعية ضد الجمود والردة الحضارية، والتجديد الثقافي والفكري ضد التقليد والترديد.

من «المعلامة» إلى «الجامعة».. رحلة التعليم في اليمن



هاجر سامعي

لأن التعليم في اليمن لم ينشأ فجأة، وإنما مر بمرحلة النشوء والتطور، وعانى الكثير من الأخطار، فإننا نقدم هنا صورة لنشوء التعليم في اليمن وارتقائه.

في عهد الإمامة

حكمت المملكة المتوكلية شمال اليمن بعد الحرب العالمية الأولى، منذ خرج العثمانيون من اليمن حتى قيام ثورة 26 سبتمبر 1962 التي أبقت في فترة حكمها التعليم كما تركه الأتراك.

وقد اتسم التعليم في ذلك العهد بالضعف والمحدودية؛ إذ كانت «المعلامة»، أو «الكُتاب»، كما يعرف في دول عربية أخرى، هي المركز التعليمي الأكثر انتشارًا. وهي عبارة عن ملحق مكون من غرفة أو اثنتين يتبع المسجد، أو دور العبادة، ويقوم عليه شيخ أو معلم، وأحيانًا تكون «المعلامة» مكانًا مفتوحًا تحت شجرة كبيرة أو مساحة ما قرب منزل أو مسجد.

يقوم المعلم أو الشيخ برعاية الأيتام وتعليم الأطفال أساسيات القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وقد يدرسون أساسيات الحساب، بينما اضطلعت مراكز أخرى تسمى بـ«المدارس» بدور أكبر قليلًا حيث توسعت لتدرس علوم



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب



اللغة والعلوم الإسلامية كالفقه وغيره، وهي لا تشبه ما نعرفه اليوم من المدارس، بل تشبه حلقات الدروس التي كانت سائدة في المدن العربية في العصور الإسلامية السابقة، غير أنها كانت تلتئم في فصول لا في حلقات.

لم يهتم الإمام يحيى بالتعليم الذي يكفل نهضة اليمن، وإنما انتهج سياسة تعليمية تضمن له ولسلالته البقاء، فأنشأ «دار العلوم» أو ما يعرف بـ«المدرسة العلمية» عام 1925 في صنعاء بهدف تخريج كوادر تؤمن بسياسته وبسلطته المطلقة، تعدهم الدار ليتولوا مناصب عليا في مملكته كالقضاء أو حكم المدن والعزل. عُدت «المدرسة العلمية» أعلى مؤسسة تعليمية في ذلك الوقت، فهي نخبوية لا يدخلها إلا أبناء أسر لها مكانة دينية من كبار شيوخ القبائل وأغلبهم من أبناء «السادة». ويخضع المتقدمون للدراسة بها لاختبارات قبول صعبة تضمن ولاءهم وعملهم وفق توجيهات الإمام.

وقد تكفلت وزارة المعارف بتعليمهم، فتلقوا فيها علومًا متنوعة، ومكثفة تتناسب مع المناصب التي سيتولونها، وأرسل بعضهم ممن تفوقوا إلى الخارج في بعثات لإكمال تعليمهم.

أما «مدرسة الأيتام» التي خلفها الأتراك واهتم بها الإمام ليثبت للشعب المسكين أنه منح الفقراء فرصة التعليم، فقد كانت مدرسة تأوي الأيتام وتعلمهم، ثم شملت الفقراء، مما يعني أنها مدرسة لعامة الشعب. ضمت مراحل التعليم الأساسي والثانوي في فترات لاحقة، ويتولى المتخرجين منها وظائف مهمة كمعلم القرية أو ضابط في الجيش أو كاتب إداري.

وكان لمدرسة الأيتام أثر كبير وأهمية





بالغة في تغيير وجهة اليمن السياسية وإحداث التغيير فيها، فمنها تخرج أغلب ثوار 26 سبتمبر ممن تولوا عددًا من الوزارات والإدارات العليا بعد الثورة، منهم: أحمد الحورش، وعبدالسلام العنسي، والسلال الذي حكم اليمن بعد سقوط الإمامة.

ولا تزال هذه المدرسة موجودة حتى اليوم، إذ أصبحت «دار الأيتام» بعد الثورة في مقرها الجديد في شارع تعز بمدينة صنعاء، وأغلق مقرها القديم بجانب مسجد البكيرية في صنعاء القديمة.

ولعل من المهم التطرق لبعض البعثات العلمية إلى خارج ، ومنها «بعثة الأربعين»، وللعلم.. سبق أن بعث الإمام يحيى مجموعة من الطلاب للخارج لأغراض عسكرية، أما غرض هذه البعثة فكان «تعليميًا» خالصًا، كما أعلن عنها، وتم اختيار أربعين طالبًا متفوقًا، أغلبهم من طلاب المدرسة العلمية ومجموعة من مدرسة الأيتام، ليكملوا تعليمهم الثانوي في لبنان، كان ذاك في عام 1947، ثم نقلت البعثة إلى مصر بأمر من الإمام أحمد الذي تولى الحكم بعد فشل ثورة 1948 التي قامت ضد الإمامة.

تحت شجرة كبيرة بدأ التعليم في اليمن

تفتحت عيون المبتعثين وعقولهم على عوالم جديدة في لبنان ومصر، وأدركوا حجم المأساة التي تعانيها اليمن التي تغرق في العزلة والجهل والتخلف، مما حدا بهم أن يتكاتفوا وينشطوا سياسيًا، وأن يرجعوا إلى اليمن وهمهم إحداث التغيير.

اعتقد الإمام يحيى، ومن بعده ابنه الإمام أحمد، أن هذا التشديد والتضييق في نوعية التعليم كفيل بأن يُسكت المعارضة التي بدأت تثور وتطالب بإصلاح تعليمي، لكنه بسبب تلك المعارضة، وبسبب الضغط الخارجي من دول الجوار التي برزت فيها مظاهر النهضة الحديثة، اضطر لإنشاء ثلاث مدارس في صنعاء وتعز والحديدة عام 1947 احتوت مراحل التعليم الأساسية والثانوية وأُحضر لها معلمين من مصر والعراق والسودان. لكن هذه المدارس عانت عجزًا في المواد التعليمية والتجهيزات المدرسية بحسب تقرير اليونسكو عن تلك الفترة. وأغلقت المدارس بعد فشل ثورة 1948، ثم فتحت بعد ثلاث سنين تحت نظام وتوجيه صارمين وبقيت هكذا حتى ثورة 1962.

ويؤكد تقرير اليونسكو الصادر عام 1958 أنه حتى عام1947 لم يكن هناك تعليم حديث على النمط الغربي في أنحاء القطر كافة، عدا مدرسة أحمد محمد نعمان التي أسسها في قريته ذبحان في منطقة الحجرية التابعة لمدينة تعز، لكنها أقفلت بأمر من الإمام يحيى لأنها كانت تدرس موضوعات أخرى لا تسمح بها سياسة الإمام، فقد طبّق الأستاذ محمد أحمد حيدرة منهجًا حديثًا في المدرسة وأخذ يعلم الطلاب التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية، وألف مجموعة من الأناشيد لحنها للطلاب وكانوا يؤدونها، بالإضافة إلى حصص التمارين والألعاب والأنشطة التي سعد بها الطلاب وزرعت فيهم حب التعلم.

أقفلت هذه المدرسة وأدخلت سياسة الأئمة البلاد في عزلة طويلة عن كل شيء إيجابي وجيد، فتناقص عدد الطلاب وتسرب كثير منهم، وفتر حماس الأهالي، فلم يدفعوا بأبنائهم للتعليم وأبقوهم للقيام بالأعمال اليومية.

رصدت اليونسكو 102 مركزًا تعليميًا فقط، شملت كل المعلامات والكتاتيب والمدارس، وجميعها كانت

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب



عجزًا وقصورًا على مستويات عدة. وبقي الحال كذلك حتى قيام ثورة 1962.

التعليم في زمن الاستعمار

على غرار شمال اليمن، نجد أن جنوب اليمن عانى هو الآخر من إهمال للتعليم، فقد كانت عدن مستعمرة بريطانية، أما بقية المحافظات، أو ما يسمى بـ»المحميات«، فكانت على شكل سلطنات أو مشيخات أو إمارات.

زرعت بريطانيا المستعمرة الجهل والتخلف في عدن وفي الجنوب بشكل عام، لكنها بسبب حاجتها للعمالة التي تخدم مصالحها اضطرت، بعد مرور 25 عامًا على الاحتلال، إلى إنشاء عدة مدارس حكومية في عدن فقط، فيما ظلت بقية المحميات بلا مدارس.

قامت المدارس الحكومية التي أنشأتها على أساس عنصري طائفي؛ إذ لا يدرس فيها إلا مَنْ وُلِدَ في عدن أيًا كانت ديانته أو أصوله، وفوق عنصريتها تلك كانت سيئة للغاية؛ إذ خرجت أنصاف أميين بالكاد يفقهون شيئًا، فقد حاولت تغريبهم وفصلهم عن هويتهم اليمنية، فلم يكن تعليم اللغة العربية، ولا حفظ القرآن وعلومه من ضمن المواد التعليمية.

هذه العنصرية حرمت معظم أهالي عدن والجنوب -بشكل عام- من التعليم الحكومي. فأحس الأهالي بالخطر من هذا التغريب وهبوا لإنشاء مدارس أهلية في كل الجنوب، قامت الجمعيات الأهلية بتمويلها وإدارتها.

ضمت هذه المدارس مراحل تعليمية متعددة، تم تزويدها بمقررات دراسية من مصر والسودان والعراق، ثم خضعت تلك الكتب أو المقررات فيما بعد لتعديلات تتناسب مع الطبيعة الاجتماعية والهوية اليمنية.

لم يكتف الأهالي بإنشاء المدارس، بل أنشأوا كثيرًا من النوادي الأدبية والثقافية مثل: «نادي الشباب الثقافي»، و«نادي الإصلاح العربي»، و«كلية بلقيس» التي تأسست عام 1961، فكانت أفضل المؤسسات التعليمية آنذاك لقيامها على نظام تعليمي حديث ومنظم كما هو حال المدارس الجيدة حاليًا.

الإمام يحيى لم يهتم بالتعليم وانتهج سياسية تعليمية تضمن له ولسلالته البقاء

ومن الجدير بالذكر أن جميع هذه المراكز تنويرية تعليمية، خصصت أجزاء منها لمكتبات صغيرة رفدتها بالكتب والجرائد والمجلات جمعت من الأقطار العربية، ولم تكتف باحتضان الشباب وتثقيفهم اجتماعيًا وسياسيًا، بل عمدت إلى إرسال بعثات خارجية لكثير من الطلاب المتفوقين إلى مصر والعراق وغيرهما، ليكملوا تعليمهم ويكتسبوا خبرات تنهض بالبلد وتدفعه للأمام.

من رحم تلك المدارس الأهلية التي كسرت حاجز الجهل والعزلة والتي استقبلت الهاربين من أبناء الشمال الذين عانوا بطش المتوكلية وظلمها وحرمانها لهم من التعليم الحديث، من رحمها أيضًا





في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

خرج الثوار الذين ثاروا على المستعمر وطردوه في ثورة 14 أكتوبر 1963 وبنوا بعد ذلك جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

إجمالًا، كان التعليم في شمال اليمن وجنوبه يعاني تعثرًا كبيرًا رغم الجهود المبذولة لتحسينه، وكان الجنوب أفضل حظًا من الشمال في نوعية التعليم وجودته، مع ذلك لم يكن كل ذلك كافيًا لإحداث نهضة حقيقية، لكن المهم هو أن هذه المراكز التعليمية أخرجت الثوار الذين انتفضوا وقضوا على الإمامة المستبدة في الشمال، وطردوا الاستعمار البغيض من الجنوب.

التعليم بعد ثورتي 26 سبتمبر و14 أكتوبر

انتهج الثوار، ممن تعلموا في الخارج، وممن تخرجوا من مدرسة الأيتام أيضًا بعد توليهم مناصب عليا في الدولة الحديثة بعد الثورة، سياسة تعليمية ناهضة؛ لأنهم أدركوا أهمية التعليم في نهضة البلد وتقدمه وإخراجه من براثن الجهل والمرض والتخلف والعزلة، فقد أثرت فيهم البلدان التي تعلموا فيها، وعرفوا ماذا تعني الحياة.

وجدت الحكومة التي أدارت اليمن بعد الثورة أن التعليم كان رديئًا وغير منضبط بالمرة، فعمدت لعمل اختبارات تحدد مستويات الطلاب، وعلى أساس النتيجة تم إعادة تقسيمهم حسب مستواهم التعليمي وحسب أعمارهم. فافتتحت كثير من المدارس على غرار المدارس في مصر والسودان والعراق، وعملت على تحسين المناهج وتأهيل المعلمين، وكذا جلب معلمين ذوي خبرات من تلك الدول.

أنشئت المدارس الابتدائية والأساسية والثانوية، وحددت فيها المراحل والمناهج وفق نظام حديث استقته من نظم تعليمية شقيقة، وأنشأت أول جامعة في اليمن، هي جامعة صنعاء، في عهد القاضي عبدالرحمن الإرياني عام 1970.

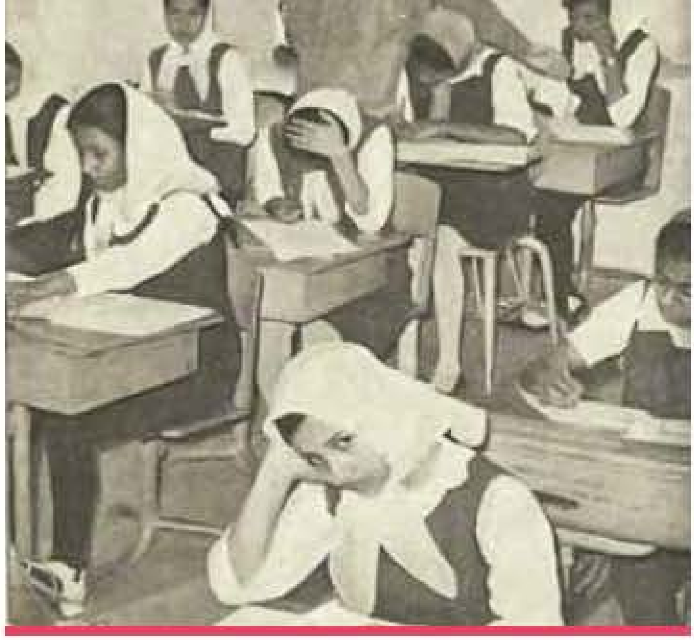
> منذ ٢٠١٠ واليمن يعاني تدهورًا في قطاع التعليم

في عهد إبراهيم الحمدي كانت النهضة التنموية الفعلية في جميع المجالات وعلى جميع المستويات وأهمها التعليم، فقد افتتح كثيرًا من المدارس والمراكز العلمية، وبنيت المدارس الابتدائية في كافة القرى والمدارس الثانوية في المدن، وأقر مجانية التعليم من كتب ودفاتر وأقلام مع وجبة طعام لجميع الطلاب، وأنشأ المراكز العلمية المتخصصة كالمدرسة الفنية بصنعاء، والمعهد المهني، وجامعة كلية الشرطة ومدارس محو الأمية ومعاهد القرآن.

لكن وجبات الطعام ألغيت في ظل الحكومة التي تلت فترة الحمدي، واستمرت مجانية التعليم في شكل رسوم رمزية، يحصل الطالب على الكتب الدراسية من المدرسة فيما يتكفل الأهل بشراء مستلزمات الدراسة من قرطاسية وزي وخلافه.

ولا يختلف الوضع في جنوب اليمن





عما هو عليه في شمالها، فنجد أن عدن المتحررة وبقية المحميات قد اتحدت وشكلت ما يسمى بـ«جمهورية اليمن الديمقراطية» التي طوّرت نظام التعليم وتعصيره. فقد بنيت كثير من المدارس في الأرياف والمدن، وأنشئت المراكز العلمية المتخصصة، وأنشئت جامعة عدن عام 1975 وصار التعليم مجانيًا.

ثم كانت الوحدة في 22 مايو 1990 التي لمت شمل اليمن واليمنيين، وسرت التنمية تعم أرجاء البلاد، وصار نظام التعليم موحدًا في كل شيء تقريبًا ابتداءً من نمط بناء المدارس والجامعات، مرورًا بمناهج التعليم ومقرراته، وانتهاءً بتوحيد الزي المدرسي.

حاضر التعليم في اليمن

حقق التعليم خلال مسيرة الوحدة تطورًا ملحوظًا نتج عن مجموعة أسباب منها النمو السكاني المتزايد، اتساع حجم أنشطة المجتمع والنمو الاقتصادي.

تشرف على قطاع التعليم ثلاث وزارات:

وزارة التربية والتعليم التي تشرف على التعليم العام بنوعيه: الحكومي والخاص، وعلى مراكز محو الأمية.

وزارة التعليم الفني والتدريب المهني التي تشرف على التعليم الفني والتدريب المهني الصناعي والزراعي والتجاري.

وزارة التعليم العالي التي تشرف على التعليم الجامعي بنوعيه الحكومي والخاص، وتشرف على مراكز البحوث والدراسات.

ارتفع حجم المخصصات المالية لقطاع التعليم مما أدى إلى التوسع في عدد المنشآت التعليمية وبالتالي ارتفع عدد الملتحقين بالتعليم في كافة مستوياته وأنواعه.

حتى عام 2010، بلغ عدد الملتحقين بالتعليم الأساسي قرابة 5000000 طالب وطالبة، وبلغ عدد الملتحقين بالتعليم الجامعي أكثر من 250000 ألف طالب وطالبة، فيما وصل عدد الملتحقين بالتعليم الفني إلى أكثر من 3000 طالب وطالبة، أما مراكز محو الأمية، فقد بلغ العدد أكثر من 200000 دارس ودارسة.

تطور التعليم الأساسي والثانوي، من حيث مقررات الدراسة، وأصبحت تشمل كثيرًا من العلوم التي لم تكن تدرس من قبل، فنجد مقررات الأحياء والكيمياء والفيزياء وعلم النفس والفلسفة والمنطق، إلى جانب علوم القرآن وعلوم اللغة العربية.

أما الجامعات، فقد تعددت التخصصات فبلغت عددًا كبيرًا، تتوزع على 179 كلية في كافة أرجاء الجمهورية اليمنية.

ومما يفرح أكثر أن عدد الإناث الملتحقات بالتعليم يتجاوز اليوم عدد الذكور، وهو ما لم يكن موجودًا قبل الثورة في الشطرين.

ويعد خريجو الجامعات والمعاهد الفنية هم المنتج النهائي لمحصلة التعليم والرافد الحقيقي المهم للعملية التنموية.

وتشير هذه الأرقام إلى تقدم كبير طرأ على نظام التعليم في اليمن، ومع ذلك فإنها لا تلبي حاجة المجتمع ليحقق نهضة قوية.

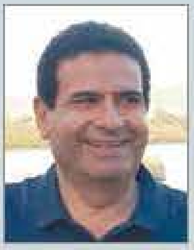
والمؤلم في الأمر أنه منذ 2010 واليمن يعاني تدهورًا في قطاع التعليم من حيث نوعيته وجودته، وأدت الأحداث الأخيرة من اضطرابات سياسية واجتماعية إلى تدني مستوى التعليم، ويمكن القول إن التعليم اليوم يمر بمرحلة خطرة وحرجة تستدعي وعيًا فعليًا وحلولًا جذرية فاعلة.



نصف مجلس الوزراء
في «مقيل» المقالح!

استعادة صنعاء

في ملك بلقيس..
وحضارة مأرب



عزت القمحاوي

ليس من المستحيل أن أتذكر المناسبة، وعدد الأيام التي قضيتها في صنعاء، ومَنْ رأيتهم واحدًا واحدًا، يكفي أن أراجع ما كتبت في ذلك الوقت أو ألجأ إلى صديق، لكنني أُفضِّل أن أكتب ما أبقته ذاكرتي الواهنة من لوحة الألوان المائية المتلاشية التي تجعلني شبه متيقن من أن ذلك كان حلمًا؛ محض حلم.

هذا النسيان بحد ذاته يجعلني ممتنًا لذاكرتي مطمئنًا إلى أنها صارت تتصرف كصديقة وفية، تعفيني من الآلام بالنسيان، وتقنعني بأنني لم أزر تلك المدينة وإنما رأيتها في حلم ذات ليلة. ولم تكن الذاكرة رحيمة بي في شأن دمشق التي عرفتها إلى حد يقض مضجعي اليوم ويخنق صوتي بالبكاء كلما تحدثت عنها، وتورثني الدموع غضبًا من رخاوة في النفس، يُفترض ألا تكون موجودة في هذه السن.

في الحلم نرى أنفسنا وسط المشهد مباشرة دون تمهيد. وهكذا بالضبط رأيت نفسي في صنعاء، قرب الفجر.





في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

المشهد الأول كان في المطار غير المعتنى به تحت ضوء ضعيف يكشف القليل. أكثر من هذا لا أذكر، لا أتذكر حتى الأشياء الأساسية التي أقيس بها درجة الألفة والنفور التي يجب أتوقعها في المدينة.

لا أتذكر كثافة الهواء التي أقيس بها درجة الحرية في مدينة أطأ أرضها للمرة الأولى، ولا أتذكر سلوك شرطة المطار، المعيار الثاني الذي لا يخيب.

وإذا كنت لا أذكر هذا، فلابد أنني لن أتذكر لون حقيبتي، هل كانت معي حقيبة حقًّا؟

وهل استقبلني أحد؟ والله لا أعرف.

في مشهد آخر ـ على طريقة انتقال القطع في الأحلام والأفلام ـ أجد نفسي نائمًا في غرفة، لا أعرف حتى شكل الاستقبال الذي عبرت منه إليها، ولا أتذكر حجم البناية أو رقم الطابق.

أتذكر فقط رنين التليفون الذي أفقت عليه فزعًا، وسقطت السماعة من يدي، فتناولتها من الأرض واعتدلت من نومتي وأخذت أستمع إلى الأمر من الصوت الصارخ:

ـ انزل يا عزت يا قمحاوي!

الخوف هو أول ما يخطر ببالنا في بلادنا السعيدة.

من؟ ماذا؟ هل ارتكبت خطأ ما يحولني من ضيف إلى متهم؟!

لكنني سرعان ما تبينت الألفة في الصوت الهاتف، تبينت كذلك الضجة المرحة بجواره، ليس فيها صليل القيود أو السيوف.

كان جمال جبران، الذي سيصير فيما بعد ابني وأخي الأصغر، بفضل شيطنته في الكتابة؛ فأنا لا أحب من الكتاب إلا الشياطين.

أمهلته دقائق استعدت فيها كامل وعيي وملابس الخروج، وهبطت الدرج.

بعد أن عرفت أنني في طابق ثالث من فندق. تقدم جمال وعرّفني بنفسه، ثم عرفني ببقية الصحبة. قال إنهم قرأوا كتابي «الأيك» ومحبة فيه جاءوا ليتعرفوا بي، واقترحوا أن نمضي معًا إلى حيث تأخذنا أقدامنا.

كانت هذه واحدة من مناسبتين أشعر فيهما بما يعرفه كُتّاب آخرون بشكل مكثف: «مجد الكاتب».

المناسبة الثانية جاءت بعد سنوات طويلة من هذا الحلم الصنعاني. في «مكتبة مدبولي» بميدان طلعت حرب بالقاهرة، عندما دخلت أشتري كتابًا فإذا بالعم «حسن» أحد البائعين بالمكتبة يُسلِّم عليَّ بحرارة ويحدثني عن تفاصيل في رواية «بيت الديب» هاتفًا: كنت أتمنى أكون أحد أبطالها!

وللحق، فقد كنت في تلك اللحظة في الفندق الصنعاني المنسي، أجتهد لأحفظ أسماء المتحدثين، وكان الشعور الغالب ليس الفخر، بل الفرح الصافي بصحبة جاءت لتقطع الطريق على غربة كنت سأستشعرها حتمًا؛ فلست ممن يبادرون إلى التعارف، وهكذا قضيت أيامًا وليالٍ طوالاً في فنادق وغادرت غريبًا لم أتعرف على زملاء أدب أو صحافة، كان من الممكن أن أجد بينهم مشروع صداقة رائعة.

كنا في الغروب، خرجت مع جمال وصحبهم، ولولاهم لظللت في نفق الليل



وحيدًا. تكلمنا كثيرًا، وانتقلنا من مقهى إلى مطعم فول، تحلقنا على دكتين حول طاولة من الصلب. ولم نفترق إلا بعد أن حَدّدَ جمال برنامجي لليوم التالي.

صار هو قائدي، فهو يعرف كل شيء. ما يجب أن أراه من صنعاء، ومن يجب أن أراه. سألته عن الأستاذ والأب عبدالعزيز المقالح، فقال إنه يدعونا على الغداء غدًا، وأخبرني بوجود الصديق العذب حبيب عبدالرب سروري، الذي جاء إلى اليمن ضيفًا مثلي.

على غداء الدكتور المقالح كان معنا وزيـران، وكنا نجلس بين الجميع في المطعم الصاخب. وبعد الغداء توادعنا، ودعانا المقالح إلى «المَقِيل». بصحبة جمال أيضًا ذهبت، وحضر وزيرا الغداء ومعهما وزيـران آخـران. نصف مجلس الوزراء في مقيل المقالح، نتحدث في كل شيء، وبدلاً من أن أكون ممتنًا لبساطة السلطة، لا أعرف لِمَ حضرت إلى ذهني كل النكات حول السلطة!

لم يتذمر الوزراء اللطفاء، لكن الرد جاء من القات على هيئة أرق حرس جفوني فلم تغمض طوال الليل.

في الصباح كان موعدي مع «حبيب»، حمل حنينه، وحملت دهشتي ومضينا إلى «باب اليمن»، الباب الباقي من سبعة أبواب لصنعاء القديمة، بعمارتها العجيبة التي عزّزت مع أثر الأرق الحالة الحلمية.

في القلب العتيق للمدن: غرناطة، إشبيلية، دمشق، روما، ومراكش، ويمكن أن أعدد أكثر، يكون الانطباع دائمًا أن هذه عمارة قادمة من زمن ماضٍ إلى هنا/الآن، حيث مظاهر الحضارة الحديثة تلح وتزاحم الملامح القديمة التي تحتاج إلى قوة لحمايتها في غربتها.

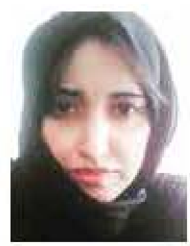
في صنعاء تشعر بالعكس. العمارة في زمنها، بكامل سلطتها على الفضاء وأنت الذي تنتقل إلى هناك. إلى زمنها الماضي المستمر.

في ذلك الحلم شعرت بأنني في زمن مملكة سبأ. هل عرفت تلك المملكة القديمة الدراجات؟ الوثائق التاريخية تقول: لا، لكن مَنْ يثق في الوثائق. ما أذكره من جولتنا الحلمية أن راكب دراجة يحمل في يده حزمة قات كاد يطيح بي فاستندت إلى «حبيب»، أذكر تمامًا ملامح راكب الدراجة الآن، وأتخيله يدور بدراجته بلا توقف هربًا من القصف، وقد ذبلت حزمة القات في يده.



رحلة البن اليمني عبر العصور

احتكر اليمن زراعته، وكان الإعدام مصير من يُهرِبْ بذوره إلى الخارج!



سحر عبده

في الصباح الباكر تكتسي بعض المزارع في اليمن بظلال النساء اللاتي يعملن في قطف ثمار البن وتنقيتها، فهن أفضل من يقوم بهذا العمل -كما يقال- وتبدو مزارع شاسعة للبن اليمني في صور حديثة أطلعتني عليها "أرزاق النجار" أول امرأة يمنية متذوقة للبن والمدير التنفيذي لأول شركة يمنية تقدم استشارات ودراسات وتطوير وتدريب في البن. تقول "أرزاق": "أخبرت أحدهم عن مجال عملي فسألني مندهشًا: "هل ما زال لدينا بن في اليمن؟!"

ذكرت إحصائية لإنتاج البن نشرت عام 2016 أن اليمن تصدّر 7500 طن فقط في العام من كمية إنتاج تصل إلى ما يقارب 20 ألف طن! مما يجعل البن اليمني ذا الجودة العالية نادرًا، فقد بدأت إنتاجيته في اليمن بالتدهور خصوصًا في ربع القرن الأخير.

إلا أن صحوة شبابية فعالة لرواد أعمال يمنيين يحاولون إعادة البن اليمني إلى سالف عهده ظهرت مؤخرًا.





اكتشاف البن واختراع القهوة

في مقال كتبه الباحث اليمني شهاب الأهدل عن تاريخ البن اليمني وميناء المخا الذي حاز شهرة عالية، يذكر وفقًا للأساطير أن أسلاف شعب الأورومو -وهم جماعة تسكن وسط وجنوب إثيوبيا- تعرفوا -قبل القرن السادس الميلادي- على تأثير نبات البن المنشط. والمرجح أنهم كانوا يتعاطونه بمضغ ثماره. ويقال إن راعيًا اكتشف التأثير المُنشِط لنبتة البن عندما لاحظ أن عنزه تتصرف بطريقة غريبة بعد تناولها أوراق هذا النبات، ويذكر الباحثون أن الموطن الأصلي للبن هو المنحدرات الجنوبية الغربية للوادي المتصدع في إثيوبيا.

وينسب إلى الصوفيين في اليمن ابتكار شراب البن «القهوة» عبر تجفيف ثماره، ثم تحميصها فقد كان شرابًا محفزًا لهم على الذِكر والدراسة، وما زالت القهوة حاضرة في الحضرات والموالد الصوفية في اليمن حتى اليوم.

انتقل البن من اليمن إلى تركيا ومصر، وحين زاد الطلب عليه عالميًا عرف الأوروبيون ميناء المخا اليمني الذي يصدره، واستورده التجار من أنحاء العالم، واستقبل ميناء المخا السفن المحملة بالذهب والفضة لتعود محملة بالبن.



أرزاق النجار

رحلة البن

احتكرت اليمن زراعة البن، وكان يحكم بالإعدام على من يحاول تهريب بذوره خارج اليمن، وقد كان الموظفون الحكوميون يشرفون على عملية غلي الثمار في الماء الساخن لتصبح عقيمة لا يمكن زراعتها. وقد نجحت هذه السياسة الصارمة في حماية احتكار اليمن للبن طيلة القرون: السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، حتى تمكن الهولنديون من تهريب بعض بذور البن في قطعة قماش مخفية من ميناء المخا.

زرع الهولنديون هذه البذور في الجزر الإندونيسية، ثم في سريلانكا وجاوة، وصدروا إلى أوروبا عام ١٧١١م أول شحنة بن غير يمني. وعلى الرغم من المناخ غير الملائم فقد تمكنوا في أمستردام من زراعة شتلات البن في بيوت زجاجية تحفظ الحرارة. بعدها قدم عمدة مدينة أمستردام عام ١٧١٤م ثمار هذه النبتة الثمينة هدية لملك فرنسا لويس الرابع عشر. وبهذا خسر الهولنديون احتكارهم زراعة البن المهرب من المخا، ومن فرنسا بدأت رحلة البذور إلى أمريكا



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

اللاتينية عبر مستعمرتها في جزر المارتيني، ومنها إلى تلال ريو دي جانيرو في البرازيل، حيث وجدت البيئة المثالية لزراعة البن التي تشبه البيئة اليمنية بأجوائها الحارة، ومرتفعاتها الجبلية، وأشعة الشمس غير المباشرة. لتكتسح البرازيل السوق العالمية وسط انهيار متسارع لسوق المخا اليمني، لتصبح البرازيل المُصدِر الأول للبن في العالم.

انتهى عندها ميناء المخا الذي عاش خمسة قرون فقط، ظهرت فيها مدينة المخا اليمنية لتعرف العالم بالبن، وتكسبه اسمها المعروف Mocha ثم تختفي بعدها.

هل سيعود البن اليمني إلى موطنه الأول؟

تقول «أرزاق»: «اشتهر اليمن تاريخيًا بزراعة البن، وتدهورت هذه الزراعة في القرنين الأخيرين إلى حد كبير، حتى ظهرت منذ ثلاث سنوات صحوة في وسط الشباب اليمني لاستعادة مكانته، بإعادة زراعته وتصديره إلى الخارج حسب المعايير الدولية».

سفن العالم قصدت موانئ اليمن محملة بالذهب والفضة لتعود منها مشحونة بالبن

تراجعت زراعة البن في بعض المدرجات الزراعية التي كانت تشغل كامل مساحتها لتشغل منها الآن 20% فقط، ومن أسباب هذا التراجع المردود المادي غير السريع، وعدم صبر بعض المزارعين على هذه النبتة التي تحتاج إلى رعاية خاصة وتهيئة ظروف مناسبة، فظهور أول محصول يتطلب انتظار خمس سنوات بعد زراعته. ولهذا تعمل «أرزاق» وغيرها من المهتمين على إقناع الفلاحين بزراعة محصول آخر يوفر مصدر رزق إضافي للمزارع إلى أن يثمر البن المزرع إلى جانبه، فهو لاشك سيوفر عائدًا مجزيًا للغاية للمزارع إن هو التزم بالطرق الصحيحة لرعايته.

وأكدت أرزاق أن توجهًا إيجابيًا يظهر لدى بعض المزارعين الذين يبدون استعدادًا للعودة إلى زراعة البن واقتلاع المنتجات الزراعية عديمة





الفائدة.

وتضيف أرزاق: «للبن اليمني مستقبل واعد حيث عاد الاهتمام به بشكل ملحوظ، ويحتاج المزارعون فقط إلى معرفة أسس زراعته، وتصديره بطرق صحيحة، والاهتمام بالمعايير الدولية لتهيئة البن اليمني للسوق العالمية».

الذهب الأسمر يستعيد عرشه

«بن اليمن يا درر
يا كنز فوق الشجر
من يزرعك ما افتقر
ولا ابتُلي بالهوان»

أصبح البن اليوم صناعة عالمية عملاقة يعمل فيها أكثر من عشرين مليون شخص حول العالم، ويحتل المرتبة الثانية للسلع المتداولة بعد النفط، وظهر الهوس به في ارتفاع أسعاره التي وصلت في بعض أنواعه الفاخرة والنادرة والمعاملة بطريقة خاصة إلى 9000 دولار للكيلوجرام الواحد.

للبن نوعان؛ متخصص وتجاري، يكلف المتخصص جهدًا وتكلفة أكبر في الاعتناء به، لذلك يباع بسعر أعلى، بينما يباع التجاري بسعر أقل.

ما زالت الصحوة في بدايتها، فبعد فترة توقف طويلة تطورت فيها

البن اليمني أقدم شهرة من التركي والبرازيلي

مواصفات السوق الحديثة ظهر البن اليمني أمامها مبتدئًا، لهذا يحاول مجموعة من الشباب عقد دورات تدريبية متخصصة لزارعي البن وتجاره لتوضيح خصائصه، ومواصفاته، وأساسيات زراعته، وفن تذوقه.

وترى «أرزاق» أن تصدير البن اليمني يعكس الصورة الجميلة لليمن بعيدًا عن الصورة السلبية المأساوية التي يراه بها كثيرون، وينشر ثقافة البن الجميلة التي يستحقها هذا المشروب.

أنواع البن اليمني

تطلق على البن أسماء متعددة اعتمادًا على المناطق التي يزرع فيها مثل: البن اليافعي، والحمادي، والمطري، والحرازي، وتطلق أسماء أخرى بناء على أنواع البن، أشهرها: البن العديني، البن الدوائري، البن الضاحي.

يتميز البن اليمني بقوام ممتاز،

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب



وحموضة لاذعة مميزة، ونكهات مختلفة معقدة، وهذه أكبر ميزاته لأنه يمنح من يتذوقه تجربة فريدة تختلف عن أي بن آخر في العالم؛ للتنوع والتميز والحيرة التي تتملك من يتذوق البن اليمني.

يصعب وصف مذاق البن إلا أنه -حسب مقياس coffee cupping الذي يستخدمه الذواقة لقياس مدى جودة البن- يحرز درجات تفوق 85 عادة.

ثقافة تذوق البن

قدمت لي «أرزاق» فنجان قهوة أصيلة وطلبت مني أن أشم رائحته المميزة، فتذكرت نصًا كتبه الشاعر محمود درويش في بيروت وهو يصنع قهوته أمام النافذة تحت القصف:

«كيف أذيع رائحة القهوة في خلاياي، والقذائف تنقضّ على واجهة المطبخ المطل على البحر لتنتشر رائحة البارود ومذاق العدم؟».

توقعت في يمن يعيش حربًا منذ سنين أن أشم في الفنجان رائحة بارود!

وأعود إلى «أرزاق»:

«نحكم على البن من رائحته بعد الطحن، وبعد التحميص، وقبل وبعد سكب الماء، لتمييز نكهاته المختلفة، وتحديد جودته إن كانت مناسبة لتصديره كمنتج متخصص».

وهي ترى أن ثقافة البن غائبة عنا، في حين تظهر في مجتمعات أخرى بشكل أوضح في طقوسهم اليومية، وهي تعتقد أن من حق هذا المنتج اليمني الأصيل الذي يعد جزءًا من الحياة اليومية أن يُعامل بتقدير أكبر.

وأكدت على أهمية نشر ثقافة البن، والتمييز بين أنواعه، وتنمية حاسة التذوق لنكهاته المختلفة.

وتؤكد وهي التي شاركت في فعاليات تذوق عالمية للبن أن المتذوق المحترف يعطي البن قيمة وسعرًا في



السوق، ويحدد مقدار جودته بناء على معايير يفترض أنه يعرفها.

وتضيف: «بمرور الأيام سيبدأ المتذوق في تمييز الروائح المختلفة للبن حيث تحمل كل منها دلالة مختلفة؛ فرائحة الوردهي أحدى الروائح النادرة التي تجدها فيه وهي رائحة زهرة البن في موسم الإزهار،

الهولنديون هربوا بذور البن إلى أوروبا في قطعة قماش مخفية

وهي تشبه رائحة الياسمين، كما تجد نكهات متعددة من الفواكه مثل: العنب والأناناس وغيرهما.

أما المرارة فقد تشير إلى طول مدة تخزين البن، كما يدل طعم التراب على سوء التخزين، وتسبب نكهة الدخان أخطاء في عملية التحميص، وتختلف هذه النكهات حسب طريقة معاملة

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب



الشجرة في مراحلها المختلفة».

وهناك عوامل عدة تتحكم في نكهة البن كاتجاه الرياح، واتجاه إطلالة الشمس على أشجاره، ومواقيت الري وطرقه، وطريقة التجفيف والتخزين والتحميص، وترفض «أرزاق» أي إضافات إلى البن عند صنع القهوة كالسكر والحليب أو البهارات إذ تفقده مذاقه المميز.

وتفضل أن يستخدم البن خلال شهر بعد تحميصه ليحتفظ بنكهته الطبيعية.

مشروب قشر البن

كان البن ولايزال سلعة غالية؛ فالتجار يصدرون الأنواع الجيدة منه ليحصلوا مقابلها على عائد ممتاز، لذلك لجأ الناس العاديون إلى حيلة لتناول البن دون تكاليف عالية، فاتجهوا إلى قشور البن التي كانت ترمى عادة بعد استخلاص الحبوب منها، ليصنعوا منها «قهوة القشر».

وتقول «أرزاق» إن القشر مشروب يمني بامتياز، وقد لا يعرفه الكثيرون حول العالم، حيث يتخلصون عادة من تلك القشور، أما في اليمن فيتم تجفيف البن بطرق معينة باستخدام ضوء الشمس المباشر، ولهذا تكتسب القشور نكهة خاصة.

وقد عرّف بعض الشباب اليمنيين العالم بسر القشر مؤخرًا، وقدمته شركات عالمية كشراب ساخن، ومشروب مثلج، وتتمنى «أرزاق» أن ينتشر منتج القشر بشكل أكبر، فهذا



محمود درويش

سيدعم تجارة البن أيضًا.

بن المستقبل

في خبر نشره موقع BBC عام 2015 ذكر أن تغيرات مناخية عالمية تهدد أمريكا اللاتينية التي أصبحت المصدّر الأساسي للبن في العالم في الوقت الحالي، فهل ستؤثر هذه التغيرات على زراعة البن؟

تقول «أرزاق»: «قد تؤثر التغيرات المناخية في مستوى تصدير البن في عدة دول كالبرازيل، وقد يكون لها أثر إيجابي على اليمن التي سيظل مناخه ملائمًا لزراعة البن، وقد يعود ليصبح أكثر البلدان إنتاجًا له، إلا أن هذا التأثير سيحدث على المدى الطويل وليس خلال السنوات القادمة».

المُزارع أولًا

«يا حارس البن بشرى موسم البن داني

ما للعصافير سكرى بين خُضر الجنانِ

هل ذاقت الكاس الأول من رحيق



المجاني

واسترسلت تطرب الأكوان بأحلى الأغاني»

ترى «أرزاق النجار: «كما تغيب ثقافة البن عن مستهلكيه، فهم يقبلون بأي منتج دون السؤال عن جودته ما يصرف اهتمام التجار ببيع منتج جيد في السوق الداخلي، إضافة إلى القدرة الشرائية المتدنية للمستهلك اليمني الذي لا يتمكن من دفع ثمن البن المتخصص مرتفع السعر.

في نهاية حديثها تشير «أرزاق» إلى ثلاثة أمور يجدر الاهتمام بها لإعادة البن إلى سابق عهده: توعية العاملين في تجارة البن بالمتطلبات العالمية لإنتاجه وتصديره، ورفع الوعي بأهميته، ونشر ثقافته على نطاق واسع في المجتمع المحلي، وتطوير الذائقة على المستوى الفردي.

المراجع:

(1) HYPERLINK «https:// www.almadaniyamag.com/2017/arabic/10/24/-» https:// www.almadaniyamag.com/2017/arabic/10/24/-المخا- قصة انهيار مدينة البن- الجزء الأول، شهاب الأهدل، مجلة المدنية، 2017

(2) HYPERLINK «https:// www.almadaniyamag.com/2017/arabic/12/20/-» https:// www.almadaniyamag.com/2017/arabic/12/20/-من المخا إلى ريو دي جانيرو- رحلة تهريب بذور البن-الجزء الثالث، شهاب الأهدل، مجلة المدنية، 2017

(3) الأبيات الشعرية من قصيدة (الحب والبن) للشاعر الغنائي اليمني مطهر الإرياني.



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

كتاب «التيجان في ملوك حِمْيَر» لوهب بن منبه

قلعة القاهرة في تعز



عبدالبديع عبدالله

يبدو أن المقولة الشائعة بين دارسي الأدب العربي "الشعر ديوان العرب" مقولة غير مكتملة في ظني، فتمامها أن تكون هكذا: "..... والنثر خيال العرب". ومع ما في هذه العبارة من مفارقة ظاهرية بين الشعر والنثر إذ أعطت للشعر الحقيقة الواقعة كما تمثلها قصائد فحول الشعراء منذ وصل إلينا الشعر الجاهلي، فإنها ترصد حقيقة تراها في طرائق السرد العربية في التراجم والأخبار والتأريخ منذ أقدم عصور الكتابة قبل الإسلام وبعده. ويمكن تعليل ذلك بقدرة النثر على الانطلاق بالعبارة وتتبع خيال قائلها أينما ذهب به الخيال. والأمثلة على ذلك كثيرة أكتفي منها بكتاب أظنه من أقدم ما وصل إلينا من الكتابة المنثورة هو "كتاب التيجان في ملوك حمير".

واضع الكتاب هو "وهب بن منبه بن سيج بن ذي كبار"، ولد سنة 34 هجرية وتوفي سنة 114 هجرية.

أما راوي الكتاب فهو ابن هشام "أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري" عن "أسد بن موسى عن أبي إدريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه".



في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

قصة كتاب

و للكتاب قصة يرويها الشاعر اليمني الدكتور عبدالعزيز المقالح الذي كان رئيساً لمركز الدراسات والأبحاث اليمنية بصنعاء. ويروي المقالح كيف تأثر بإعجاب الدارس «فاروق خورشيد» بالكتاب الذي عدّه كنزاً ثميناً «لقد فتح هذا الكتاب عيني على عوالم عديدة.. وشكل بداية الصلة الحميمة بيني وبين اليمن شعبًا وتاريخًا وحضارة وأساطير، إنه تحفة من الفن المكتوب».

أما المقالح فسرت فيه عدوى الكتاب، بعد تلقيه جرعة الحماس من «فاروق خورشيد»، فأعاد قراءته.



يقول: «عكفت على قراءته للمرة الثانية، قرأته هذه المرة بعين وقلب الشاعر، لا بعقل الباحث أو المؤرخ. وقد أدهشني حقًا وحملني إلى عوالم من الخيال والأساطير تتضاءل أمامها تلك الأفلام الغربية المدهشة التي تمطرنا بها استوديوهات هوليوود.

الكتاب كما قال عنه الأستاذ «فاروق خورشيد» تحفة فنية مرسومة بالكلمات». وهذا ما دفعه للعمل على تحقيق الكتاب ونشره في مركز الدراسات والأبحاث اليمنية الذي يرأسه، ولكنه يعترف أن مشاغله لم تترك له مجالًا لتحقيق الكتاب ففضل أن يخرج الكتاب إلى النور كما هو على أن يكون التحقيق في وقت لاحق.

والنسخة التي اعتمد المقالح على نشرها هي النسخة الوحيدة التي كانت متاحة له وطبعتها مطبعة مجلس إدارة المعارف العثمانية في الهند ببلدة «حيدر آباد» عن نسخة أصلية عثر عليها في صنعاء يبلغ عمرها خمسمائة عام تقريبًا كتبها بخط يده السجين بقصر صنعاء المسمى «الدار الحمراء» «مُطَهّر بن عبدالرحمن بن المطهر بن الإمام شرف الدين». وكان قد مضى عليه في السجن سبع سنوات كما يقول في خاتمة النسخة المخطوطة وهو لذلك يسأل الله فك أسره وأن يفرج كربته وكربة كل سجين.

وهناك نسخة ثانية محفوظة في المتحف البريطاني بلندن برقم 2901، وقد فرغ ناسخها من كتابتها في غرة شعبان سنة 1031 هجرية، وناسخها أحد أبناء اليمن ويسمى «علي بن محمد بن هاجر القملاني»، والفرق بين تاريخ كتابة النسختين أربع سنوات.

وقد أصدر مركز الدراسات اليمني هذه الطبعة الحديثة من الكتاب في 19/ 4/ 1979.

يبدأ الكتاب كمعظم كتب التاريخ





القديمة بأحوال خلق العالم وآدم وذريته، وأحداث الطوفان وما بعده، وذرية نوح إلى أن يصل إلى موضوعه، وهو تاريخ اليمن «ملك حمير» و«ملك وائل بن حمير» و«ملك السكسك بن وائل» و«ملك يعفر بن السكسك» و«عامر ذورياش» و«المعافر بن يعفر» و«شداد بن عاد».... إلى أن يصل إلى «حسان بن تبان» و«تُبّع بن حسان» ثم «أبرهة» و«يكسوم» و«سيف بن ذي يزن» إلى «عاد وثمود» و«جُرْهم» و«ذي القرنين»... وهكذا يمضي الكتاب.

أما كيف يروي الكتاب هذا التسلسل التاريخي، وكيف يمزج الواقع بالخيال والنثر بالشعر فهذا سره وسحره.

ماذا قرأ وهب بن منبه؟

منذ البداية تفاجئنا رواية خبرية عن «وهب بن منبه» تقول: «حدثنا أبو محمد



فاروق خورشيد

عبدالملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبي إدريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه» أنه قال: «قرأت ثلاثة وتسعين كتابًا مما أنزل الله على الأنبياء فوجدت فيها أن الكتب التي أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابًا أنزل صحيفتين على آدم بكتابين صحيفة في الجنة وصحيفة على جبل لبنان وعلى شيث بن آدم خمسين صحيفة وعلي أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة وعلي نوح صحيفة قبل الطوفان وأخرى بعد الطوفان وعلي هود أربعًا وعلي صالح صحيفتين وعلي إبراهيم عشرين صحيفة وعلي موسى خمسين صحيفة وهي الألواح: قال الله «إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى» وعلى داوود الزبور وعلى عيسى الإنجيل وعلى محمد الفرقان صلى الله عليه وسلم جميع النبيين.

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

هذه أول عبارة يفتتح بها كتابه. ما قرأه مما نزل الله على أنبيائه. ووهب بن منبه «كتابيّ» قبل أن يسلم، وعالم مطلع يعد هو وكعب الأحبار من أجَلّ علماء الكتابيين.

قصة الخلق:

ويتحدث عن قصة الخلق.. الماء والهواء والسماء والأفلاك والجنة وأجناس الملائكة يسبحون الليل والنهار.. ثم خلق النار بعد الجنة بألف عام فزفرت النار وتغيظت، فتطاير منها الشرر فخلق الله من ذلك الشرر إبليس والجان وأسكنهم الجنة يسبحون الله تعالى كما يرون الملائكة يفعلون ويعبد اللهَ إبليسُ مع الملائكة.. وخلق الله الأزمنة أربعة: شتاء وصيف وربيع وخريف. وبسط الأرض بقدرته وأمسكها كيف شاء بحكمته وأدار الأفلاك بإتقان حكمه وحسن تدبيره، فدار الفلك بهذه الأزمنة الأربعة.. وفي الجنة تنافس الجان وطغى بعضهم على بعض، وعصوا الله وسفك بعضهم دم بعض. عج الملائكة إلى الله بالدعاء، قالوا «سبحانك ربنا ما أحلمك وأكرمك يتقلب في نعمك من يكفر بك.. فغضب الله على الجان فأوحى الله إلى جبريل أن أخرج الجان من جواري وطهِّر منهم جنتي فأخرجهم جبريل من الجنة إلى أرضنا هذه فأسكنهم جزائر البحار وقفار الأرض، وبقى إبليس مع الملائكة يعبد الله.

آدم وحواء

ثم خلق الله آدم عليه السلام لما شاء كيف شاء حين شاء في سابق علمه المكنون وحكمه النافذ من أديم الأرض من سهلها وجبلها وأبيضها وأسودها وأحمرها، فجمع الطين فصار صلصالًا حمأ مسنونًا فصور آدم من تلك الطينة. فرفع جبريل آدم إلى الجنة، فلما رأته الملائكة قالوا ما هذا قال تعالى «إني جاعل في الأرض خليفة». وطاف إبليس بآدم فغَمَّه ما رأى من جماله وحسن خلقه حسدًا ثم جسَّه بيده فدوَّى آدم فقال: خلق مجوفًا. أصبت والله فيه حاجتي. فجال الروح في رأسه فأبصر فرأى جبريل عليه السلام. ثم انتشر الروح في جسم آدم فشق جوفه إلى حقويه فاستوى جالسًا. وكانت جلسته قبل أن تصل الروح إلى ساقيه وفخذيه وقدميه. فقال جبريل: يا آدم إن الله لم يخلق بشرًا قبلك. أنت أبو البشر فاشكر الله تعالى قال فرفع آدم بصره إلى العرش فلم يحجب عنه العرش فرأى في ساق العرش مكتوبًا بالنور «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وكان ملهمًا للقراءة فقال يا جبريل ألم تقل أني أبو البشر وهذا محمد مكتوب في ساق العرش فقال له جبريل صدقت يا آدم صدقتك، هذا محمد حبيب الله أكرم البشر على الله خاتم الأنبياء من ولدك وبه تكنى يا أبا محمد، له غدًا المقام المحمود وله الشفاعة واللواء والحوض والكوثر.

وخلق الله تعالى حواء من ضلع آدم اليسرى.

أما عداء إبليس لآدم فانتهى بطرده من الجنة وتربصه بآدم حتى يخرجه منها.

وهكذا عمرت الأرض بعد لقاء آدم بحواء على جبل عرفات، وكيف وقعت أول جريمة قتل على الأرض بين الأخويين قابيل وهابيل، ويسرد وهب كيف قتل لامك بن هنوش بن هابيل قاتل جده فقتله بقوسه، مع أنه كان ضريرًا، ودعا الله قائلًا: «اللهم اهدني وانتقم»، ثم رمى فأصاب نحر قابيل فسقط عن فرسه.

كيف عمرت الأرض وازدهرت؟ قال





وهب إن آدم غرس الثمار التي هبط بها من الجنة، فأول ما غرس بالبلد المقدس ثم انتشر بنو آدم إلى الجزيرة وبابل واليمامة والطائف، وبلغوا البحرين يغرسون الثمار، وبلغوا اليمن وعمان يغرسون الثمار ويحفرون الأنهار ويبنون المصانع وينحتون الجبال.

حتى جاء أمر الله وقضائه أن يبلغ جبريل آدم أن يقيم شيئًا من بعده في الأرض للإنس والجن، يقيم حجة الله وينهاهم عن معصيته، فعلم آدم أن نعيت إليه نفسه فأوصى شيئًا واستخلفه. وماتت حواء قبله بعامين.

وشيث اسم عبراني تفسيره العربي خلف. وخلف «شيث» ابنه «أنوش» وهو بالعربية «إنسان» ثم «قينان» وهو بالعربية «المشترى». وبعده «مهليل» وبالعربية «ممدوح»، وبعده «يارد» وبالعربية «ضابط»، وبعد هـ«أخنوخ» وفي العربية «إدريس».

وهو كما قال «وهب» أول من كتب في الدنيا بيده، وبعده «متوشولح» وفي العربية «مطلوق»، ثم «لافح»، وفي العربية «لمك»، ثم «نوح بن لامخ» الذي دعا الناس والجان إلى طاعة الله فعصوه فكان الطوفان.

الطوفان وحج نوح وبنيه

ولما آن وقت الحج قذف الريح السفينة إلى البلد الحرام، فطاف نوح بالبيت أسبوعًا، ثم قال لبنيه: «إنكم في حج فاعتزلوا النساء فجعل نوح النساء بمعزل وجعل دون النساء رمادًا»، وأن «حام» جاز إلى امرأته فوطئها فلما أصبح «نوح» رأى الأثر في الرماد، فقال: «من جاز إلى النساء؟ قالوا: لا نعلم من جاز. وكتمه «حام». فقال «نوح»: اللهم سوّد وجهه ووجه ذرية من عصى ووطئ أهله». فولدت امرأة «حام» غلامًا أسود فسماه «كوشًا»، فعلم أن الدعوة أدركته.

وأعطى «جبريل» «نوحًا» صحيفة هي كنز لذريته لا يروها ولا يعرفها «نوح» حتى يأتي زمانها. فلما حانت اللحظة ل»نوح» وناداه نداء الموت جمع أولاده ليقترعوا على الصحيفة التي بيده، فمن صارت لديه فهو خير ولده. ولما اقترعوا كانت من نصيب «سام» فحملها ولم يعلم ما هي.

وقال «وهب»: «كان سام بن نوح جزوعًا من الموت، فسأل نوح الله ألا يميته حتى يسأل الموت، فعاش أربعة آلاف عام نبيّ ألفين وعمّر ألفين وأن سام اعتل بنسمه، فسأل ربه الموت فمات بعد أن قرع بين أولاده في الصحيفة، فصارت إلى «أرفخشذ» وهو بالعربية «مصباح مضيئ»، فعلم «سام» أنه خير أولاده فأوصى له واستخلفه. وولى «أرفخشذ» وفي أخريات عمره ساهم بين بنيه على الصحيفة، فصارت إلى «شالخ»، وبالعربية معناها «وكيل» ومنه إلى «عابر» وكلهم يحمل الصحيفة ولا يعلم ما فيها حتى أراد الله تفرقة الألسن للذي سبق في علمه لظهور الحجة.

وبعد مراحل من الخوف والنسيان والتردد عادت الحروف إلى مخيلة «عابر» بعد أن كان فقد قراءتها فقرأها وعلم ما فيها، فدعا ابنه «هود» وهو «هود النبي صلى الله عليه وسلم»، فقال له: «يا هود إن الله اختصني بعلم عظيم جليل القدر لنا به الشرف في الدنيا والآخرة، ثم أخرج الصحيفة فقرأها وعلم ما فيها، فقال له هود: يا أبت إني رأيت رؤيا كأن آتيًا أتاني فأطعمني طعامًا فلما وصل إلى جوفي تَضَوّعَ له من فمي نور ملأ بين المشرق والمغرب».

في ملك بلقيس.. وحضارة مأرب

قال له «عابر» «أنت يا بني صاحب الصحيفة سيقال لك وتقول فاحترس بما في يديك. ثم تبلبلت ألسن الخلق، فأقاموا بالمجدل وبأرض بابل يموجون ويعالجون اللغات، فسلبوا اللسان السرياني إلى أهل الجودي، فإنهم لم يحتوج لهم لسان يتكلمون بالسرياني، وأجرى «جبريل» على لسان كل أمة لغة فنطق الناس بالألسن الأعجمي والعربي وأفصح يعرب بالعربية وهود أبوه.

قال «وهب»: «إن الله أنزل على هود أربع صحف، ثم إن الله قبض هودًا، ودفن بالأحقاف بموضع يقال له الهنيبق».

أما «قحطان» فعاش باليمن بعد أن حج ومات بـ«مأرب» وولي أمره ابنه «يعرب». فوزع على إخوته ملك أبيهم: «جرهم» على مكة، و«عاد» على أرض بابل، و«ناعم» لأرض عمان، و«حضرموت بن قحطان» لأرض الحبشة، وولي «أيمن بن قحطان» الجزيرة.

وبعد «يعرب» ولي الأمر «يشجب بن يعرب»، ثم «عبد شمس بن يشجب»، وكان مقاتلًا فارسًا يقول لبني قومه: «يا بني قحطان إنكم إلا تقاتلوا الناس قاتلوكم وإلا تغزوهم غزوكم ولم يغز قوم قط في عقر دارهم إلا ركبتهم الذلة».

وكان عبد شمس يفضل في المعارك السبي، ولذلك سُمي «سبأ» من كثرة ما سبى من الأعداء. وعاش خمسمائة عام وبنى السد فيه سبعون نهرًا.

وبعد سبأ آل الملك إلى ابنه «حمير» وبعده «وائل بن حمير»، ثم ملك السكسك بن وائل، وبعده «يعفر بن السكسك»، ثم «عامر ذو رياش» ثم «شداد بن عاد»، وبعده «لقمان بن عاد» و«الهمال بن عاد»، و«الحارث بن الهمال»، و«الصعب ذي القرنين». وقد أوصى الخضر، عليه السلام، ذا القرنين وصية منها: «يا ذا القرنين حملت أمانة لو حملت على السماء انفطرت وعلى الجبال انهدمت وعلى الأرض انشقت، أعطيت الصبر وأوتيت النصر... يا ذا القرنين مُرّ ينفع خير من حلو يضر... الخ وصايا الخضر.



وعبر ذا القرنين بلادًا كثيرة صارت له وولى عليها من رأى صلاحه، ومن هذه البلاد أرض يأجوج ومأجوج قاتل عليها وغلبها وأذاب أمة منهم عليهم هم بنو «علجان بن يافث بن نوح».

ويقول وهب عن نسب ذي القرنين إنه من حمير، وهو «الصعب بن ذي مراثد». هو الذي مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيئ سببًا. فبلغ قرني الشمس، وداس الأرض وبنى السد على يأجوج ومأجوج.



وكان من بني عبد شمس بن وائل بن حمير ابن سبأ، وهو عامل بلقيس على نجران وغيرها. وكان حكيمًا. فلما رأى طوالع عساكر سليمان طلعت فتواضع وذل. وجمع أهل نجران، وهي دار العلم، وسألهم هل عندكم علم من هذا العلم؟ قالوا له: «ما لم يكن عندك يا سيدنا وأنت جهبذ العالم فيكون عندنا». قال لهم: «إني ألبس لهم مُسحًا وعباءة وأسير إليهم بثلاث.. بكهانة وطب وحكمة».

فعجز عن إثبات قدراته أمام «سليمان». فأرسل «القلمس» إلى «بلقيس» يخبرها بخبر سليمان، وكتم إيمانه به. فكتبت إليه «بلقيس»: «تفعل الملوك ذلك يستميلون أهواء العالم حتى يقدروا، فإذا قدروا عزوا وبزُّوا. لا تحاربهم ودعهم، فليس كل الناس صادقًا لنفسه. فإن سرقوا فليسوا بأهل دين. فخلى القلمس بينهم وبين الزرع فلم يأكلوا منه سنبلة. فأخبر «بلقيس» فأمرته أن يدفع الخف وانطلق فلم يأخذ منه شيئًا. فأمرته أن يدفع إليهم الخيل ذكورًا وإناثًا، فلم يأخذوا منها شيئ، فأمرته أن يبعث إليهم بجارية حسناء وأعطاها شيئًا تطوف به على عساكرهم فأرسل ابنته، ولم يكن في وقتها أجمل منها فكانوا يساومونها ولا يرفع أحدهم إليها رأسه حتى انتهت إلى سليمان فلم ينظر. فكتبت إلى عاملها: «كف ومل إلى سلمه ولا تعرض أجنادنا إلى أمر الله فإن الله لا يغالب».

ثم رفع «سليمان» حتى كان في مأرب مدينة «سبأ» على مسيرة ثلاثة أيام، أراد النبي سليمان النزول، وكان لا ينزل إلا على الماء، وكان الهدهد الذي يدله على الماء، فتفقد الهدهد ولم يره: «وتفقد الطير فقال: مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين». أما الهدهد فكان إلى جانب هدهد من أرض سبأ حكى له عن سليمان وملكه، وحكى الآخر عن بلقيس وحسنها وفضلها ورأيها وحسن تدبيرها وكثرة جنودها والخير الذي أعطيته في بلدها وأمها من الجن وهي من ولد حمير. فلما رجع الهدهد أبلغ سليمان: «أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين أني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون». قال سليمان: «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثم تَوَلَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون. فلما ألقى الهدهد كتاب سليمان إلى بلقيس جمعت رجالها وكانوا يفكرون في الحشد، ولكنها أبت ورفضت. وقالت: «إني مرسلة إليه بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون».

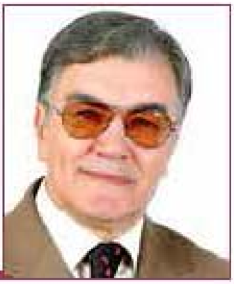
أرادت أن تمتحنه بهديتها.. مائة وصيف ومائة وصيفة ولدوا في شهر واحد كما ولدوا في ليلة واحدة، وأرسلت إليه بحُق فيه ذهب ودر وياقوت وزبرجد وزمرد وفضة، ولبُست الوصائف والوصفاء زيًا واحدًا ليظن من رآهم كلهم غلمان، وأرسلت إليه بخيل عتاق بعضها من بعض من غير أن يخبره أحد، وعليه أن يخبر بما في الحُق من غير أن يفكّه. فلما أتت الهدية إلى سليمان نسب لهم الخيل وميز الغلمان من الجواري في لباسهم، وأخبرهم بما في الحُق من عدد الياقوت والجوهر والزبرجد والزمرد ووزن العقبان واللجين، فصدقه الرسل.

ثم دعا عفريتًا من الجن يأتي بعرشها بكل ما هو مرصع فيه فقال «آصف بن برخيا»، كاتب سليمان، وقد كتب الوحي الذي أمر الله به سليمان: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك». فأمر سليمان الريح فأقلت «آصف» أسرع من طرفة عين فأمر الريح فحملته وأقلته وأمسك «آصف» صدر العرش فأتى به سليمان.

وبعد أن يلتقيا ويعرض عليها الإسلام وتسلم «رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، فينتهي الأمر بينهما بالزواج.

ويستمر كتاب «التيجان» في سرد قصص وحكايا وأساطير عن سلسال الملك في أرض اليمن، ويلتحم الكتاب مع روايات «عبيد بن شريه الجرهمي» عن ملوك اليمن التي كان يقصها في مجالس «معاوية بن أبي سفيان» في الليالي بعد صلاة العشاء، وكان معاوية يحب أن يعرف فيسأل ويستوضح الأدلة ومجالسه يحكي ويشرح تاريخ العرب من القديم إلى العصر الذي هم فيه.

كي لا نخَطِّئ الصواب ونصوِّب الخطأ



عبد القادر فيدوح

جامعة قطر

معجم «الكلام الصحيح في اللسان الفصيح»

تثير إشكالية اللغة العربية في مجتمعاتنا العربية - بين معظم لغات العالم الحية- حيزًا عقيمًا من الجدل حول إمكانية وجود علاقة اللغة العربية بالنشاط الإبداعي/العلمي، في وقت تحتاج فيه الأمة العربية -بوجه عام- إلى الدخول في خانة الإبداع التكنولوجي، والإسهام في صناعة التحديث الحضاري المنسجم مع مساعي الألفية الثالثة.

وإذا كان الأمر كذلك فهل يمكن أن تسهم اللغة العربية في البناء الاجتماعي للأمة العربية في هذه الألفية؟

ثم كيف تحافظ مؤسسات المجتمع المدني على اللغة بوصفها عملة تداولية بين مجتمعاتنا؟ قد يكون أجدى في هذا المقام أن نبحث عن أي المبادئ والقيم التي تجعل من اللغة العربية لغة معارف علمية؟ وقبل ذلك كيف نحافظ على هذه اللغة الرصينة في بيانها؟ وكيف ندفع بها إلى مواكبة العصر؟

أن تنمية القدرة اللغوية في أبسط أداء لها، هي تحسين مستوى التعبير، بصورة مبدئية، ولعل الأستاذ عبد الله محمد الجابر قد أدرك خطورة هذه البداهة عندما استشف محصلة اللغة التداولية بين شبابنا، وأنها خالية من أي رصيد لغوي سليم، بالنظر إلى لكنة القول، وعُجمة اللسان، التي استبدلت بها سلامة اللغة -على الأقل- في وضوح نطقها، معبّرًا في رسالة الضمنية من خلال كتابه «الكلام الصحيح في اللسان الفصيح» أن ما يروج له من تداول لفظي في لحن القول، وتلكؤ اللسان، لا يُظهر ما يُخفي صدر القائل؛ لعجزه في التعبير عن مكنوناته، كما نتلمس في رسالته الدلالية -أيضًا- أن تقصير كلام بعض إعلاميينا على مساحة وسائل الإعلام المتعددة يفسر تجاهلهم فصاحة اللغة العربية، وكأن البغضاء تبدو من ألسنتهم.

ويعد الحديث عن اللغة العربية -في رسالة عبد الله الجابر- بما هي عليه في واقع الحال، سابقة وخيمة ينبغي تداركها، وهي ظاهرة لم تشهدها ثقافتنا العربية حتى إبّان المراحل التي مرت بها اللغة العربية، حين حاولت ثقافة العصور الوسطى طمس أثر لغتنا من ذاكرة الهوية.

من هذا المنظور، يعد كتاب «الكلام الصحيح في اللسان الفصيح» للأستاذ الفاضل عبد الله محمد الجابر، أحد أهم ركائز الاهتمام باللغة العربية، ومفرداتها، وتفاصيلها، بالنظر إلى إسهاماته المتميزة التي تناولت عملية تحديد الأخطاء الشائعة على ألسنة المثقفين والإعلاميين. وإظهارها بالشكل الذي ورد في الكتاب ليس بالأمر السهل، كما يظن البعض؛ ولذلك استوجب من مؤلف الكتاب أن يُعنَى بهذا الجانب في تحليل الأخطاء، وتصويبها، إيمانًا منه بأن اللغة هي محور الهويّة الوطنية، ومضمونها، وقاعدتها، وحارسها الأمين، وهو ما تطلب منه انتقاء ما هو شائع من الأخطاء ومرونة كبيرة، ثم التطرق إليها من باب الحرص على صحة المادة التي يدرسها الجيل الواعد، والتنبيه إلى أهميتها، مع الأخذ في الاعتبار أن «شرح الأخطاء اللغوية هي عملية صعبة جدًا، وإنها الهدف النهائي والأخير من تحليل الأخطاء» حسب رأي الكثير من الباحثين.

وكتاب الأستاذ عبد الله محمد الجابر -الذي صدر مؤخرًا في دولة قطر- يُعزّز الاهتمام باللغة العربية ومفرداتها وتفاصيلها، كما يهدف إلى تصحيح الأخطاء الشائعة، وتوضيح الجمل الذائعة، والتقليل من الأخطاء اللغوية التي يرتكبها كثير من الكتاب والإعلاميين. ومن هذا المنظور استوجب الأمر من المؤلف ترغيب لغة أحلامنا فيها، وارتباط روحنا بها، وهذا في تقديرنا أهم عامل، والأكثر أهمية، في بناء شخصيتنا التي أراد المؤلف أن يعززها فينا.

لقد عَزَا عبد الله محمد الجابر الأخطاء الواردة في كتابه القيم إلى مظانِّها الرئيسة؛ أي إنه بيّن أسبابها، ويبدو حرصه الشديد على هويته ناتج من تأكيد أهمية اللغة العربية، ودورها في الحياة اليومية، وإيصالها إلى المتلقين بالوسائل المتاحة كلها.

وقد دلّل الأستاذ عبد الله، على تلك الأخطاء -بعد تصحيحها- بالكثير من الأمثلة التطبيقية التي تناولها بالشرح، وبفحص أصلها اللغوي والقاعدي، لمن أراد المزيد من التفاصيل، لأن عملية تحديد الأخطاء ليست بالأمر السهل، كما يظن بعض علماء اللغة. ولذلك يجب على الباحث في تحليل الأخطاء، أن يكون عالمًا باللغة





التي يَبحثُ فيها، ويَدْرُسُهَا جيدًا، كي لا يُخطّئ الصواب، ويُصوّب الخطأ، وهو ما توافر في مؤلف هذا الكتاب الذي يُعد من الباحثين القلائل الغيورين على سلامة العربية الفصحى، والحريصين على خدمتها بكل ما في وسعه من جهد، رغبة منه في أن يأخذ الجيل الجديد على عاتقه تصويب لغته بفوائد جليلة من هذا الكتاب.

كما اجتهد المؤلّف بتشكيل كافة الحروف والكلمات الواردة في الكتاب، وهو أمر من النادر أن نجده في مصادر ومؤلفات أخرى تناولت الموضوع نفسه، الأمر الذي منح المعجم ميزة علمية نادرة، تساعد على القراءة الصحيحة، لذلك تطرق إليها من باب الحرص على صحة المادة التي يدرسها الجيل الواعد، والتنبيه إلى أهميتها.

ويُعد معجم «الكلام الصحيح في اللسان الفصيح» إضافة مهمة إلى اللغة العربية وآدابها، وفقهها، وقواعدها، بعد أن جاء هذا المنجز الوجيه في وقت تواجه فيه اللغة إهمالاً من المنتمين إليها، وتحديًا من لغات أخرى تحاول أن تتقدّم عليها.

أما بخصوص منهج الكتاب، فقد ذكر المؤلف في مقدمة كتابه: «أردت بمؤلفي هذا تقليل الأخطاء اللغوية التي يرتكبها كثير من الكتاب والإعلاميين، فعرضت لكثير منها لم يتناولها كتاب آخر وبينت صحيحها... ويمتاز كتابي هذا بكثرة الأمثلة، والشرح، والتفصيل مع ذكر قواعد النحو والصرف، ومن غايته معرفة الخطأ من الصحيح..

كما أنني أذكر رأيي أحيانًا في تصحيح بعض الكلمات»، وهو ما يحسب للأستاذ عبد الله الجابر في بذل هذا الجهد المثمّن، الذي تجاوز في منهجه حصر الأخطاء وتصويبها، إلى تحفيز الجيل الجديد على تحبيب لغة هويته الدينية والحضارية، وبذل الجهد في الحفاظ عليها.

اعتمد الأستاذ عبد الله الجابر على جملة من الخطوات، نتلمسها في أثناء تفحص المعجم على النحو الآتي:

جمع المادة/ تحديد الخطأ/ تصنيفه/ وصفه/ شرحه/ التطبيق العملي (بالأمثلة والشواهد المتنوعة) / ترتيب الكلمات هجائيا في شكلها، والعودة إلى جذرها/ اختار بدء الترتيب بهمزة القطع، ثم همزة الوصل/ وعدم احتساب أداة التعريف (ال)/ كما اختار اللون الأحمر للكلمة الصحيحة، واللون الأزرق للخطأ، وهو جهد قلّ مثيله في تأليف المعاجم الحديثة، وحتى القديمة منها، فضلًا عن ذلك أن الخطة التي اتبعها في إنجاز هذا المعجم المتميز، تستند إلى مصادر لها أهمية في المرجعية الدينية والمعرفية الرصينة، تتمثل في: القرآن الكريم، ومجمل المصادر التراثية.

وقد سعى الأستاذ عبد الله الجابر من وراء هذا المعجم القيم إلى تذليل عقبات كثيرة تواجه القارئ في جميع المجالات الثقافية والعلمية، حرصًا منه على أن تصل اللغة العربية إلى مكانتها الصحيحة، بخاصة على بعض الألسنة التي بات يغلب عليها مجرى اللكنة والرطانة، وتكون بموجبها غير قادرة على الإبانة ضمن السياق الذي يتكون منه التعبير، لذلك حرص المؤلف على أن تبلغ اللغة العربية غايتها أثناء تداولها لدى البصائر الواعية، ومن هنا جاءت ميزة الكتاب متمثلة في: الدقة في الإخراج / استعمال الألوان/ كثرة الأمثلة، (شرحها، مع ذكر قواعد النحو، والصرف)/ غالبًا ما يذكر الباحث رأيه في تصحيح بعض الكلمات، (مخالفًا بذلك بعض الكتب التي تناولت موضوع الأخطاء)/ تشكيل الكلمات(وهو ما يحسب له لأنه موضوع ليس بالأمر الهين)/ الحفاظ على العربية، بوصفها محور الهويّة الوطنية، ومضمونها، وقاعدتها، وحارسها الأمين.

كل ذلك جاء بإخراج محكم، لأن عملية تصنيف الأخطاء، تتطلب من الباحث في هذا المجال مرونة كبيرة.

ولعل المحصلة من وراء ثمرة «الكلام الصحيح في اللسان الفصيح» بوصفه إنجازًا قيّمًا في دلالاته المعنوية والعلمية، هو توجيه رسالة ضمنية، مفادها نجاة مستقبل لغتنا بما يضمن لها مواجهة الخطاب الاجتماعي الذي تحول في سياقه التداولي من سلامة النطق في التواصل إلى تلفيق الحديث برطانة اللغة المشوهة، وبتأثيرها السلبي الذي ألزمه الواقع الافتراضي المهيمن على المجتمع، لذلك كانت صرخة «الكلام الصحيح في اللسان الفصيح» رسالة إلى الأجيال الواعدة للعودة إلى لغتنا وتوظيفها توظيفًا إجرائيًا يوفر إمكانية الوصول إلى الذوق السليم، وإلى استخدامها علميًا وعمليًا.



موسيقانا العربية بين العالمية والعولمة

التراث الموسيقي العربي يفتقر إلي التوثيق والتدوين العلمي

إيناس جمال الدين

أهدى مؤتمر الموسيقى العربية ومهرجانه دورته السابعة والعشرين إلى اسم الفنانة الكبيرة "شادية"، وكرّم كوكبة من الموسيقيين الراحلين الذين أضافوا إلى الوجدان العربي الكثير، وجاءت الأسماء علي التوالي: الموسيقار ميشيل المصري، الفنان سعد محمد حسن، الملحن حلمي أمين، المايسترو صلاح عرّام، الملحن رياض الهمشري، وعازف الكمان حازم سليم، إلى جانب اسم الموسيقار اللبناني حليم الرومي، وقد تسلمت درع التكريم ابنته الفنانة ماجدة الرومي في حفلها الختامي.

وقد شمل حفل الافتتاح أيضًا تكريم كل من: الفنانة الكويتية نوال، والملحن عبد الرب إدريس، والموسيقار عماد الشاروني، والمطرب سمير الإسكندراني، والمطربة التونسية لطيفة، والباحث العراقي حبيب الظاهر، والدكتور قدري سرور.

وعلي مدي اثني عشر يومًا أقيمت حفلات المهرجان على عدة مسارح بالعاصمة والمحافظات. وشهد المسرح الكبير بدار الأوبرا حفلات: محمد الحلو، ومحمد ثروت من مصر، والمطرب همام إبراهيم من الأردن، والفنانة التونسية لطيفة، واللبناني سعد رمضان، والمطربة المصرية مروة ناجي، وفقرة موسيقية لعازف الكمان محمود سرور والفنان اللبناني الكبير عاصي الحلاني.

كما قدم نجوم الموسيقى العربية: ياسر سليمان، وصابرين النجيلي، ورحاب عمر فاصلًا قبل أن يصعد إلى المسرح المطرب اللبناني رامي عياش، أما الفنان الكبير عمر خيرت فالتقى بالجمهور الحاشد في الليلة الخامسة، حين عزف على البيانو وصاحبه الأوركسترا. وفي الليلة السادسة تغنت الفنانة اللبنانية كارلا رميا بمجموعة أغاني من زمن الفن الجميل، ومعها عازف الكمان اللبناني أندريه سويد بقيادة المايسترو أندريه الحاج. واختتمت الليلة بالمطرب مدحت صالح بعد تقديم فاصل





لآلة البيانو قدمه الفنان عمرو سليم.

وجاءت الليلة السابعة تحمل إبداعات عماد الشاروني الموسيقية، وصوت علي الحجار، كما قدم الفنان رامي عبد الله فقرته الغنائية في اليوم الثامن للمهرجان وشاركته فيها المطربة ريهام عبد الحكيم، وقدم العازف الكبير عماد عاشور فاصله الأدائي علي آلة التشيللو، وكان الختام مع أمير الغناء العربي، هاني شاكر.

وفي الليلة التاسعة قدم كل من: رحاب مطاوع، وأحمد عفت الفاصل الأول، وتلا ذلك المطرب وائل جسَّار.

وخصصت الليلة العاشرة للأوركسترا السيمفوني الذي أدى مؤلفات لكل من: وحيد الخان، وفرات قدوري.

أما الليلة الحادية عشرة ففيها شدت المطربة نوال في الفاصل الاول، بينما أبدع صابر الرباعي في الفصل الثاني، ليختتم المهرجان لياليه الفنية مع المطربة البارزة ماجدة الرومي.

ومما يجدر بالذكر أن المطرب الدكتور أحمد إبراهيم أحيا حفلًا للمدائح النبوية بمصاحبة فرسان فرقة الإنشاد الديني في إحدى ليالي المهرجان.

أما الشق الثاني لهذه الدورة فقد تمثّل في مؤتمر الموسيقى العربية الذي عقد متزامنًا مع أيام المهرجان الأولى، وقد دارت معظم محاوره حول العلاقة بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية.

اليوم الأول للمؤتمر دارت أولى جلساته حول "الموسيقى العربية بين الواقع العربي والعالمي" ورأسها الدكتور عماد بدر الدين أبوغازي، وفيها قدم الباحث عامر الديدي ورقته البحثية "بين معالم الهوية الموسيقية العربية والموسيقى الغربية"، أشار الديدي إلى أن التثاقف لم يستأذن أحدًا في يوم من الأيام، وأن العصر الحالي

هل يُعقل أن ينتج المبدع العربي موسيقى غربية ليبهر بها الغرب؟!

تنفتح فيه الثقافات علي بعضها البعض ليحدث كشف سريع لتلك الثقافات، وهذا التقابل يضع الموسيقى العربية أمام تحديات كبيرة أولها محاولة المبدعين العرب تقديم موسيقى غربية للغرب كنوع من الإبهار وإثبات مهاراتهم، وهي معركه في غير صالح الموسيقى العربية.

وأضاف أن العرب أهملوا العناصر الجوهرية الخاصة بموسيقاهم، وركزوا علي أساليب "الهرمنة".

أما الورقة الثانية فكانت للدكتور سليم الزغبي، مستشار الأمم المتحدة في استراتيجيات المعلومات والاتصالات الإلكترونية، بعنوان "استخدام التكنولوجيا الرقمية في توثيق التراث الموسيقي العربي وحفظه ونشره وتوفير منصة أكاديمية وفنية لموسيقية العرب".

وقد ذكر أن التراث الموسيقي العربي يفتقر إلي التوثيق والتدوين العلمي، وأضاف أن الهدف من بحثه هو إبراز أهمية العمل على معالجة هذا النقص الكبير في حفظ التراث الموسيقي العربي بكافة جوانبه.

ثم جاءت الورقه الثالثة للباحث العماني الدكتور ناصر الطائي حول موسيقى الراي والهوية والعولمة، وقد شرح أسباب ظهورها في الجزائر، وكيف انتشرت في تسعينيات القرن الماضي.

ورأس الدكتور عبد الحميد حمام، عضو المجمع العلمي للموسيقى، ثاني الجلسات في اليوم الأول، وكان محورها "آفاق تعليم الموسيقى العربية بين الواقع العربي والعالمي"، وقدمت فيه ثلاث أوراق بحثية: الأولي للدكتور محمد المصمودي من تونس حول "التعليم الإلكتروني في الموسيقي العربية، المشروع الذي ينتظر التحقيق".

وقال إن تغير نظريات التعلم وتفاعلها مع تطور وسائل الاتصال الحديثة



أفرز نمطًا جديدًا يقوم علي توظيف التكنولوجيا الرقمية المبتكرة، وهو ما عرف بالتعلم الإلكتروني، وقد انتشر هذا النمط الجديد في بلدان عدة ليصبح سبيلًا موازيًا للتدريس والتكوين وتنمية المهارات، ويلجأ إليه كل مَنْ وجد في مناهجه وآلياته ما افتقده في طرق التدريس التقليدية.

ونوّه بأن التعليم الموسيقي العربي استطاع أن يكتسب موقعًا مميزًا في المشهد التعليمي المتحول من خلال الدروس المجانية التي قدمتها الجامعات الحرة.

أما الباحث الأردني الدكتور نبيل الدراس، فقدم ورقه حملت هذا العنوان: "الاتجاهات المعاصرة في تعليم العزف علي آلات الموسيقى العربية"، وقال إن هذه الدراسة جاءت بهدف تسليط الضوء علي أهم الاتجاهات المعاصرة في تعليم العزف علي آلات الموسيقى العربية التي اكتسبت شعبية واسعة في الأداء الفردي والجماعي كجزء لا يتجزأ



من الظواهر الثقافية الموسيقية التي فرضتها معالم تطور الفنون الموسيقية العربية من خلال نمو المهارات المهنية للعازفين.

أما الدكتور نجيب شيشون من الجزائر، فقدم ورقة بعنوان "أسس التعليم الموسيقي الأكاديمي في الوطن العربي بين المناهج الغربية المقتبسة وأهمية الانطلاق من تراث الأعمال الموسيقية الغنائية العربية"، وفيه ذكر أن الإنتاج الموسيقي ملأ الدنيا واستخدامات الموسيقى لا حدود لها، وأوضح أنه من أهم المجالات التي وعت أهمية تأثير الموسيقى وعملت علي توظيفها والاستفادة منها هو مجال الفعل التربوي والتعليمي الأكاديمي.

وجاء اليوم الثاني للمؤتمر ليناقش في جلسته الأولى " التجارب الإبداعية الموسيقية التي تتناول الموسيقي العربية في سياق عالمي"، وقدمت فيها أربع أوراق بحثية ورأسها الدكتور يوسف طنوس من لبنان، وفيها قدم الباحث





اللبناني الدكتور إدوارد طوريكيان ورقته التي حملت عنوان "نظريات في التأليف الموسيقي البوليفوني العربي لجوقة غنائية آكابيلا"، قال إنه علي أثر اشتداد التبادلات الثقافية، فإن العالم الموسيقي يشهد ديناميكية البحث عن الحداثة بينما هناك من يقاوم هذه الديناميكية حرصًا علي الحفاظ علي الموسيقى في شكلها التقليدي، وأشار إلي أنه كفنان اختار أن يتشبث بالهوية الموسيقية العربية وأن يقوم بتطويرها لتصل إلي العالمية وليس إلي العولمة.

أما ورقة الدكتور عبد الحميد حمام من الأردن فكانت بعنوان "إضاءات حول أعمال ثلة من مؤلفي الموسيقى الجدد في بلاد الشام"، وقد ذكر أن المؤلفين الموسيقيين الجادين يميلون غالبًا نحو ابتكار مؤلفات تتصف بالجدية والإبداع. وأنه علي الرغم من وجود بعض المبدعين الذين حاولوا تقديم تجاربهم عن طريق استخدام بعض المقامات العربية ذات المسافة المحايدة التي تستخدم ثلاثة أرباع البعد الكامل دون مرجعية سابقه تؤسس لذلك، مما يجعل المنتج السمعي للمؤلفات يصاحبه الكثير من النغمات التآلفية التي تبتعد عن الذوق الجمالي، وبعد ذلك عرض بعض التجارب لهؤلاء المؤلفين.



بينما حملت ورقة الدكتورة منال العفيفي عنوان "التجارب الموسيقية المدمجة للموسيقى العربية مع بعض أنماط من الموسيقي الغربية".

وكانت ورقة الدكتورة نجاة الزيد عبارة عن "دراسة تحليلية لبعض الإبداعات الموسيقية الكويتية الجديدة عند عامر جعفر، التي تناولت الموسيقى العربية في سياق عالمي".

في حين دارت الجلسة الثانية لليوم الثاني حول التجارب الإبداعية الموسيقية التي تتناول الموسيقي العربية في سياق فني عالمي، ورأست الجلسة الدكتورة حنان أبو المجد، وشاركت فيها الباحثة سلوي الشودري بورقة عن "الإبداع الموسيقي في المغرب".

ثم قدم الباحث الليبي الدكتور عبد المنعم بن حامد ورقته التي حملت عنوان "المزج أو التهجين في الموسيقى كمظهر للتفاعل بين الشعوب وثقافاتها وموسيقاها"، وأخذ الأغنية الطرابلسية أنموذجًا.

الورقه الرابعة قدمها الدكتور محمد علاء فتحي بعنوان "دراسة تحليلية لاستخدام أفانين الكتابة البوليفونية العالمية في بعض مؤلفات الباحث الموسيقية".

واختتم هذا اليوم ببحث الدكتور فيصل العربيد حول "تناول الموسيقى العربية في سياق فني عالمي عبر فانتازيا شوق".

ومن الأوراق المهمة التي لفتت الحضور إليها ورقة الدكتور عدنان خلف ساهي الأستاذ بمعهد الفنون الجميلة بالبصرة وكان موضوعه "توظيف الأغنية البغدادية في قوالب غنائية عالمية"

اليوم الثالث للمؤتمر تم تخصيصه لمائدة مستديرة تناولت دور وسائل التوثيق والنشر في تشكيل واقع الموسيقى العربية عربيًا وعالميًا.